

تقديم

بقلم الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد

هذه مقدمة الصحاح للجوهري ، أول مقدمة من نوعها في تاريخ معجمتنا العربية ، إذ لم يسبق تقديم معجم عربي بمقدمة مثلها في استقصائها لتاريخ المعجمات في لغتنا ، وإلمامها بتاريخ المعجمات في اللغات الأخرى ، وقد أفرد فيها الكاتب الباحث نبذة حسنة لترجمة الجوهري صاحب الصحاح ، ولكنها - فيما عدا هذه النبذة - تصلح أن تكون مقدمة تامة للصحاح ولسائر المعجمات العربية في جملتها ، لأنها تغني القارئ بما اشتملت عليه من المعلومات والآراء فيما يتحراه من التوسع والإفاضة إذا شاء .

وقيمة المقدمة بالآراء التي اشتملت عليها لا تقل عن قيمتها بالمعلومات الوافية عن الصحاح وما عداه من الموسوعات المعجمية .

ومن الآراء الصائبة في المقدمة أن الاحتجاج بالموروث من لغة الجاهلية لا يعني أن هذا الموروث صحيح كله أيّاً كان مرجعه إلى الأحاد أو القبائل ، فإن العربي قد يحتج بكلامه فيما سمعه ووعاه من مفردات لسانه ، ولا يصح أن يحتج بكلامه ولا بحكمه في جميع المفردات ، وقد روي عن علي رضي الله عنه أنه سمع النبي صلوات الله عليه يخاطب وفد بني نهد بكلام لا يفهمه فسأله في ذلك فأوضحه له عليه السلام .

وإذا روي هذا عن الإمام في سعة علمه وصحة حكمه وجودة فهمه فأحرى أن يكون غيره دون ذلك في درجات الفهم والإحاطة والاجتهاد .

على أن العامة من عرب الجاهلية وما بعدها كانوا ربما عرفوا الكلام بمفرداته ولم يعرفوه بمعانيه ، ومن طريف ما ورد من الشواهد على ذلك قصة الشاعر الأعرابي مع امرأته التي لامته لأنه لا يتغزل بها ولا يطري محاسنها فقال يسترضيها :

تمت عبيدة إلا من محاسنها فالحسن منها بحيث الشمس والقمر
قل للذي عابها من عائب حنق أقصر فرأس الذي قد عبت والحجر

فهذا وصف على غاية الذم قد فهمته المرأة الأعرابية على أنه غاية الإطراء ، وليس كل الأعراب بهذا الجهل لمعنى الكلام المركب مع فهم مفرداته ، ولكمهم ليسوا جميعاً بمنزلة امرئ القيس وطرفة وزهير في القدرة على تركيب الكلم وفهمه وتوجيهه إلى معناه .

وهذه الملاحظة عن فهم الكلام المركب أجدر ملاحظة أن نلتفت إليها بصدد الحكم على الصحيح وغير الصحيح من القواعد العربية ، لأن الصحة هنا مرتبطة بالكلمة في عبارتها المركبة أو بموقعها من الإعراب — كما يقال في اصطلاح النحاة — فإذا جاز أن يكون اللفظ المفرد المسموع من العرب صحيحاً متواتراً فلا يلزم أن يفهمه جميع الرواة على صحته مرفوعاً أو منصوباً أو مجروراً على حسب موقعه من التركيب .

يقول الأستاذ عطار وقد أصاب : « من الخطأ أن يفهم أحدنا أن الجاهليين كانوا في نجوة من الخطأ، وفي عصمة من اللحن ، بل كان فيهم من يلحن ويخطئ ، وقد جاء في الشعر الجاهلي أبيات لا تميزها قواعد النحو والصرف ، وبعضها لا تميزه القواعد إلا بعد تأويل مسفّ وعلل مصطنعة واعتذار مفتعل^(١) » .

نقول : إن الباحث الفاضل قد أصاب في هذه الملاحظة ، وإنما الخطأ أن نزن القاعدة سابقة لصواب المصيبين وخطأ المخطئين من أصحاب الشواهد التي يسوقها النحاة ، وإنما عُرِفَت القاعدة بعد حصر الشواهد وتغليب الكثرة منها على القلة ، وإبراجح منها على المرجوح ، ويدخل في ذلك تقدير مكان القبيلة من أصالة اللغة والبعد عن منافذ الدخيل ، ويدخل فيه ثبوت الشواهد من كلام محفوظ كالشعر المنظوم والمثل السائر ، ويدخل فيه النظر في التشابه من لهجات القبائل بين الحاضرة والبادية ، ثم يأتي المرجع الأكبر من القرآن الكريم فيصلا نافذ الحكم بين مختلف الآراء والروايات ، فما ورد فيه أغنانا عن البحث فيما عداه ، وما لم يرد فيه كان مرجع الحكم عليه إلى الترجيح والتغليب

ففي اللغة العربية كلمات لا شك في أصالتها لم ترد في القرآن الكريم ، ومنها ما هو كثير التداول على ألسنة الخاصة والعامة ككلمة السخاء ، وهي أصيلة في لفظها ومعناها من العربية الفصحى ، وهي وغيرها مما لم يرد في القرآن الكريم خليقة أن تهدينا إلى وجوه الاستدلال بالكلام المحفوظ

(١) صفحة ٢٧ من هذه المقدمة .

أو الكلام المأثور كائناً ما كان ، فما ورد فيه فهو حجة يؤخذ بها ، وما لم يرد فيه فلا يجوز رفضه إلا إذا خالف الصحيح المتفق عليه .

والأستاذ العطار يشتد في التحرج فيقول عما جاء من العرب مخالفاً للصحيح : « وأنا لا أجزئه لأنني لا أريد القاعدة الصحيحة أن تعطل أو تهدم ، أو يعتورها بعض الخلل ، بل لا أسيغ الشاذ أن يجد طريقاً ليضعف من القاعدة ، كما لا أحب العلة أو التقدير الذي يراد منه تسويغ الخطأ أو الشاذ »^(١).

ثم يضرب المثل بما روى عن أبي النجم العجلي حيث يقول :

إن أباه وأبا أباه قد بلغا في المجد غايتها

وبما ورد لغيره حيث يقول :

تزود منا بين أذناه ضربة دعت إلى هابي التراب عقيم

إلى سائر الشواهد التي أنكرها الأستاذ ، وهو على حق في إنكار الاقتداء بها إذا خطر لبعض المتأخرين أن يقتدي بها ، لأنها سمعت من العرب الأقدمين ، ولكنها لا تسقط من عداد الشواهد التي نسجلها للعلم بتاريخ القاعدة والحكم لها بالتغليب على الشذوذ المرفوض .

ويبدو لنا أن ثروة العريضة تقاس بوفرة الشواهد فيها على المقبول من قواعدها والمرفوض من شواذها ، وبخاصة ما جاء منه لغير ضرورة شعرية كقول القائل :

تزود منا بين أذناه ضربة دعت إلى هابي التراب عقيم

(١) س ٢٩ — ٣٠ من هذه المقدمة .

فإن الوزن يستقيم بالياء في أذنيه كما يستقيم بالألف ، ويلوح البيت مع هذا عربياً في أصالة معاني الكلمات فإن « دعت » في البيت أصيلة المعنى لم يتطرق إليها التعبير المجازي الذي شاعت به في لهجاتنا الحديثة ، ولا يمنع هذا أن يكون القياس عليه باطلاً لإلزام المثني الألف في جميع مواقع الإعراب ، فإنما توضع القاعدة لتغليب المطرد ونفي الشذوذ ، ولا محل لوضع القاعدة إذا تساوى المقبول والمرفوض .

عندنا — وعند أنصار الفصحى أجمعين — أن مسألة القواعد قد فرغَ منها في عصرنا ، فلا يجوز لنا أن نلغيها ولا أن نستحدث بديلاً يناقضها ، وكل ما يجوز لنا أن نتوسع في تطبيقها وأن نقيس عليها ما يماثلها ، وأن نحصر على بقاء نحوها وصرفها ، لأن لغتنا — خاصة — لا تبقى بغير الإعراب ، ولا تصح المشابهة بينها وبين اللغات التي لا إعراب فيها ولا اشتقاق ، لأن قوام اللغات القائمة على النحت ولصق المفردات غير قوام اللغة التي تختلف بالحركة في كل موقع من مواقع الحروف ، ولا سيما الحروف التي يقع عليها الإعراب .

فليست أواخر الكلمات وحدها هي التي تتغير معانيها بالحركة ، بل يتغير معنى الكلمة بالحركة في أول الكلمة ووسطها حتى تتبدل من المعلوم إلى المجهول ، ومن الفاعلية إلى المفعولية ، ومن التكلم إلى الخطاب ، ومن التخفيف إلى التشديد بلفظه ومعناه ، ونحسب أننا لم نستخف بالحركة ودلالاتها القوية في اللغة العربية إلا بعد شيوع الكتابة وشيوع الظن بأن الحركة نافلة لأنها لا تثبت مع الحروف ، ولكن حروف العلة كانت كذلك لا تثبت في أول العهد بالكتابة ، وهي ما هي من القيمة الجوهرية في معاني الأصول والمشتقات .

فمسألة القواعد في عصرنا هذا مفروغ منها لا تحتل التغيير إلا على نية واحدة ؛ وهي نية القضاء على الفصحى والاستغناء عنها باللهجات العامية ، ولا يقول بذلك أحد يفقه ما يقول ولو كان من دعاة التسهيل بغير مبالاة منه بالعاقبة ، فإن كتابة العلوم والمعارف باللهجة العامية أصعب جداً من كتابتها بلغة القواعد والإعراب .

إنما نحن في عصر المعجمات على اختلافها لا في عصر القواعد واستحداثها . وإنما نحن في عصر المعجمات اليوم ، لأن المعجمات الأولى — ومنها هذا الصحاح — قد وضعت في حينها لأسباب كالأسباب التي نواجهها بجميع تفصيلاتها ، ومنها انتشار الدخيل والمولد والمعرّب والمترجم ، واختلاط الناطقين بالضاد ومن يعاملونه أو يعاملهم من الأعاجم وأدعياء العربية ، وإن المعجمات السلفية لتنفعنا اليوم كما تنفعنا المعجمات التي نجمعها وتتوخى فيها أساليبها أو نبتدع لها ما يوافقنا من شتى الأساليب .

وفي وسعنا أن نضيف المفردات إلى معجمتنا كما أضافها اللغويون من أمثال الجوهري وتلاميذه الثقة ، فلا حرج على اللغة من إثبات المولد والدخيل والمعرّب في مواضعها من المعجمات الحديثة ، لأنها إذا جرت في اشتقاقها أو النطق بها مجرى الفصح زادت ثروة اللغة ولم تنتقص منها ، ودلت على مرونة في العربية تجاري بها الزمن ، وتلي بها مطالب الحضارة ومطالب العلوم المتجددة على الزمن ، وربما كان مصاب اللغة بالتحجر وفقدان المرونة أشدّ عليها من فقدان القواعد النحوية والصرفية ، لأن كثيراً من اللغات ماتت ومعها قواعد صرفها ونحوها ، ولم تمت لغة كان لها من المرونة ما يلبي مطالب الجماعات الإنسانية في كل بيئة وكل مقام .

ولقد قيل كثيراً : إن اللغة العربية بقيت لأنها لغة القرآن الكريم ، وهو قول صحيح لا ريب فيه ، ولكن القرآن الكريم إنما أبقى اللغة لأن الإسلام دين الإنسانية قاطبة وليس بالدين المقصور على شعب أو قبيل ، وقد ماتت العبرية وهي لغة دينية أو لغة كتاب يدين به قومه ويحسبون أنهم وحدهم المخصوصون بالخطاب من عند الله ، ولم تمت العبرية إلا لأنها فقدت المرونة التي تجعلها لغة إنسانية ، وتخرجها من حظيرة العصبية الضيقة بحيث وضعها أبناؤها منذ قرون .

إن هذه الفضيلة الإنسانية التي لا تفرق بين العربي والأعجمي ؛ ولا بين القرشي والحبشي هي التي أنهضت لخدمة اللغة أناسا من الأعاجم غاروا عليها من حيف الأعجمية ، أي أنهم غاروا عليها من لغة أمهاتهم وآبائهم ، لأنها لغتهم على المساواة بينهم وبين جميع المؤمنين بالقرآن الكريم كتاب الإسلام ، ولو كان هذا الكتاب « عصبيا » لا يشرك في تراث الدين أحدا غير أبناء لغة من اللغات لما جاءت الغيرة عليه من الأعاجم كما جاءت من أبناء قحطان وعدنان .

ونحن معاصر المتكلمين بالعربية في عصرنا نسير على نهج الأقدمين في خدمتها كما حرصنا على قواعدنا وحرصنا إلى جانب القواعد على مرونتها وعلى مزيتها الكبرى من قبول التجديد والموافقة لمطالب بني الإنسان في جميع العهود ، وستبقى اللغة ما دام لها أنصار يريدون لها البقاء ، ولم ينقطع أنصارها في عصرنا الحاضر ، بل نراهم بحمد الله يزدادون ويتعاونون ، ويتلاقى أبناء البلاد المختلفة على خدمتها ودعمها ، لأنهم مختلفون بمواقع البلاد متفقون بمقاصد الضمائر والألسنة والأفكار .

وإن ابتعث صحاح الجوهري الذي بين أيدينا من زوايا الترك والإهمال
لهو آية من آيات هذه القوة الحيوية التي تمتاز بها اللغة العربية ، وتدعونا
إلى الطمأنينة على حاضرها ومستقبلها ، وإلى الثقة بأننا مسلموها بعدنا إلى المتممين
المجددين ، ولسنا مسلميها يوماً إلى المفرطين المضيعين .

ولا حاجة بالمرء إلى بصر كبير بوسائل الإحياء والنشر في أمثال هذا
المعجم ليعلم الجهد الجهد الذي اضطلع به من أشرف على تحقيقه أو قام
بالإنفاق على نقله وطبعه ونشره وإعداده للتداول بين أيدي قراء العربية
في جميع الأقطار .

ذلك جهد مشكور ماثور للأستاذ الباحث « أحمد عبد الغفور عطار »
يجزيه عليه بالثناء الجميل كل مستفيد بالصحاح في هذه الطبعة المهدبة الميسرة
للمراجعة والاطلاع .

عباس محمود العقاد

القاهرة } ٢٤ جمادى الآخرة ١٣٧٥ هـ
٦ فبراير ١٩٥٦ م

اللغة العَرَبِيَّة

اللغة العربية إحدى اللغات الحية التي قامت على وجه الأرض ، وأدت رسالتها في الحياة كخير ما تؤدّي الرسالات ، وعبرت في عصورها الأولى عن حاجات المجتمعات التي كانت تتخذها لغة يعبر بها عن مطالبها وحاجاتها وآلامها وآمالها وآدابها وعلومها وفنونها ؛ ولم تجمد في ماضيها أو تقف عن السير مع الزمن والحياة ، بل مشت مع كل مجتمع عربي ، تسمو بسموه ، وتتأخر بتأخره ، وهو نفسه يسمو بسموها ويتأخر بتأخرها .

وما زالت العربية حتى الآن متسعة للتعبير عن الحياة وما جدّ فيها ، ومستعدة أن تتسع وتتسع أكثر من ذي قبل لكل جديد مبتكر ومُخترع حديث ، حتى تكون مثل لغات العصر الحية التي استوعبت الحياة وكل ما جدّ فيها .

اللغة : مجتمع وحياة

واللغة — كل لغة — ظاهرة اجتماعية ، بل أكبر الظواهر الاجتماعية ، وثمرّة من ثمرات المجتمع التي تتخذها وسيلة للإفصاح والإبانة والفهم والتعبير ، وهي التي تدّخر في كلماتها أخلاق أهلها وعاداتهم ونشاطهم الأدبي والفكري « وآثار الحياة العامة وحياة الدور والمنازل ، وآثار الذين استنشقوا الهواء ،

وكل كلمة من كلمات اللغة يقابلها فكر من الأفكار ، كان فكر طائفة من البشر لا يُعلم عددهم ، وعاطفة من العواطف كانت عاطفة جمهور من الناس لا يحصون ، إن كل كلمة من هذه الكلمات المجموعة إنما هي لحم الوطن والبشر ودمهما وروحهما^(١) » ، وكل ما يتصل بهما بسبب أو بأكثر من سبب ، وهي بعد ذلك تؤثر في السلوك الإنساني للمجتمع ، سواء أكان سلوك جماعات أم سلوك أفراد ، وتؤثر في الذهن والعقل والشعور .

والعربية كانت قائمة خير قيام بحاجات أهلها ، وكلما تقدم بهم الزمن وتقدمت بهم الحياة تقدمت معهم لغتهم التي فتحت أبوابها لاستقبال الجديد بعد أن يصهرُوا ما يمكن صهره من الألفاظ في « بواتقهم » وإبقاء ما لا سبيل لهم إلى تغييره ، والإفادة منه في الإفصاح والتعبير ، واستخدامها عند الضرورة والحاجة ، وتوسعة اللغة لا بالترادفات بل بالمفردات التي تعطي كل كلمة منها معنى خاصاً أو صورة خاصة أو تشير إلى مسمى خاص .

وكانت العربية سهلة مرنة متسامحة عند من أخذنا عنهم هذه اللغة ، إلا أنها جمدت منذ قرون ، ووقف نشاطها فلم تطق أن تسير ؛ لأن الأغلال والقيود عثرت خطاها ومنعتها من السير الحثيث ؛ و « جمدناها » وصرنا أسرى اللغة بعد أن كانت هي نفسها في خدمتنا .

العربية الأولى

وكانت العربية الأولى لغة القبائل التي سكنت شبه الجزيرة ، من اليمن إلى الشام إلى العراق وتخوم فلسطين وسيناء ، وقد عرفت باللغة السريانية

(١) ما بين القوسين لأناتول فرانس . (المناهج الأدبية ٢٠٢) .

خطأً نَجَمَ من إطلاق اليونان هذا الاسم عليها ، وسبب ذلك أنهم كانوا يسمّون الشام الشمالية آشورية أو سورية ، فشاعت تسمية العربية بالسريانية^(١) .

والعربية إحدى اللغات الساميّة . « واللغات السامية المشهورة في القدم : الأكادية — الآشورية البابلية — والساميّة الشرقية ، والساميّة الغربية ، وتنقسم هذه إلى العربية الشمالية والعربية الجنوبية ، أي المعينية والسبئية والأثيوبية ؛ ومعها لهجات شتى : بعضها قديم ، وبعضها حديث ، وكل تقسيم من هذه التقسيمات فإنما هو مسألة اصطلاح ، والتفرقة فيه أقل من التفرقة بين اللغات الهندية الجرمانيّة التي درسها الباحثون خلال القرن أو القرن والنصف الأخير ؛ إذ أن اللغات الساميّة القديمة — عدا الأكادية — تتقارب في الأجرومية والنطق بحيث تشترك كل لهجة وما جاورها ، ولا يلحظ الانتقال من لهجة إلى لهجة إلا كما يلحظ مثل هذا الانتقال اليوم بين اللهجات الفرنسية والجرمانية ، ولما بدأ عصر الآباء العبريين عند مطلع الألف الثانية قبل الميلاد لم يكن الفرق بين اللغات يزيد على الفرق بين اللهجات العربية الأصليّة في هذه الأيام^(١) . »

وإذا كانت العربية تعود مع اللغات السامية الأخرى إلى أصل واحد ، فإن من الطبيعيّ أن تتقارب وتأتلف في بعض الأصول والقواعد ، ويأخذ بعضها من بعض كلما أعوز الأمر ؛ وقد نقل مرجليوث عن دسو Dussaud أن الأحافير النبطية التي ترجع إلى القرن الثالث قبل الهجرة تدل على تقارب شديد بين الآرامية والعربية الفصحى^(١) .

(١) أبو الأنبياء ، للعقاد .

« وقد لوحظ التقارب بين اللغات أو اللهجات العربية ، فيما هو أقدم من ذلك كثيراً بحيث لا يحسب تاريخه بأقل من ألفى سنة قبل الميلاد ، فإن أداة التعريف وضمير المتكلم والغائب وكلمات النفي والنهي وتصريف الأفعال مشتركة بين العربية واللغة الآشورية التي تنسب إليها السريانية^(١) . »

وهناك تشابه ظاهر بين العربية والبابلية في كثير من أوجه الإعراب والحركات ، وكل الأفعال في البابلية قريبة في صيغها من العربية ، وعلامة الجمع في البابلية والعربية واحدة^(٢) .

وكل هذا يثبت أن العربية لم تكن مقطوعة النسب مُنْبَتَّة لا تتصل بأخوات ، بل لها أخوات ، ولهنّ جميعاً أصل واحد تفرعن منه .

وكانت اللغة العربية الأولى لغة عاد وثمود وطسم وجديس وعمليق وجهرم من أولاد إرم بن سام كما تذكر المصادر العربية^(٣) ؛ وهذه هي المعروفة في تواريخ العرب بالقبائل البائدة .

وإن ما اتفق عليه مؤرخو العرب القدماء من أهل الحجاز والمؤرخون المحدثون أن اليمن كانت مصدر العربية الأولى ، لأن العاربة هم أهل اليمن ، ثم يليهم المستعربة .

إلا أن من الثابت تاريخياً أن العربية لم تبلغ حد النضج والصقل والسمو في اليمن ، بل بلغت ذلك كله في الحجاز عند ما استقرّ بها المطاف في رحابه

(١) أبو الأنبياء .

(٢) السكز في قواعد اللغة العبرية ص ١٩ .

(٣) تهذيب الألفاظ .

بعد انتقالها من اليمن إلى العراق فالحجاز ، حيث بلغت في الحجاز الأوج ،
وكتب لها أن تهذب وتبلغ حد الكمال .

تنقيح العربية والاهتمام بها

وأول تنقيح للعربية كان على يد يعرب بن قحطان رأس العرب . ولكن
مع هذا لم تكن العربية اللغة الفصحى المعروفة في الآثار والصور البيانية التي
وصلتنا من الجاهلية وما بعدها .

ومن غير شك أن اللغة العربية بلغت أوج مجدها وارتفعت إلى أعلى
الذرى في عهد الإسلام الأول ، لأنها أصبحت جزءاً من الدين ، ولكن
اهتمام أبنائها كان منذ العصر الجاهلي ، إلا أن هذا الاهتمام ازداد بظهور
الإسلام ، ففي عصر النبوة وصدر الإسلام أخذ الناس يهتمون بالعربية كثيراً
ويحرصون عليها ؛ لأنها لغة القرآن والدين والرسول الصادق الأمين .

ثم انتقل الاهتمام عند ازدياد الفتح الإسلامي إلى ناحية أخرى ؛ ألا وهي
حفظ التراث اللغوي ، والدفاع عنه ، وردّ عدوان الدخيل الذي قذفته
البلدان المفتوحة والأمم المغلوبة .

ولكن من الشطط أن يظن الناس أن الدخيل كان متأخراً أى بعد
عصور الاحتجاج ، بل كان الدخيل منذ عرفت العربية ، فما المعرب
في حقيقته إن لم يكن دخيلاً ؟ .

قصور العربي عن فهم كل كلمات اللغة

ومن الشطط أيضاً أن يظن الناس أن كل عربي فصيح يُحتَجُّ بلغته ،

كان يعرف معنى كل كلمة تصافح سمعه ، ولقد ثبت أن الراسخين في فهم اللغة العربية وفصحها ونوادرها وحوشيتها كانوا يجهلون مغاى كثير من الألفاظ .

روى سهل بن معاذ عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تزال الأمة على شريعة ما لم يظهر فيها ثلاث : ما لم يقبض منهم العلم ، ويكثر فيهم الخبث ، وتظهر فيهم السقارة . قالوا : وما السقارة يا رسول الله ؟ قال بشر يكونون في آخر الزمان تحيتهم بينهم إذا تلاقوا التلاعن » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أحبكم إلىّ وأقربكم مجلسا منى يوم القيامة أحابسكم أخلاقا ، وأبغضكم إلىّ وأبعدكم منى مجلسا يوم القيامة هم الثرثارون المتشدقون المتفيهقون ؟ قالوا : يا رسول الله ، قد عرفنا الثرثارين والمتشدقين ، فمن المتفيهقون ؟ قال : المتكبرون » .

وسأل عمر رضى الله عنه أصحابه وهو على المنبر عن معنى التخوف في قوله تعالى : ﴿ أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ ﴾ فسكتوا ، فقام شيخ من هذيل فقال : هذه لغتنا . التخوف : التنقص . قال عمر : فهل تعرف العرب ذلك في أشعارها ؟ قال : نعم . قال شاعرنا زهير :

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ مِنْهَا تَامِكًا قَرِدًا كَمَا تَخَوَّفَ عُودَ النَّبْعَةِ السَّفِينُ^(١)

وسمع على — كرم الله وجهه — رسول الله صلى الله عليه وسلم يخاطب وفد بنى نهد فقال : يا رسول الله ، نحن بنو أب واحد ونراك تكلم العرب بما لا نفهم أكثره . وكان رسول الله يوضح ما يسألونه عنه مما لا يعرفون معناه .

(١) تهذيب الألفاظ ص ٦ ديوان زهير

وسئل عمر بن الخطاب : ما الأب ؟ فلم يعرف معناه .

ولم يعرف عبد الله بن عباس معنى « فاطر » .

وأمثال هذه الحوادث كثيرة ، وكلها تدل على أن العرب لم يكونوا يعرفون معنى كل ما يسمعون من ألفاظ الفصحى ، بل كانت تغيب عنهم معاني كثيرة ، ويجهلون معاني كثيرة .

من يحتج بهم يخطئون

كما أن من الخطأ أن يفهم أحدا أن الجاهليين كانوا في نجوة من الخطأ ، وفي عصمة من اللحن ، بل كان فيهم من يلحن ويخطئ ، وقد جاء في الشعر الجاهلي أبيات لا تجيزها قواعد النحو والصرف ، وبعضها لا تجيزه القواعد إلا بعد تأويل مُسِفِّ وعلل مصطنعة واعتذار مفتعل .

وهذا طبيعي في اللغات ، وطبيعي في اللغة العربية التي تنفق مع أخوات لها في كثير من القواعد والصيغ والتراكيب ؛ ولا يسع أحدا أن يسلم لسانه من الخطأ في كل ما ينطق إلا الرسل عليهم الصلاة والسلام ؛ وإلا الأفحاح من العرب ذوو السلائق السليمة .

ونحن نشاهد أن اللغة العامية التي خرجت على القواعد وفتحت الباب للدخيل من كل لغة ؛ يغلط فيها الإنسان غلطا قد يكون سبق لسان فلا يصوبه ، فيسمعه مَنْ دونه ويظنه صوابا فيستعمله فيغلط وينتشر الغلط ، وذلك كثير مثل تذكير المؤنث وتأنيث المذكر .

ولعل الرواسب الأولى للغة العربية — قبل أن تنضج وتكمل وتستوى —

تطفو على الألسنة وتنزلق منها ، وذلك يبدو في اللغات الشاذة وبعض التصحيف والتحريف وفي اللحن والاشتقاق الغالط وغيرها .

وإن لغة تتصل في مصدرها الأول بلغات سامية كثيرة لا بد أن يدخل على ألسنة بعض الناطقين بها بعض الخطأ ، وإن لغة يشارك غير أهلها أهلها لا بد أن تتأثر ألسنة أصحابها بما تلتقط من الدخيل .

ولا شك عندى أن دخول أبناء إسماعيل الاثني عشر في العرب جعل لبعض الكلمات الدخيلة والألفاظ السوادية التي أصبحت عربية فصيحة بعد أن عقي على أصولها وحقيقة مصادرها النسيان أو الجهل أن تدخل في لسان العرب المبين .

وإذا عُرِفَ أن كثيراً من شذاذ الآفاق والهاربين من الظلم في مصر والشام والعراق وفارس والهند تركوا أوطانهم إلى جزيرة العرب حتى يكونوا في مأمن من الشر الذي يريد أن يتخطفهم ، لأن الجزيرة صحراء تحول بينهم وبين حكوماتهم أو طالبهم ويمنع الوصول إليهم ، عرفنا أنهم انتقلوا بلغاتهم ، والمجاورة أو الاختلاط يؤثر في اللغة .

وفي القرن الخامس قبل الميلاد اكتسح الفرس بلاد الكلدان وأرهق الغزاة سكانها حتى اضطر عدد كبير منهم أن يهجروا وطنهم الأصلي إلى بلاد العرب حيث يجدون الأمن ، ويتعدون عن الموت .

وهذه الموجات البشرية التي انتقلت إلى الجزيرة العربية أثرت في اللغة العربية ، وأمدتها بكلمات ، ونقلت معها عادات وأثارة من علم وحضارة عبروا عنها بألفاظ لم تكن معروفة عند العرب .

وقد أشار القرآن الكريم إلى العامية أو غير الفصحى في قوله تعالى :
﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ . واحترز
القرآن عندما وصف اللسان بأنه عربي فوصفه بأنه مبين ، والمبين : الفصيح
الذي لا كدرة فيه من عجمة أو لحن أو عيب ، وهذه الآية ردٌّ على من
زعم أن الرسول عليه الصلاة والسلام تعلم من غلام سوقي^(١) .

وتثبت الآية — أيضاً — أن مكة كانت موطناً لغير العرب ، والتاريخ
الصحيح يؤيد ذلك .

ونفهم من كل ما قدمنا أن العربية لم تقف في وجه الموجات البشرية
ولا في وجه الكلمات الدخيلة ، بل استقبلت الآلاف ، وما عرفه العرب
أو أخذوه من الدخيل لحاجتهم إليه طوعوه للسانهم وعربوه ، وأعتقد أن
كثيراً من الكلمات لم تكن عربية الأصل ، ولكن جهل العلماء والباحثين
بأصولها الصحيحة حملهم على اعتبارها عربية أصيلة .

ونخلص من كل هذه التوطئة أن في العربية ما ليس بعربي ، ولهذا نجد
في الشعر العربي وكلام العرب كثيراً من الآثار البيانية الخاطئة بالنسبة للقواعد
الصحيحة التي لا تأويل فيها ولا تسويق بالعلة المغنية والتقدير المفتعل .

ونجد هذا الخطأ النحوي أو اللغوي أو الصرفي في الأعصر التي استقام
فيها اللسان العربي وبلغ أوجه في السلامة والإعراب والصحة والقوة والسخاء .
وغير بعيد — عندي — أن يكون هذا الخطأ أثراً من آثار رواسب اللغة

(١) روح المعاني ١٤ : ٣٢٤ ، وتفسير النسفي ٢ : ٣٣٢ .

العربية قبل كلها وبلغها مرتبة الصقل والتهذيب ؛ تظهر على الألسنة ولا يستطيع الناطق لها ردًّا .

وعلى سبيل المثال أذكر بعض هذه الرواسب التي أعتدّها من الخطأ الذي وقع من العرب ممن يحتج بلغتهم . هو خطأ عند من يبتغي السهولة واليسر والقاعدة الصحيحة التي لا تلف ولا تدور ، هو — عندى — خطأ وإن كان بعض اللغات يجيزه ، وأنا لا أجزى لأننى لا أريد القاعدة الصحيحة أن تعتل أو تهدم أو يعتورها بعض الخلل ، بل لا أسيغ الشاذ أن يجد طريقاً ليضعف من القاعدة ، كما لا أحب العلة أو التقدير الذي يراد منه تسويغ الخطأ أو الشاذ .

وهذه أمثلة مما أعتدّه خطأ . قال أبو النجم العجلى :

إن أباهأ وأبا أباهأ قد بلغا فى المجد غايتاهأ

وقال آخر :

تزود منا بين أذناه ضربة دعته إلى هابى التراب عقيم

وقال راجز من ضبّة :

أعرف منها الجيد والعينانا ومنخرين أشبها ظبيانانا

ولجرير :

عرفنا جعفرأ وبنى أبيه وأنكرنا زعانف آخرين

وقال شاعر من خزاعة ، وقيل : من جرهم :

ألم نسق الحجيح سلى معدأ سينا ما نعدأ لها حسابا

وقال آخر :

إنى أبى أبى ذو مُحافَظة وابنُ أبى أبى من أبين

وقال آخر :

غدا مالك يرمى نسائي كأنما نسائي لسهمي مالك غرضان
فيارب فاترك لي جُهَيْمَةً أعصراً فمالك موت بالقضاء دهاني

يريد : ملك الموت .

ولقيس بن زهير، صاحب داحس ؛ وهي فرسه :

ألم يأتيك والأنباء تُنمى بما لاقت لبون بني زياد

وقال آخر :

قفنا عند مما تعرفان ربوع

وقال طرفة :

اضرب^(١) عنك الهموم طارقها ضربك بالسيف قونس الفرس

وأشدد أبو زيد في نوادره :

من أي يومى من الموت أفر أيوم لم يُقدَّر أم يوم قدِر

وقالت عائشة بنت الأعمى :

في كل ما همَّ أمضى رأيه قدماً ولم يشاور في الأمر الذى فعلا

وقيل :

إذا أسود جنح الليل فلتأت ولتكن خطاك خفافاً إن حُرَّاسنا أسدا

وقال العجاج :

يا ليت أيام الصبا رواجعا

ولذى الخرق الطهوى :

يقول الخنا وأبغض العجم ناطقا إلى ربنا صوت الحمار اليجدع

(١) الشاهد في « اضرب » حيث اضطر إلى تحريك الباء بالفتح مع أنه فعل أمر وهو هنا مبنى على السكون ، وحركة ضرورة .

وقول الآخر:

فدو المال يؤتى ماله دون عرضه لما نابه والطارق اليتعمّل

وقيل :

ما أنت بالحكم الترضى حكومته ولا الأصيل، ولا ذى رأى والحسب

وقال آخر:

لا تبعثن الحرب إننى لك الـ يُنذِرُ من نيرانها فاتق

وقيل :

أشاهرُنَّ بعدنا السيوف

وقيل :

أقائلُنَّ أحضروا الشهود

وقيل :

دامنَّ سعدك إن رحمت متياً لولاك لم يك للصبابة جانحا

وقيل :

فما وجدت نساء بنى تميم حلائل أسودين وأحمرين

وقيل :-

فلن يحل للعينين بعدك منظر

وللعمانى :

كان أذنيه إذا تشوفا قادمة أو قلماً محرفاً

وقال شاعر :

أبيت أسرى وتبتي تدلّكى وجهك بالعنبر والمسك الذكى^(١)

(١) هذه الشواهد من كتاب البيان لسكات هذه السطور

بل قرأ بعضهم القرآن الكريم بألسنة شاذة لا أسيغها ولا أقرأ بها
ولا أجز القراءة بها ، ومن ذلك قراءة أبي جعفر المنصور لقوله تعالى :
﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ قراها أبو جعفر : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ .
وخرَّجَ هذه القراءة ابن عطية وجماعة على أن الأصل ألم نشرحن ؛
بنون التوكيد الخفيفة فأبدل من النون ألفا ثم حذفها تخفيفاً ، وفي البحر :
إن لهذه القراءة تخريجاً أحسن مما ذكر ، وهو أن الفتح على لغة من
ينصب بها ويجزم بلن عكس المعروف .

كل هذه الأمثلة والشواهد تدل على أن مخالفة القاعدة المثلى كانت
معروفة في العهود التي يحتج بلغة أهلها .

والشدوذ في العربية كثير ، بل كان في العربية مع الشذوذ خطأ وغلط ،
نجدها في آثار من وصلتنا آثارهم ، وخاف العلماء على اللغة فوقفوا أمام
هذه الغزوات يقظين ، ومنعوا أخذ اللغة من القبائل العربية واستثنوا بضع
قبائل وثقوها وأخذوا عنها ووضعوا لتلقى اللغة قاعدة صعبة ، فمنعوا أخذها
من حَضْرَى خشية أن يكون في لغته ما ليس من العربية فيدخل في صميمها .

وقد ثبت أن حاضرة الحجاز لم تكن خالية من رجال ونساء من أبناء الأمم
الأخرى من يونان وفُرس ، وكانت دُورُ اللذة مزدحمة بنساء الأعاجم ، بل
كان كثير من سكان مكة من عِلَية القوم يرحلون إلى اليمن والشام وغيرها
بتجارات قبل الهجرة ، ولهذا لم يأخذ العلماء اللغة من حَضْرَى مبالغة
في التحرّي والصون .

ومنعوا الأخذ من سكان البراري ممن كانت مساكنهم مجاورة للأمم

غير العربية كلخّم وجُذام جيران مصر والقبط ، وقضاة وغسان وإياد جيران أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية ، وتغلب اليمن الذين كانوا بالجزيرة لمجاورتهم ^{اليونان} ، وبكر جيران النبط والفرس ، وعبد القيس وأزد عمان لأنهم كانوا بالبحرين وكانوا يختلطون بالهند والفرس ، وأهل اليمن لمخالطتهم الهند والحبشة ، وبني حنيفة وسكان اليمامة وثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم التجار المقيمين بينهم ، ولم تؤخذ اللغة إلا من قريش وقيس وتميم وأسد وهذيل وبعض كنانة وبعض طيء^(١) .

كل هذا يدل على أن القبائل العربية في العصر الجاهلي لم تكن لغتها العربية وفقا على الفصحى وحدها ، بل كان فيها كثير من الدخيل الذي قذفته الأمم المجاورة وأفراد الشعوب المختلطون بالعرب ؛ ويدل منع العلماء أخذ اللغة من أولئك القبائل على أن بعض القبائل العربية لم تكن ذات ألسنة صافية خالصة ، وإلا لما منعوا الأخذ منها وتلقّى اللغة عنها .

واشتراك العربية مع شقيقاتها في النسب ، ثم مجاورة القبائل العربية لغير العرب جعلوا الباب مفتوحا للدخيل ، فبهراء كانت تكسر حرف المضارعة — كالعامية المعاصرة — وأعتقد أن مرد هذا إلى العبرية والسريانية اللتين كانتا تكسران حرف المضارعة^(٢) .

وسرت عدوى كسر حرف المضارعة من العبرية والسريانية إلى بهراء ، ومن بهراء إلى العرب قاطبة — ماعدا الحجاز — إلا أن هذه عندما انتقلت

(١) البستان ١ : ٣٤

(٢) الكنز في قواعد اللغة العبرية ص ١٧

إلى العرب لم تنتقل إليها بحذافيرها ، بل اقتصرت على ناحية واحدة ، وقد قال سيبويه في الكتاب : « يتفق جميع العرب في كسر حرف المضارعة إلا أهل الحجاز في نحو فَعَلَ إذا كانت فاؤه أو لامه ياء أو واواً نحو وَجَلَ وَخَشَى فيقولون : نِجَلُ وَنَحْشَى ، بكسر نون المضارعة » . وهذا يسمى تلتلة بهراء .

وقل مثل ذلك في طمطمانية حمير ، وكشكشة ربيعة ، وكسكسة هوازن ، وفخفخة هذيل ، ووكم ربيعة ، ووهم كلب ، وعججة قضاء ، وشنشنة اليمن ووثمها ، وعجرفة ضبة ، وغير ذلك من العيوب اللغوية التي لا تتفق مع الفصحى العالية في النطق ومخارج الحروف .

العربية غنية ومرنة

والعربية جد غنية بثروة لغوية لا قُدْرَةَ لأحد على أن يُحْصِيَهَا إحصاء ، لأن هذه الثروة من الضخامة والسعة بحيث لا تسلس قيادها لمن يريد حصرها ، أو إحصاءها ، وإن أكثر مواد اللغة العربية غير مستعملٍ ، وكثير منه غير معروف ، وقد قال الكسائي : « قد درس من كلام العرب كثير »^(١) وحكى يونس بن حبيب البصرى عن أبي عمرو أنه قال : « ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ؛ ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير »^(٢) . وإن المستعمل من العربية في عصرنا الحاضر لا يكاد يزيد عن عشرة آلاف مادة ، مع أن الصحاح يضم أربعين ألف مادة ،

(١) اللسان ٣ : ٤٣١ .

(٢) نزهة الألباء ٣٣ .

والقاموس ستين ألف ملدة ، والتكملة ستين ألفا ، واللسان ثمانين ألفا ،
والتاج عشرين ومائة ألف مادة .

وإن العربية قد بلغت في الغنى والسعة في المفردات اللغوية الحد الذي
لم تبلغه لغة على وجه الأرض حتى الآن .

ومع أن ما يستعمل من ألفاظ اللغة لم يتجاوز عشرة الآلاف من المواد
فإنها لم تضيق عن كل حاجات الإنسان وتجاربه وخواطره وعلومه وفنونه
وآدابه ، بل وسعت روافد الحضارة والعلوم غير المعروفة عند العرب في أزهي
العصور الإسلامية ، غير أن المتأخرين وقفوا عند الحدود التي وقفت عندها
العرب ، وجمدوا اللغة حتى انتهت من المعاصرين بالضيق والعقم لأنها عجزت
عن إيجاد كلمات لما زخرت به حضارة القرن العشرين من مصطلحات
ومخترعات .

وهذا الاهتمام ليس صحيحاً كله ، فالعربية مرنة تتسع لكل حاجات
الإنسان مهما كثرت هذه الحاجات ، فخصائص هذه اللغة كالاشتقاق والنحت
والتعريب وغير ذلك تعين على أن تفتح صدرها لاستقبال الجديد وضحه إليها .

إن في وسعنا أن نفيد من هذه الكثرة الكاثرة ، والثروة الطائلة ،
ونحرص على سلامة اللغة ، دون أن نحمل معنى الحرص الجمود أو التنكّر
للجديد ، فطبيعة العربية سهلة مرنة قادرة على أن تستوعب كل جديد دون
أن تضيق به إذا لبس الجديد رداء العربية الجميل ، أو أحسن المقام في جوارها ،
فهي في جاهليتها لم تضيق بالتعريب ، والقرآن الكريم — حجة الفصحى
وحارسها ونموذجها الأعلى — حوى من الألفاظ المعربة كثيراً ، وصحب الإسلام

استعمالُ كلمات كثيرة في غير ما وُضِعَتْ له مثل الصلاة والزكاة والصوم والمؤمن والمحسن والمسلم والكافر والمنافق والفساد .

إن العربية لم تضيق وهي في أوج مجدها بأبنائها ، ولم تبخل عليهم بالكلمات التي يحتاجون إليها للتعبير عن كل ما يريدون ، بل وما يزال جزء يسير منها مُتَّسِعًا لكل ما يحتاج إليه العالم المتمكن الراسخ في الأدب والعلم والفن والفلسفة وغيرها ؛ اتسع هذا الجزء — وهو لا يعدو عشرة آلاف كلمة — لكل حاجات عالم كبير وأديب مطبوع وعبقري لا يفري فريه .

وأذكر — على سبيل المثال — أن الأستاذ عباس محمود العقاد الذي أَعْتَدَهُ أخصب عقلية عربية معاصرة ، وأكبرها وأضخمها وأكثرها استيعابا للآداب والعلوم والفنون ، لم يستعمل من اللغة إلا عشرة آلاف كلمة .

واختصت العقاد بالذكر ، وضربت به المثل دون غيره لأنه أكثر رجال العلم والأدب والفلسفة تأليفا ، ولأن ما كتبه بلغ من القوة والعمق والروعة ما لم يبلغه ما كتبه أى أديب أو عالم عربى ، ولأنه بلغ من الثقافة الرفيعة ما لم يبلغه عربى معاصر ، ولأنه كتب في العلوم والآداب والفنون والفلسفات القديمة والحديثة ما لم يكتبه عربى ، ولأنه استعمل من المفردات اللغوية في شعره ونثره كلمات كثيرة أخرجها من المعجم ونفخ فيها الروح وأكسبها الحياة والقوة والجمال .

هذا الكاتب العظيم ذو الثقافة الواسعة الذى ألف أكثر من ستين كتابا من خير ما تحوى المكتبة العربية لم يستعمل إلا عشرة آلاف من الكلمات .

ونستدل من هذا على أن المحسن في اللغة من يحسن التصرف والأداء والاستعمال .

وإذا اتسع جزء يسير من اللغة لكل هذا فإن فيما بقي منها مُتَّسَعًا لروافد حضارة القرن العشرين وعلومه وآدابه وفنونه ومخترعاته ، هذا إذا أَحْسَنَّا التصرف فيه ، وفتحنا أبواب الاشتقاق والتعريب ، وأخضعنا ما نريد تعريبه للقواعد العربية وموازينها .

ونحن في هذه الأيام على أبواب نهضة لغوية جديدة يجب أن نُغْذِيَهَا بالإحياء والبعث والتعريب والوضع ، حتى نجعل لغتنا مستوعبة كلِّ حاجات العصر الحاضر فتكون في هذا السبيل غنية مثل غناها في المفردات .

وما دام أسلافنا وضعوا لبعض المسميات مئات المفردات ، فليضع « المعاصرون » أسماء للمسميات الحديثة التي وقفنا أمامها لكثرتها دهشين ؛ عاجزين عن استحداث ألفاظ للمخترعات الحديثة .

وما دمنا قد تقدمنا في مجال الاستعمال اللغوي والأسلوب الكتابي ، فلنتقدم بلغتنا التي جمدها المتأخرون منذ عصور فساد اللغة وانحطاط أساليب الكتابة ، وجعلوها مقدسة كالقرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولتكون نهضتنا اللغوية صحيحة يجب أن نُصَحِّبَهَا بنهضة أكبر من التأليف والطبع والنشر ، وذلك بأن نستقبل الجديد ونجد أسماء له عن طريق الوضع أو التعريب أو الاشتقاق مع المحافظة على أصول العربية وقواعدها وأبنيتها .

إننا — من غير شك — تقدمنا على الأسلاف في مجال الاستعمال اللغوي والأساليب الكتابية والإنتاج العلمي والأدبي والفني ، وآية ذلك أننا لو أفردنا كل عصر من العصور الماضية وعقدنا موازنة بينه وبين عصرنا هذا لوقفنا على ما يؤيد التقدم والرجحان ، إلا أن من الحق أن نقول : إن أسلافنا القدماء يرجحون علينا في النطق بالفصحى ، وذلك لسلامة سلاقتهم وألسنتهم ؛ أما نحن فنلحن ونخطئ إذ نطقنا بالفصحى ، ولا أستثنى أحداً من المعاصرين ، وفي هذا يرجح الأسلاف على المعاصرين ، وسبب ذلك فساد السلايق ، واعتياد اللسان اللحن والخطأ والبعد عن الإعراب ، وقوة العامية الغلبة التي هزمت الفصحى وزوّتها في حدود جدّ ضيقة .

عناية العرب بلغتهم

واهتمام أبناء العربية بلغتهم قديم منذ العصر الجاهلي ، ولكن زاد هذا الاهتمام بمجيء الإسلام ، لأن العربية أصبحت لغة القرآن والدين الجديد والرسول الصادق الأمين .

وقد أشرنا في هذه المقدمة إلى أن العرب لم يكونوا يعرفون معنى كل كلمة في لغتهم ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يستعمل كلمات كثيرة خفيت معانيها على الصحابة وكان فيهم راسخون في فهم أسرار العربية كعمر ابن الخطاب وعلى بن أبي طالب وعبد الله بن عباس — رضى الله عنهم — حتى أن الإمام علياً قال للنبي : يا رسول الله ، نحن بنو أب واحد ، ونراك تكلم العرب بما لا نفهم أكثره .

وإذا كان العرب قبل عصر الخليل بن أحمد لا يعرفون المعجم كما نعرفه ،

فإن حاجتهم إليه لم تكن معدومة ، ولئن كانوا لا يعرفون المعجمات ولا وجود لها فإنهم كانوا يرجعون إلى أهل العلم ويسألونهم كما نسأل المعجم ، وكان أهل العلم باللغة يؤدون عمل المعجم .

وإن تفسير القرآن وشرح غريب الحديث في عصر النبوة وعصر الراشدين يدلان على وجود معجم غير مُدَوَّن وغير مرتب ترتيب المعجمات الحديثة ، ونقول : « معجم » تجوزا ، لأننا نعرف ما يسمى المعجم .

قال ابن عباس رضى الله عنه : « الشعر ديوان العرب ، فإذا خَفِيَ علينا الحرف من القرآن الذى أنزله الله رجعنا إلى الشعر فالتمسنا معرفة ذلك منه » . وقال : « إذا تعاجم شيء من القرآن فانظروا في الشعر فإن الشعر عربى ^(١) » .

وسأله نافع بن الأزرق وصاحبه نجدة بن عويمر مسائل كثيرة في التفسير ، واشترطا عليه أن يؤيد كل كلمة بشاهد من كلام العرب ، فكان عند شرطهما ^(٢) .

وصنيع ابن عباس رضى الله عنه ، صنيع معجمى ، فهو قد وقف على لغات العرب ونوادرها وفُصِّحها ودلالات مفرداتها ، وأعانه رسوخه في اللغة وعلمه بها أن يفسر للناس معانى الألفاظ تفسيراً لغوياً .

وكان التفاخر بإجادة اللغة والحرص على لهجتها العالية سمة الفصحاء البلغاء ، حتى أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يفتخر بأنه أفصح العرب ؛ ولد في قریش واسترضع في بنى سعد .

(١) تفسير الطبرى ١٧ : ١٢٩ ومذاهب التفسير الإسلامى ٨٩ — ٩٠

(٢) الإتقان للسيوطى .

واشتد حرص العرب على لغتهم عندما اختلط العرب بالعجم ، واختلف الأعاجم إلى بلاد العرب ، وفستت العربية ، وزاد الفساد بازدياد اختلاط الأمم غير العربية بالعرب نتيجة الفتح الإسلامي حتى فسدت لغة المدن ، وسقط الأخذ عن أهلها والاحتجاج بكلامهم ، واضطُرَّ المعنيون باللغة أن يضربوا إلى البادية لتلقى الفصحى من أبناءها الأصلاء الذين سلمت ألسنتهم من اللحن والعجمة ، ولهذا رأينا علماء اللغة والمشتغلين بها أمثال الخليل بن أحمد^(١) ، وخلف الأحمر^(٢) ، ويونس بن حبيب الضبي^(٣) ، والكسائي^(٤) ، والنضر بن شميل^(٥) ، والأصمعي^(٦) ، وأبي زيد الأنصاري^(٧) ، وابن دريد^(٨) ، والأزهري^(٩) والجوهري^(١٠) وغيرهم يختلفون إلى البادية طلباً للفصحى .

وكان هؤلاء الأعلام وغيرهم غيراً على العربية يتلقونها من مصادرها الموثوق بها ، فكانوا يختلفون بالأعراب ، ويقدرّون الفصحاء منهم حق القدر ، ويسرّون أعظم السرور إذا وقفوا على نادرة أو نفيسة من العلم .

قال أعرابي خلف الأحمر بمحضر من أبي زيد الأنصاري : ماخير اللين للمريض ! — بنصب خير واللين — فقال خلف : ما أحسنها من كلمة لو لم تدنسها بإسماعها الناس .

(١) توفي سنة ١٧٠ أو ١٧٥ هـ .

(٢) توفي سنة ١٨٠ هـ .

(٣) توفي سنة ١٨٢ هـ .

(٤) توفي سنة ١٨٩ هـ .

(٥) توفي سنة ٢٠٤ هـ .

(٦) توفي سنة ٢١٥ هـ .

(٧) توفي سنة ٢١٥ هـ .

(٨) توفي سنة ٣٢١ هـ .

(٩) توفي سنة ٣٧٠ هـ .

(١٠) توفي سنة ٣٩٥ هـ .

قال شمر : وكان خلف ضنينا ، ونشرها أبو زيد في الناس ، فلم يستطع
خلف أن يحتفظ بها لنفسه ، ومعنى : ماخيرَ اللبنَ للمريض — بنصب الراء
والنون — تعجب مثل : ما أحسنَ اللبنَ للمريض^(١) .

وكان أولئك الأعلام يذهبون إلى مضارب الفصحاء ومنازلهم رغبة في أخذ
اللغة ممن لم تفسد ألسنتهم وسلاتقهم ، ومن أعظم هؤلاء الفصحاء : الخثعمي ،
وأبو خيرة العدوي ، وأبو الدُقَيْش — وكان من أفصح العرب — وأبو مهادية
الأعرابي ، وأبو المنتجع ، وأبو البيداء الرياحي ، وأبو طفيلة ، وأبو حياة بن لقيط ،
والفقعسي محمد بن عبد الملك ، وعبدالله بن عمرو بن أبي صبح ، وأبو مالك
عمرو بن كركرة الأعرابي اللغوي صاحب النوادر ، وأبو الجاموس ثور بن يزيد ،
وأبو سَوَّارِ الغنوي ، وأبو زياد الكلابي ، وأبو عرار العجلي ، وأبو ثؤابة
الأسدي ، وأبو ضمضم الكلابي ، وعمرو بن عامر البهذلي الذي أخذ عنه الأصمعي ،
وأبو شبل العقيلي ، وأبو ثروان العكلى ، وأبو فقعس ، وأبو دثار ، وأبو الجراح
— وهؤلاء الأربعة هم الذين حكموا بين سيبويه والكسائي — وأبو العميثل ،
وعوسجة ، وأبو مُسْهِرِ الأعرابي ، وأبو المضرحي ، والحرمازي ، وأبو الهيثم ،
وأبو المجيب الربعي ، وأبو صاعد الكلابي ، وأبو الصَّعِقِ العدوي ، والمفضل
العنبري ، ويزيد بن كَثُوة ، وناهض بن ثومة الكلابي ، وأبو السمع
الطائي ، وغيرهم .

والذي حمل أئمة اللغة الأعلام على العناية بهؤلاء الأعراب والاحتفال
بهم : حرصهم على اللغة ، وتلقيها من الفصحاء الألى سلمت ألسنتهم من

(١) تهذيب الصحاح (هامش) ١ : ٢٧٨ .

اللحن وصفت سلائقهم من الرنق واستقامت لهم الفصحى ؛ ودفعهم حرصهم عليها إلى أن يسألوهم عن كثير مما يعينهم على بناء القواعد أو تصحيح الكلمات الخاطئة الملحونة .

وكان اتصال العلماء المعنيين باللغة والغُير عليها بهؤلاء الأعراب الفصحاء خير وسيلة لتدوين اللغة وتأليف المعجمات ، وحفظ بناء العربية سليما قويا ، فهم قد رأوا اللحن الفاحش والخطأ المعيب يتدسَّسان إلى لغتهم الكريمة فانبروا إلى حمايتها والدود عنها ومحاربة اللحن وتلقَّى الصحيح من مصدره الأصل وتدوينه ليرث من بعدهم التراث اللغوى كما خلفه أصحابه الأصلاء .

وكان من مظاهر غيَرتهم وتشدُّدِهم : منعهم استعمال كلمات فصيحة ظنوها ملحونة أو غير فصيحة فأنكروها لأنهم لم يطلعوا على مصادقها من كلام العرب ، فالأصمعى — رحمه الله — خطأ من قال : شتان ما بينهما ، وذكر أن الصحيح : شتان ما هما .

قال أبو حاتم : أنشدت الأصمعى قول ربيعة الرِّقَى :

لشتان ما بين اليزيديين فى الندى يزيدِ سليم ، والأغرُّ ابن حاتم

فقال الأصمعى : ليس بفصيح^(١) ، وقال الأزهري فى التهذيب^(٢) والجوهري فى الصحاح^(٣) : ليس قول ربيعة بحجة ، إنما هو مولد ، والحجة قول الأعشى :

شَتَّان ما يومى على كورها ويوم حَيَّان أخى جابر

(١) تهذيب الصحاح ١ : ١١٢ .

(٢) تهذيب اللغة ، مخطوطة مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمة الله بالمدينة المنورة .

(٣) الصحاح ، مادة (شت) .

والصحيح أن ما منعه هؤلاء الأثبات الأعلام ورد في الشعر الفصيح ، مما يدل على أنهم لم يطلعوا عليه ، ولكن إخلاصهم للغة وإسرافهم في هذا الإخلاص وغيرتهم عليها دفعتهم إلى هذا الإنكار ، ولو اطلعوا لما منعوا وأنكروا .

قال أبو الأسود الدؤلي :

فإن أعفُ يوما عن ذنوبٍ وتعتدى فإن العصا كانت لغيرك تُقرَعُ
وشتان ما بيني وبينك أننى على كل حال أستقيم وتظلمعُ

وقال البعيث :

وشتان ما بيني وبين رُعَاتِهَا إذا صرصرَ العصفور في الرُّطْبِ الثَّعْدِ

وقال الأحوص :

شتان حين يبتُ الناس فِعْلَهُمَا ما بين ذى الذَّمِّ والمحمود إن حمدا

وخطأ الجوهرى وكثير من علماء اللغة من يقول : مستأهل ؛ بمعنى مستحق وأهل ، وتابعتهم في ذلك وحملت كثيراً من العلماء والكتاب أن يتركوه ويستبدلوا به كلمة « أهل » مع أن فصحاء العرب تكلموا به ، ولكنى لم أقف عليه إلا بأخرة ، فقد قرأت في « تهذيب اللغة » للأزهري^(١) : أنه سمع من أعرابي فصيح من بني أسد « استأهل » وحضر ذلك جماعة من الأعراب فما أنكروا قوله .

وهذه المبالغة في المنع ؛ والتشدد في الإنكار دليل على أن هؤلاء العلماء الأعلام كانوا غُيْرًا على العربية ، وكانوا يقومون بحركة واسعة لتنقية الفصحى ،

(١) مخطوطة مكتبة شيخ الإسلام بالمدينة المنورة .

وحملة على ما حسبوه غير فصيح حتى تبقى لغة القرآن سليمة من اللحن والخطأ ، وكانوا يبالغون في التحرج حتى منعوا كلمات فصيحة لم تصل إليهم مصادقها من الفصيح ، بل دفعتهم مبالغتهم في تحرّى الصواب والحق ألا يعتمدوا إلا ما صح عندهم ، أما إذا ارتابوا في كلمة أو لم يطلعوا على ما يؤيدها من كلام العرب أشاروا إلى من تلقّوها عنه أو رواها لهم أو وجدوها في كتابه .

قال الأزهري في مقدمة كتابه تهذيب اللغة^(١) : « ولو أنى أودعت كتابي هذا ما حوته دفاتري وقرأته من كتب غيري ، ووجدتها في الصحف التي كتبها الورّاقون وأفسدها المصحّفون لطال كتابي ؛ ثم كنت أحد الجانبين على لغة العرب ولسانها ، ولقليل لا يُخزى صاحبه خير من كثير يفضّحه ، ولم أودع كتابي هذا إلا ما صحّ لي سماعاً منهم ، أو رواية عن ثقة ؛ أو حكاية عن خطّ ذي معرفة ثاقبة اقترنت إليها معرفتي ، اللهم إلا حروفاً وجدت بها لابن دريد وابن المظفر في كتابيهما ؛ فبيّنتُ شكّي فيها وارتياي بها » .

هكذا كان علماء اللغة الغُير المخلصون الذين أقاموا من أنفسهم حرّاساً يقظين عليها ، يذودون عن حماها ، وينفون عنها الخبث ، ولا يفترون عن النقد والتمحيص وتنبيه الناس إلى الخطأ حتى يجتنبوه ، وردّهم إلى الصواب كي يلتزموه . وأشاروا في كتبهم إلى ذلك ، كما ألف بعضهم كتباً ورسالات في « اللحن » أقدمها رسالة منسوبة إلى الكسائي^(٢) اسمها : « ما تلحن

(١) مخطوطة مكتبة شيخ الإسلام بالمدينة المنورة .

(٢) توفي سنة ١٩٢ هـ .

فيه العامة » ومن ألفوا في هذا الجانب أبو عبيدة^(١) وأبو عثمان بكر بن محمد المازني^(٢) وأبو حاتم السجستاني^(٣) وأبو حنيفة الدينوري^(٤) وأبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الإشبيلي^(٥) ، وكتب هؤلاء جميعاً بعنوان واحد هو « لحن العامة » ولأبي هلال العسكري^(٦) « لحن الخاصة » وألف يحيى بن زياد الديلمي المعروف بالفراء^(٧) كتابه « البهاء فيما تلحن فيه العامة » وأبو الهيثم كلاب بن حمزة العقيلي الحراني^(٨) « ما تلحن فيه العامة » وغير هؤلاء كثير .

وكان هؤلاء وأولئك الأعلام يعدّون هذا العمل أمراً دينياً ، ويذكرون أمر الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه عند ما لحن أحدهم بحضرته : « أرشدوا أخاكم فقد ضل » .

وما زالت هذه الحركة قائمة حتى الآن ، ولكن لم نؤفّق للقضاء على اللحن وتنقية الفصحى ؛ لأن العامية صارت لغة التخاطب ، وشاركت الفصحى في التعبير عن تجارب الشعور حديثاً وكتاباً ، وزوّتها في حدود ضيقة ، ولأن السلائق فسدت فساداً تاماً ، ومع كل هذا فإنها لم تفقد النفع ،

(١) توفي سنة ٢٠٩ هـ (٨٢٤ م) .

(٢) توفي سنة ٢٤٨ هـ (٨٦٢ م) .

(٣) توفي سنة ٢٥٥ هـ (٨٦٨ م) .

(٤) توفي سنة ٢٩٠ هـ (٩٠٢ م) .

(٥) توفي سنة ٣٧٩ هـ (٩٨٩ م) .

(٦) توفي سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٤ م) .

(٧) توفي سنة ٢٠٧ هـ (٨٢٢ م) .

(٨) توفي سنة ٢٠٧ هـ (٨٢٢ م) .

فقد كانت صَوَى تهدي إلى الطريق ، وليس من الحتم أن يبصر الناس جميعاً الصوى ويهتدوا إلى الطريق المستقيم .

هذه اللغة الكريمة التي حرص عليها أسلافنا الأقدمون حرصاً بالغاً لم تعهده لغة غيرها في روايتها ؛ وترتيب قواعدها ؛ واستقصاء أصولها ؛ وإحصاء مفرداتها ؛ واستيعاب الشواهد عليها ؛ وضبط كلماتها وموازينها ؛ وبيان الفروق اللغوية بين مترادفاتهما ؛ وتحقيق المعرب والدخيل ولغة السواد ، وتأدية الفصحى إلينا في سياج منيع من الصون والعناية .

هذه اللغة الكريمة ظفرت بأبناء بررة من أئمتها الثقات الأثبات وقفوا جهودهم المثمرة الناضجة على العناية بها ، وبالغوا في رعايتها وحفظها وتنقيتها ، وكان ذلك منذ عصر الجاهلية حيث كان الشعراء والخطباء يتفاخرون بالفصاحة والبيان ، إلا أن العناية ازدادت والرعاية عظمت بمجيء الإسلام ، لأن الرسول عليه الصلاة والسلام عند ما جاء بالإسلام كان دينه القيم الحق مؤيداً العربية ورافعاً مكاتمتها وشأنها إلى أعلى الذرى ، وصارت وسيلة من وسائل العبادة والتشريع ، وسبيلاً يُفْضَى إلى العلم بالدين ، فالصلاة — وهي عماد الدين وعموده — لا تتم إلا بالقرآن الكريم ، ولا تصح إلا إذا تليت السور بالعربية كما أنزلت من الله .

وكانت العناية الأولى باللغة استجابة إلى ما توجهه المحافظة على القرآن الكريم وتفهم معانيه من حفظ مادته اللغوية وما ترمى إليه من دقيق الدلالة والمعنى ، وصحيح المبنى والمعنى .

ثم نجد بعد هذا أن العربية لم تكن سبيل العلم بالدين وحده ، بل
بجدها سبيلا إلى المعارف الإنسانية كلها ، ومظهراً من مظاهر الحضارة والمدنية
وترف العقل والإحساس ، وأداة للتعبير عن تجارب الشعور والخواطر والآراء .

حفظ اللغة وتيسيرها

وأولئك الأبناء البررة من أئمة اللغة الأثبات الثقات وهبوا أنفسهم
لخدمتها ويسرّوا للناس طرق تعلمها ومدارستها ، وحفظوا موادّها وأصولها
بقدر ما يتسع له الجهد الإنساني والطاقة البشرية ، وزوّدونا بثروة لغوية
ضخمة ، تلك الثروة التي يرجع الفضل في جمعها وحفظها وحراستها إلى أولئك
الأئمة البررة الأجلاء الذين قدموا للناطقين بالضاد ما لم يقدم أحد مثلهم
في لغة من اللغات ، وخدموا العربية خدمة غنية بالمراجع في كل ما يتصل
بها ، سواء أكان متصلاً بالمعجمات التي حفلت بعشرات الألوف من المواد ،
أم متصلاً بالكلمات في سمط التعبير حتى يُظهر السياق معناها ، ويحدد صورته
في الذهن ، ويُنزّلها من الاستعمال الصحيح حق منزل ، أم كان متصلاً
بإحصاء المفردات ، أم ترتيب القواعد ، واستقصاء الشواهد والنصوص ،
أم ضبط النطق ، أم الفروق ، أم اللغات ، أم المعرب ، أم الدخيل .

ومن حسن حظ العربية أن ينظر إليها أبنائها العلماء الأعلام من مختلف
الزوايا ، ويتناولوها من جميع الوجوه التي تُتناول منها لغة حيّة ذات مقام
كريم في الحياة ، ولهذا رأينا من يؤلف في بيان مفردات منها لا تجمعها
وشيجة ، ولا تلمّها أرومة ، إنّ هي إلا تفسيرات من وحي الساعة وعفو
الخطّاط ، وشروح لألفاظ تتقارب معانيها تارة وتتباعد أخرى ، ورأينا من

يؤلف حسب المعانى التى تؤديها ألفاظ اللغة ، أو يؤلف فى النوادر ، أو الغريب ، أو اللغات ، أو العرب ، أو اللحن ، أو الصفات ، أو فى الإنسان والحيوان والنبات ، أو المَدَاخِل ، أو البلدان ، أو الطبقات ، ورأينا من وضعوا المعجمات اللغوية ، وهؤلاء أعلى من ألف فى اللغة مقاما ، وأعظمهم اضطلاعا ، وأكثرهم استيعاباً لكلام العرب وفهماً لمعانيه ، ووقوفاً على أسرارهِ ونوادرهِ وغريبهِ وفُصَحهِ ، وتعدُّ مؤلفاتهم « دائرة معارف عامة » للحياة العربية من جميع النواحي : العقلية والاجتماعية والخلقية والفنية والنفسية وغيرها ، ويختلف بعض هذه « الدوائر » عن بعض فى السعة والحفول .

وسبب علو مقام مؤلفي المعجمات أن مؤلفاتهم استوعبت ما تفرق فى الكتب اللغوية ذات الموضوعات الخاصة التى تجمعها المعجمات ، ففيها البلدان والأعلام والمواضع ، وكلُّ ما يتصل بالحياة والنبات والجماد ، والزمان والمكان ، وحالات النفس وما يحول فيها من خواطر ومعان .

ومن هنا كان « المعجم » أعظم خطوة فى التأليف اللغوى ، وقد تنبثق من المعجم أضواء شموع جديدة ، ولكنها لا تزيد عن أنها فروع تسترشد من أمِّها الأول الحياة والقوة والنماء .

المعاجم

ما المعجم ؟ ومتى عُرِفَ معناه الاصطلاحي ؟
المعجم : كتاب يضم أكبر عدد من مفردات اللغة مقرونة بشرحها وتفسير معانيها ، على أن تكون المواد مرتبة ترتيباً خاصاً ، إما على حروف الهجاء أو الموضوع ، والمعجم الكامل هو الذى يضم كل كلمة فى اللغة مصحوبة بشرح معناها واشتقاقها وطريقة نطقها وشواهد تبين مواضع استعمالها .
ولا يطلق المعجم على غير هذا ، فإذا جمعنا كل ألفاظ اللغة فى كتاب ولم نُصَحِّبْهَا فإنه لا يُسَمَّى معجماً ، وكذلك لا يُسَمَّى معجماً إذا وضعنا فيه كلمات معدودة مشروحة ، بل لا بد أن يكون المعجم كما عرّفناه ووصفناه .

متى عرفت كلمة المعجم

ولا نعلم بالدقة متى أطلق المعجم على هذا الاستعمال ، ولكن الذى نعلمه أن أول من استعمل الكلمة رجال الحديث ، وأول ما عرف كان فى القرن الثالث ، فقد جاء فى صحيح الإمام البخارى^(١) عنوان من تعبيره وقوله ؛ وهو : « باب تسمية من سُمِّيَ من أهل بدر فى الجامع الذى وضعه أبو عبد الله على حروف المعجم » والجامع أحد كتب البخارى ، ويريد بأبى عبد الله نفسه ، وللبخارى « التاريخ الكبير^(٢) » رتب فيه أسماء الرجال على حروف المعجم مبتدئاً بالمحمدين ، وأول كتاب أطلق عليه اسم المعجم هو « معجم الصحابة » لأبى يعلى أحمد بن على بن المثنى بن يحيى بن عيسى

(١) أسماء المؤلفين ١ : ٥٧ .

(٢) أسماء المؤلفين ١ : ٤٤٤ .

ابن هلال التميمي الموصلي الحافظ محدث الجزيرة ، وقد ولد سنة ٢١٠ هـ وتوفي سنة ٣٠٧ هـ . وقد ارتدّفه أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي المحدث المعروف بابن بنت منيع المولود سنة ٢١٤ هـ والمتوفى سنة ٣١٥ هـ . وسمى كتابيه الذين ألفهما في أسماء الصحابة : المعجم الكبير ، والمعجم الصغير . ثم كثر إطلاقه واستعماله بين من ألفوا في الحديث ، وغنم أخذه اللغويون . وجاء في أثر منسوب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم استعمال كلمة المعجم ، ونورده هنا رجاء أن يلتقي من يحققه ؛ فيبني عليه — إذا صح أنه حديث — حقائق علمية قد تفتح أبواباً جديدة لبحث لغوى خطير ، وأنا بحثت عن هذا الحديث فلم أجده بين مرويات أبي ذر .

جاء في مقدمة كشف الظنون^(١) « في حديث أبي ذر رضى الله عنه قال : يا رسول الله ، أى كتاب أنزله الله على آدم عليه السلام ؟ قال : كتاب المعجم . قلت : أى كتاب المعجم ؟ قال : أب ت ث ج . قلت : يا رسول الله ، كم حرفاً ؟ قال تسعة وعشرون حرفاً » .

ولعل إطلاق المعجم على الفهرس الذى يضم كلمات اللغة المشروحة المبوبة المرتبة ترتيباً خاصاً كان لأسباب أقربها أن الإعجام يزيل اللبس ويوضح المبهم ، وأن الكلمات تتألف من حروف المعجم .

أى الأمم سبقت إلى المعجم ؟

وننتقل بعد هذا إلى سؤال آخر : هل عرف العرب المعجم قبل غيرهم من الأمم أم كانوا مسبوقين إليه ؟

(١) مقدمة كشف الظنون ص ٢٥ .

لا شك أن العرب لم يكونوا أول من ابتكر تأليف المعجم بل سبقتهم
أمم بقرون مثل الآشوريين والصينيين واليونان .

فالآشوريون اهتموا باللغة ومفرداتها وقواعدها ، وعرفوا المعاجم قبل
العرب بأكثر من ألف سنة ، فقد ابتكروا معاجم خاصة بلغتهم ذات ترتيب
يغايّر ما عرف العرب من ترتيب ، فالآشوريون خافوا على لغتهم أن تضع ،
فصنّفوا معاجم دعتهم إليها الضرورة عندما تركوا نظام الكتابة الرمزية القديمة
واستبدلوا به نظام الإشارات المقطعية أو الألفبائية ذات القيم الصوتية ،
ولكن مرور الزمن أبهم عليهم معرفة النظام الجديد ، فجمعوا مسارد (قوائم)
وعرّفوها بطريقتهم القديمة ، وأعانهم على ذلك أن لغتهم السومرية القديمة
لم تكن قد امتحنت بعد لأن الكهنة كانوا يستعملونها في شعائرهم الدينية ،
وجمعوا ألفاظها في مسارد محفورة على قوالب الطين ، وأودعوها مكتبة آشور
بانيبال الكبيرة التي كانت بقصر قويونجيك في نينوى (٦٦٨ - ٦٢٥ قبل
الميلاد) وقد وصل إليها الكشف العلمى فصارت مصدراً صحيحاً لتاريخ
الآشوريين^(١) .

وعلى بعض الأقوال التي أيدتها الاكتشاف العلمية الأخيرة أن الآشوريين
هم العرب القدماء ، فإذا صح هذا فإن أسلاف العرب الأقدمين هم من أوائل
من ابتكروا المعجم أو كانوا أول المبتكرين في هذا السبيل .

وعرف الصينيون المعاجم قبل العرب ، ولديهم منها طائفة صالحة أقدمها
معجم اسمه « يوپيان » Yu pien وألفه كوي وانج Ku Ye Wang وطبع

(١) حضارة بابل وأشور ٤١ - ٤٧ .

سنة ٥٣٠ بعد الميلاد ، ثم معجم آخر اسمه شوفان Shwo wan تأليف هوشن Hü-Shin وطبع سنة ١٥٠ قبل الميلاد ، وهما أساس معاجم الصين واليابان .

وعرف اليونان المعاجم قبل العرب أيضاً ، وذكر أثنيسوس Athenaeus خمسة وثلاثين مؤلفاً زعموا أنها قد تكون معجمات ، وقيل : « زعموا » لأن هذه الكتب جميعها مفقودة ، ومن الصعب البت في أنها معجمات ، ولكن الثابت مما وصل إلى الخلف من المخطوطات التي قام علماء أوروبا بطبع أكثرها أن اليونان وضعوا معاجم ؛ بعضها على الحروف الأبجدية ، وأكثر من وضعوا هذه المعجمات من علماء جامعة الاسكندرية في عهد البطالسة وبعدهم ، وكان بعض هذه المعاجم خاصاً مقصوراً على مفردات بعض الخطباء أو المفردات الواردة في كتب أفلاطون الفلسفية أو الخطباء الأتيكيين العشرة ، أو كتب أبقراط الطبية ، وبعضها لغوى .

وأقدم المعاجم أو الكتب اللغوية في اليونانية — واللاتينية أيضاً — كانت مجموعة من الغريب في الألفاظ والعبارات ، وكانت مقصورة على مؤلف أو كتاب .

وأقدم المعجمات اليونانية القديمة معجم يوليوس بولسكس Yulius Pollux وهو كالمخصص لابن سيده ، مرتب على المعاني والموضوعات ، ومعجم هلاديوس Helladius السكندري ، وكان في القرن الرابع الميلادي .

وأقرب هذه المعاجم شبهها بالمعجم العصري : معجم فاليريوس فيلكس Valerius Flaccus وكان في عهد الإمبراطور أغسطس — وفي أيامه ولد سيدنا المسيح عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم — وعنوانه « في معاني الألفاظ » وما يزال موجزه باقياً حتى الآن .

وألف هزيشيوس السكندري Hesychius في القرن الرابع الميلادي معجم « اللهجات والمحليات » ومعجم « ما اتفق لفظه واختلف معناه » لأمونيوس السكندري Ammonius ووضع أريون الطيبي Arion of Thebes — وهو من أهل طيبة في مصر وعاش بين ٣٩٠ و ٤٦٠ بعد الميلاد — معجما في الاشتقاق ؛ وقد طبعه أحد العلماء في ليبزج سنة ١٨٢٠ م^(١) .

هذا بعض ما عُرف من تاريخ تأليف المعجمات في الأمم غير العربية . أما العرب فلم يعرفوا المعاجم لأنهم كانوا أمة أمّية ، ولم تكن حاجتهم داعية إلى تأليف معجم حتى جاء الإسلام فدعت الحاجة إلى أن يسألوا عن معاني الكلمات ذات الاصطلاح الجديد ، كما كانوا يسألون عن بعض الكلمات التي استغلق عليهم فهم معناها .

أسباب تأليف المعجمات

كان القصد من تأليف المعاجم وكتب اللغة حراسة القرآن من أن يقتحمه خطأ في النطق أو الفهم ، وحراسة العربية من أن يتقحم حرما دخيل لا ترضى عنه العربية ، وصيانة هذه الثروة من الضياع بموت العلماء ومن يحتاج بلغتهم ، فكما أن كتابة المصحف كانت بسبب استحرار القتل في الصحابة حفظ القرآن ، والخشية من أن يضيع شيء منه ، فكذلك دوّنت اللغة بوساطة المعجمات والكتب اللغوية خشية من أن يضيع بعض موادها ؛ أو يتدسس إليها غريب تنبو عنه أصولها وقواعدها .

(١) دائرة المعارف البريطانية : الطبعة التاسعة بنيويورك ٧ : ١٧٩ - ١٩٣ . ودائرة المعارف البريطانية الطبعة الحادية عشرة طبعة نيويورك ٨ : ١٨٦ - ٢٠٠ ، ودائرة معارف هرنس ويرث Horns Worth's Universal Encyclopedia مادة Dictionary . وقد ترجمت لنا السيدة فتية أمين كل ما اعتمدناه من « دوائر المعارف » هذه ونقلناه عنها وعن المصادر الإفرنجية الأخرى .

والسبب الأول الذى دعا العلماء إلى العناية باللغة ففهم القرآن الكريم ، وفهم القرآن الكريم لا يتأتى إلا إذا عرفنا تفسير كلماته . وقد تضمن القرآن كثيراً من الغريب والنادر ، وكثيراً من الألفاظ التى استغلت معانيها على الفصحاء من العرب كعمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس ، حيث لم يقع لعمر معنى الأبّ فى قول الله تعالى : ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ ، ولا بن عباس معنى كلمة « فاطر » .

وكانوا يستعينون بالشعر وكلام العرب لبيان معانى القرآن ، وكانوا يحرصون على أن يستوعبوا من كلام العرب كثيراً حتى يستطيعوا بهذه المصادق أن يفسروا ألفاظ القرآن ، ومن ثم يفهمون معانى آيات الله البينات . وكان أول اتجاه للعناية اللغوية هو رغبة دينية محض . ولهذا نُسبَ إلى ابن عباس كتاب غريب القرآن^(١) .

ولعل هذا السبب نفسه هو الذى حمل النحويين على أن يُعَنّوا بالنحو ليبعدوا عن اللسان الخطأ فى تلاوة القرآن الكريم ، فخرسوه بالقواعد النحوية ، ولهذا رأينا علماء النحو يضعون القواعد على أساس الشعر وكلام العرب لا على أساس القرآن .

ولقد أنكر علماء النحو بعض القراءات لأن مصادقها من كلام العرب لم تصل إليهم ، حتى أن بعضهم أخذ على « نافع » — وهو أحد القراء السبعة المشهورين — بعض ما ظنوه خطأ منه وأنكروا عليه .

(١) توجد منه نسخة فى برلين كما ذكر بروكلمان .

جاء في البحر^(١) :

« والمعاش : جمع معيشة . ويحتمل أن يكون وزنها مفعلة ومفعلة بكسر العين وضمها ؛ قالها سيبويه . وقال الفراء : معيشة بفتح عين الكلمة . والمعيشة : ما يعاش به من الطعام والشارب وغيرها مما يتوصل به إلى ذلك ، وهي في الأصل مصدر تنزل منزلة الآلات . وقيل : على حذف مضاف ، التقدير أسباب معاش كالزراع والحصد والتجارة وما يجرى مجرى ذلك . وسماها معاش لأنها وصلة إلى ما يعاش به . وقيل : المعاش وجوه المنافع ، وهي ما يحدثه الله ابتداء كالثمار ، أو ما يحدثه بطريق اكتساب من العبد ، وكلاهما يوجب الشكر .

وقرأ الجمهور معاش بالياء وهو القياس لأن الياء في المفرد هي أصل لا زائدة فتمز ، وإنما تهمز الزائدة نحو صحائف في صحيفة .
وقرأ الأعرج وزيد بن علي والأعمش وخارجة عن نافع وابن عامر في رواية « معاش » بالهمز ، وليس بالقياس ، لكنهم رووه وهم ثقات ، فوجب قبوله . وشذ هذا الهمز كما شذ في منائر جمع منارة وأصلها منورة ، وفي مصائب جمع مصيبة وأصلها مصوبة ، وكان القياس مناور ومصاوب . وقد قالوا مصاوب على الأصل ، كما قالوا في جمع مقامة مقاوم ومعونة معاون .
وقال الزجاج : جميع نحاة البصرة تزعم أن همزها خطأ ولا أعلم لها وجهاً إلا التشبيه بصحيفة وصحائف ، ولا ينبغي التعويل على هذه القراءة .
وقال المازني : أصل أخذ هذه القراءة عن نافع ، ولم يكن يدرى ما العربية . وكلام العرب التصحيح في نحو هذا .

(١) البحر المحيط ٤ : ٢٧١ .

ولسنا متعبدين بأقوال نحاة البصرة . وقال الفراء : ربما همزت العرب هذا وشبهه يتوهمون أنها فعيلة ، فيشبهون مفعلة بفعيلة .

فهذا نقل من الفراء عن العرب أنهم ربما يهمزون هذا وشبهه . وجاء به نقل الفراء الثقات : ابن عامر وهو من كبار قراء التابعين . وزيد بن علي وهو من الفصاحة والعلم بمكان . ونافع وهو قد قرأ على سبعين من التابعين ، وهم من الفصاحة والضبط والثقة بالحل الذي لا يجهل ، فوجب قبول ما نقلوه إلينا . ولا مبالاة بمخالفة نحاة البصرة في مثل هذا .

وأما قول المازني أصل أخذ هذه القراءة عن نافع ، فليس بصحيح ، لأنها نقلت عن ابن عامر ، وعن الأعرج ، وزيد بن علي ، والأعمش .

وأما قوله : إن نافعاً لم يكن يدرى ما العربية ؛ فشهادة على النفي ، ولو فرضنا أنه لا يدرى ما العربية وهي هذه الصناعة التي يتوصل بها التكلم بلسان العرب فهو لا يلزمه ذلك ، إذ هو فصيح متكلم بالعربية ، ناقل للقراءة عن العرب الفصحاء ، وكثير من هؤلاء النحاة يسيئون الظن بالقراء ولا يجوز لهم ذلك » .

وفي تهذيب التهذيب^(١) في ترجمة حمزة :

أبو عمارة حمزة بن حبيب بن عمارة الزياني القاري الكوفي التيمي مولاهم . روى عن أبي إسحاق السبيعي وأبي إسحاق الشيباني والأعمش وعدي بن ثابت وغيرهم ، وعنه ابن المبارك وعبد الله بن صالح العجلي وسليم بن عيسى .

(١) تهذيب التهذيب ٣ : ٢٧ - ٢٨ .

« كان يزيد بن هارون يكره قراءة حمزة كراهية شديدة .

« وكان ابن مهدي يقول : لو كان لى سلطان على من يقرأ قراءة حمزة ، لأوجعت ظهره وبطنه . وكان أخى يكره أن يصلى خلف من يقرأ بقراءة حمزة . وقال أبو بكر ابن عباس : قراءة حمزة عندنا بدعة .

ويكفى حمزة شهادة الثورى له ، فإنه قال : ماقرأ حمزة حرفاً إلا بأثر » .

ولعل هذا هو أول عناية باللغة العربية دفعتهم إليها العناية بالقرآن ولو طبع كل ما كتب عن القرآن من مؤلفات لكانت لدينا مكتبة ضخمة تعد بالآلاف .

بل السُّنة نفسها فرع من القرآن ، جاءت له شارحاً ومفسراً ومفصلاً ، فإذا أضيف ما ألف فيها وضم إلى مكتبة القرآن كانت لدينا مكتبة من أعظم المكتبات .

ولم تعن حكومة إسلامية منذ عرفت المكتبات حتى الآن بفكرة كهذه مما يدل على الإهمال ، فهل الحكومات الحاضرة تعنى بمكتبة القرآن والسنة فى هذه الأيام التى سهل فيها إنشاء المكتبات وطبع الكتب ؟

وعنى أئمة اللغة باللغة ، لا من حيث أنها لغة ، بل عنوا بها ليجعلوها وسيلة لفهم القرآن .

ومن الأسباب التى دعت إلى تأليف كتب اللغة والمعجمات كثرة الأمم ذات الألسنة غير العربية التى دخلت فى الإسلام واتخذت العربية لغتها

وخشى العلماء أن يدخل في لغة القرآن ما ليس من كلام العرب ، فأقاموا من أنفسهم حُرَّاساً على العربية يحفظونها ويبعدون عنها الدخيل .

هذه من الأسباب التي حملت العلماء على العناية باللغة ، وعندما اتجهوا إلى التأليف اللغوى قصدوا إلى أخذ الصحيح وتحرّيه وبالغوا في الحيلة والحذر ، وقصدوا — أيضاً — إلى حشد كل ما وصل إلى علمهم من مفردات اللغة مما كان صحيحاً لا غبار عليه ، مع تسهيل الطريق لمن يجب أن يهتدى إلى الكلمة التي يريدونها .

طلیعة المعجم العربی

وطلیعة المعجم العربی جاءت مع الإسلام ، وأول من حمل رايتها عبد الله بن عباس ، فقد كان يؤدى ما تؤدیه المعجمات للسائلین .

سأله نافع بن الأزرق ونجدة بن عويمر مسائل كثيرة في التفسير ، واشترطاً عليه أن يؤيد كل كلمة بشاهد من كلام العرب ، فكان ابن عباس عند شرطهما^(١) .

وصنع ابن عباس صنع معجمى ، فهو قد وقف على لغات العرب وأسرارها ودلالات مفرداتها ومعرفة غريبها ونوادرها ، وعلى أشعار العرب وخطبهم وأمثالهم ، وأعانته علمه الواسع بالعربية أن يفسر لسائليه كلمات اللغة تفسيراً لغوياً دقيقاً .

وكان بعض الصحابة يصنعون صنع ابن عباس في حدود ضيقة .

(١) الإتيان للسيوطى .

وينسب إلى ابن عباس كتاب « غريب القرآن » ومنه نسخة بيزلين قبل الحرب الثانية^(١) ، وأظن أن الكتاب ليس لابن عباس ، فكتاب ترجمته لم يشيروا إلى أن له كتاباً في غريب القرآن ، إلا أن من الثابت أن ابن عباس كان أحد الراسخين في العلم وكان مفسراً لغوياً عليماً بأسرار اللغة واقفاً على مفرداتها ومعاني هذه المفردات ، فلعل هذا الكتاب مروي عنه من طريق من أخذوا العلم منه ، ودوّنه أحدهم ، ونُسب إلى ابن عباس .

وفي التفسير الأكبر المنسوب لابن عباس — رواية ابن أبي طلحة وابن السكبي — شرح لمفردات القرآن مع تفسير آياته البينات ، منه نسخة بمكتبة شيخ الإسلام عارف حكمة الله الحسيني بالمدينة المنورة ، وقد اطلعت عليها فالفيت صنيع ابن عباس فيه صنيعاً معجباً .

ومما لا شك فيه أن ابن عباس وضع نواة « المعجم العربي » سواء أضح أن غريب القرآن والتفسير الأكبر من تأليفه أم من تأليف من روا عنه أو أخذوا منه .

وهناك آخر يعد ممن اختطوا طريق التأليف اللغوي وكان من طلائع وضعة المعجم العربي ، ولعله سار على نهج ابن عباس ، أو سار على نهجه حقاً ، ذلك هو أبان بن تغلب بن رباح الجريري ؛ أبو سعيد البكري ؛ مولى بني جرير بن عباد ، وكنيته أبو أميمة ، وتوفي سنة ١٤١ هـ ، وكان قارئاً فقيهاً لغوياً إماماً ثقة عظيم المنزلة ، روى عن علي بن علي بن الحسين وأبي جعفر وأبي عبد الله عليهم السلام ، وسمع من العرب ، وألف « غريب القرآن » وذكر شواهد من الشعر^(٢) .

(١) بروكلمان ١ : ٧٣١ .

(٢) ياقوت ١ : ١٠٨ ، البغية ١٧٦ — ١٧٧ ، كشف الظنون ٢ : ١٠٧ ، فهرس

كتب الشيعة للطوسي ٦ : ٤ .

وإذا كان ابن عباس ثم أبان بن تغلب وضعاً « نواة » المعجم العربى والتأليف اللغوى وكانا من الفاتحين الرواد ، فإنّ الخليل بن أحمد الفراهيدى يعد بحق أول من صنف « معجماً » جديراً بهذا الاسم ، لأنه جمع ألفاظ اللغة وشرح معانيها ورتبها ترتيباً علمياً .

وإذا كان الخليل مسبقاً من بعض الأمم فى هذا السبيل فإن من الحق أن نذكر أنه لم يكن مقلداً أحداً أو ناهجاً على طريق سابق ، بل كان مبتكراً ومخترعاً فى الفكرة والمنهج والترتيب ، ومعجمه معجم حق ، أما المعاجم التى عرفت فى اليونان والصين وعند الأشوريين فتعد معاجم خاصة لاعامة ، وما كان شبه عام لا يصل إلى مرتبة كتاب الخليل ، وفوق هذا لم يقصد أحد من مؤلفى تلك المعجمات — باستثناء الصين — إلى حصر اللغة وشرح كل ما استطاع من مفرداتها كما صنع الخليل .

العرب سبقوا إلى وضع المعاجم الكاملة

ولئن كان العرب مسبقين فى هذا السبيل فإن من المقطوع به أنهم أول من وضعوا معجمات كاملة دقيقة مستوعبة ، وأول من وضعوا معجمات من أصحاب اللغات الحية ، وأول من اشتغلوا باللغة وعلومها وفنونها واستوعبوا كل ذلك أجمل استيعاب ، ألفوا معاجم أسماء الرجال والنساء وسموها كتب الطبقات ، وأفردوا لكل طائفة طبقة ، فهناك طبقة النحاة ، واللغويين ، وطبقة القراء ، وطبقة المحدثين ، وطبقة الأدباء ، والشعراء ، والكتّاب ، والعلماء ، والصوفية ، والخطاطين ، والحفاظ ، والبيانين ، والصحابة ، والتابعين ، والمفسرين ، والفرّاضيين ، والأطباء ، والحكماء ، والأصوليين ، والفقهاء ، والأولياء ، والرواة ، والخواص ، والمتكلمين ، والمحدثين ، والنسك ،

والنساين ، والفرسان ، والحنفية ، والشافعية ، والحنابلة ، والمالكية ، وغير ذلك مما يتصل بهذا اللون من المعاجم كالتى ألفت فى الكنى والألقاب ، كما ألفوا معاجم فى أسماء البلدان^(١) ، والغريب فى القرآن والحديث ، والنوادر ، والفقه ، والحديث ، واللغات ، والمغرب ، والدخيل ، والهمز ، ولغات القبائل ، والحيوان ، والنبات ، والإنسان ، ولحن العامة ولحن الخاصة ، والاشتقاق ، وطبقات الخيل ، والفحول ، والمُدَاخَل ، والكتب ، ومعاجم اللغة .

واتسع نطاق التأليف اللغوى وتعددت أنواع المعجمات على مر الزمن ، وأصبح لكل فن معجم ، بل صار للفن الواحد معجمات ، وحمل الترف العلمى بعض العلماء إلى أن يبتكروا سبلا جديدة فآلفوا فى المُدَاخَل ، ومعجم بقية الأشياء ، والأضداد .

ولم يُجمَع اللغة العربية دفعة واحدة ، بل مرت بمراحل ، ولم يعرف العصر الجاهلى سبيل الجمع ، ولم يُعَنَّ أحد من أهله بذلك ، بل كان جمع اللغة أو العناية بها وبمفرداتها بعد الإسلام ، ولم يكن المعجم أول ما عُرف من التأليف اللغوى ، بل سبقته محاولات كانت طبيعية لم تدع الحاجة إلى غيرها ، ومن هذه المراحل : ما صنعه كتاب الصحابة عند ما كانوا يتلقون من رسول الله صلى الله عليه وسلم تفسير ما استغلق عليهم معناه من

(١) أول من ألف فيها خلف الأحمر (مات فى حدود سنة ١٨٠ هـ) واسم كتابه « جبال العرب وما قيل فيها من الشعر » ثم عمر بن مطرف من بنى عبد القيس (توفى نحو نحو سنة ١٨٦ هـ) واسم كتابه « منازل العرب وحدودها وأين كانت محلة كل قوم وإلى أين انتقلوا منها » ولابن السكبي (٢٠٤ هـ) بضعة كتب منها : الأنهار ، والأقاليم ، والبلدان الكبيرة ، وأنساب البلدان .

الكلمات الواردة في القرآن أو في أحاديثه ، مثل : المتفهيقين ، والسقارة ،
والرويبضة ، وغيرهن من مئات الكلمات ، وكان الصحابة يحفظونها ،
وبعضهم يكتبها ؛ ويرويها .

هذه هي المرحلة الأولى في تدوين اللغة ، وهو لم يعد تفسير بعض
ألفاظ القرآن والحديث مما لم يفهم الصحابة ، أو تفسير بعض كلام العرب .
ثم تأتي المرحلة الثانية - وهي فرع من المرحلة الأولى - ويمثلها
عبد الله بن عباس أحسن تمثيل ، فقد كان يفسر للناس غريب القرآن
والحديث ؛ ويشرح معاني المفردات مصحوبة بمصادقها من كلام العرب .
ثم توسع الناس في جمع مفردات اللغة دون ترتيب ، بل يجمعونها
كما يتفق لهم ويصادفهم .

ثم تقدم العلماء في جمع الكلمات وتدوينها ، فكانوا يجمعون المفردات
بحسب المعاني والموضوعات ، أو ينظرون إلى الألفاظ التي تتفق في أكثر
الحروف التي تتألف منها وتتقارب في المعنى مثل : قط وقطع . أو مثل : قدَّ
وقطَّ ، وقضم وخضم ، وينظرون إلى الكلمة التي تصلح لمعاني كثيرة مثل
كلمة الغين^(١) .

ويدخل في هذا الباب الكتب التي ألفت في موضوع واحد مثل :
كتاب النبات ، وكتاب الحشرات ، وكتاب الإبل ، وكتاب اللبن ،
وكتاب النخيل ، وخلق الإنسان ، وأول من ألف في الحشرات أبو خيرة
الأعرابي الذي روى عنه أبو عمرو بن العلاء^(٢) ، وأول من ألف في الخيل

(١) ضحى الإسلام لأحمد أمين .

(٢) توفى سنة ١٥٧ هـ .

وخلق الإنسان أبو مالك عمرو بن كركرة الأعرابي صاحب النوادر وأحد
شيوخ الخليل بن أحمد^(١) ، ولكل من أبي عمرو الشيباني^(٢) والأصمعي^(٣)
كتاب النحل والعسل ، ولابن الأعرابي^(٤) كتاب الذباب ، ولأبي نصر
أحمد بن حاتم^(٥) كتاب الجراد ، وللمنصر بن شميل^(٦) كتاب خلق الفرس ،
وما أكثر ما ألف في هذا الباب .

كما يدخل فيه ما ألف في النوادر ، وأول ما ألف فيها كتاب منسوب
إلى أبي عمرو بن العلاء (١٥٧ هـ) ورواه أحد تلاميذه ، ومن أوائل من
ألفوا في النوادر : القاسم بن معن الكوفي (١٧٥ هـ) ويونس بن حبيب
الضبي (١٨٣ هـ) وعمرو بن كركرة ، وأبو شبل العقيلي ، وأبو زيد الأنصاري
(٢١٥ هـ) .

ثم بلغ التأليف اللغوي القمة عندما صنف العلماء المعجمات التي تشمل
أكبر عدد من مفردات اللغة على ترتيب خاص مصحوبة بشرح المعنى ،
يرجع إليها من أراد البحث عن معنى كلمة أو حقيقتها وأصلها .

ثم فتح باب التأليف اللغوي والمعجمي أمام العلماء وتطور مع الزمن
وبلغ حد الإتقان .

(١) توفي سنة ١٥٠ هـ .

(٢) » » ٢٠٦ هـ .

(٣) » » ٢١٥ هـ .

(٤) هو أبو عبد الله بن زياد الكوفي توفي سنة ٢٣١ هـ .

(٥) توفي سنة ٢٣١ هـ .

(٦) » » ٢٠٤ هـ .

وسبق كل هؤلاء فيما يشبه التأليف المعجمى الرواة والنسابون ، ومن غير شك أن مَنْ وضعوا معاجم الطبقات هم خلفاء النسابين العرب الذين كانوا يحفظون طبقات الأنساب ولا يقتصرون بحفظهم على أنساب القبائل والرجال والنساء . بل يشمل طبقات الخيل والفحول والتميز بين أقسامها ومزاياها ، وليس هذا إلا نوعا من المعجمات الشفوية سبق عليه العرب ولحق بهم أصحاب المعجمات الحديثة بنسبة ذلك الزمن .

وكان القرن الأول للهجرة بداءة التأليف اللغوى ، وفى القرن الثانى بدى بتأليف المعجمات .

المعجم الكامل

والمعجمات العربية - وغير العربية - الخاصة بمتن اللغة ، والتي تسمى معجمات حقا ؛ يجب أن تستوعب كل كلمات اللغة التى يستطيع إلى جمعها واستيعابها سبيل ، بل يجب أن يضم المعجم كل كلمة من الكلمات البديئة والسوادية والعامية حتى يكون معجما جامعا ؛ مع الإشارة إلى غير الفصيح ، وكان أسلافنا أكثر أمانة وفهما للمعجم إذ دونوا فيه ما تتحاشى نحن عن تدوينه ، فمعجم كتكلمة الصغاني الذى استدرك فيه على الجوهري ما أهمله ، استوعب فيه آلاف الكلمات المجفوة النائية ، ومن جملة ما استدرك ألفاظ بنائية وأسماء أعضاء التناسل والعملية الجنسية وشواهد من الشعر على ذلك .

وكان أسلافنا ممن ألفوا المعجمات أو كتب اللغة أكثر أمانة منا للعلم ، فالمعجمات الحديثة تبتعد عن ذكر ما تظنه خدشا للحياء وباعثا على الخجل

إلا قليلا ، وهذا نقص فى معاجمنا الحديثة يجب أن نتداركه عندما نفكر فى تأليف معجم كبير^(١) .

رائد المعجمات العربية

ورائد المعجمات الأول فى العربية : الخليل بن أحمد الفراهيدى الذى ابتكر التأليف المعجمى ، واخترع المنهج الذى اتبعه ، واخترع فى ترتيب مواد سبيلا بكرا هداه إليه اشتغاله بالموسيقى ، فكان السابق فى هذا المضمار دون منازع ، فهو أول من جمع اللغة فى معجم جدير بهذا الاسم .

وكان الخليل عبقرىا بعيد الأفق ، علما واسع العلم والثقافة ، وهو مبتكر علم العروض ، ومخترع علم النحو المعروف حتى اليوم ، ومخترع علم الموسيقى العربية . وجمع فيه أصناف النغم ، وهو أول من جمع اللغة ؛ وأول من ابتكر المعجم العربى ، وبعض العلوم الرياضية ، وما عُرف فى عصره أذكى منه وأعلم وأعف وأزهد .

وأعانه فهمه للإيقاع والنغم على ابتكار طريقة جديدة فى « العين » ، وعلمه بالموسيقى حمله على أن يختط طريقة فى معجمه ناظرا إلى الأصوات اللغوية ومخارج الحروف ، فبدأ بحروف الحلق لأن الحلق أبعد مخارج الحروف ، وهكذا صنع سلمة اللغوى صاعدا فيه من أقصى الحلق حتى ينتهى إلى الشفة ، وجعل ترتيب معجمه على الحروف بحسب المخارج ، وقد كان موقفا فى منهجه ، فتميز الحرف بالصوت أوضح من الكتابة .

(١) لعل المجمع اللغوى المصرى لا يغفل ذلك عندما يؤلف معجمه الكبير

كتاب العين :

منهج الخليل في العين منهج هداة إليه اشتغاله بالموسيقى والأنغام ، وساعده كثيراً ذهنه الرياضى وعقله الكبير وعبقريته التى لم تشهد العربية لها مثيلاً إلا نardاً ، ويكفى للدلالة على مواهبه الفذة أنه ابتكر قواعد علم لم يدع لمن بعده فيه مجالاً ، بل ابتكره كاملاً ؛ وذلك علم العروض ، واخترع علم النحو ، واخترع علم الموسيقى العربية ، فلا غرابة على هذا الذهن الجبار أن يكون أول مبتكر للمعجم العربى .

وهذا المنهج قائم على الصوت ، لأنه أوضح فى التمييز والدلالة على مخرج الحرف من الكتابة ، فإذا كتبنا هذه الكلمة (نمر) دون نقط تعذر على القارئ أن يقرأه كما أراد الكاتب ، أما النطق فلا يخطئه ، وفى العربية خمسة حروف ذات صورة واحدة إذا لم ننقطها ، فالباء والياء والهاء والنون والياء فى أول الكلمة ووسطها ذات صورة واحدة .

ولعل إشار الخليل هذا المنهج يعود إلى رغبته فى تمييز الحرف بالصوت لأنه أقوى دلالة وأكثر وضوحاً وتمييزاً من الكتابة ، وهذا تفسير قريب من قريب ، فالموسيقى صوت ، والخليل مبتكر هذا العلم فى تاريخ العرب ، فإذا بنى معجمه عليه فلا غرابة ولا اتهام أنه اقتبس طريقة سبق إليها .

وصنع سلمه اللغوى ، واختار أن يصعد فيه من أسفله لا أن يهبط من أعلاه ، ورتب معجمه على الحروف بحسب مخارجها ، فبدأ بحروف الحلق ، لأنه أبعد مخارجها ، ويبدأ بالصعود تدريجاً حتى تنتهى إلى الشفة وجعل ترتيب الحروف هكذا : ع ، ح ، هـ ، غ ، خ ، ق ، ك ، ج ، ش ،

ض ، ص ، س ، ز ، ط ، ت ، د ، ظ ، ذ ، ث ، ر ، ل ، ن ،
ف ، ب ، م ، و ، ي ، ا .

وسمى كل حرف كتاباً ، وافتتح معجمه بحرف « العين » وسماه كتاب
العين ، فكتاب الحاء ، فكتاب الهاء ، فكتاب الغين ، فكتاب الخاء
وهكذا ؛ وأطلق اسم كتابه الأول وهو « كتاب العين » على المعجم كله
لاستهلالة به .

وتتبع الخليل أبنية كلام العرب تتبعاً علمياً دقيقاً ، وحصرها بين الثنائى
والخماسى ، وفصل الألفاظ المعتلة جاعلاً الهمزة من حروف العلة ، مُفرداً لها
باباً بعد أبواب الثلاثى ؛ ذكر فيه الثنائى المضاعف المعتل والثلاثى المعتل
بحرف ، والثلاثى اللفيف ، وفرّق الأبنية على كل باب ، مبتدئاً بالثنائى
المضاعف ، فالمضاعف الثلاثى الصحيح ، فالمضاعف الثلاثى اللفيف ، فالرباعى
والخماسى ، وجعل الأخيرين فى باب واحد لقلة الألفاظ التى وردت منهما ،
وأشار للمستعمل والمهمل فى أبنية الثنائى والثلاثى ، أما الرباعى والخماسى فأغفل
الإشارة إلى المهمل منهما ؛ لأنه فوق الحصر .

وابتكر بعد هذا كله نظاماً آخر اتبعه بعض العلماء ممن جاء بعده وألفوا
معجمات لغوية ، وهذا النظام يقوم على ذكر الكلمة وقلبها إلى كل وجه
بحيث يتألف من مقلوباتها كلمات ، ويذكرها جميعاً فى موضع واحد ، فكلمة
« الضرم » ذكرها فى حرف الضاد ، وقلبها حتى تولدت منها هذه الكلمات :
ضمر ، مرض ، مضر ، رضم ، رمض ، فإذا لم يستعمل العرب شيئاً من هذه
الاستعمالات أشار إليه ، وإذا جاء إلى كتاب الراء والميم أغفل ذكر الرضم
والرمد والمضر والمرض لأنه ذكرها فى كتاب الضاد .

وزاد على هذا أنه يذكر كل نوع من الصحيح والمضاعف والمهموز والمعتل على حدة لِيُمَيِّزَ كل نوع من غيره^(١).

ولمنهج الخليل موقع عند من يرى أن الكلمات المشتركة في الحروف — وإن اختلفت في الترتيب — تشترك في المعنى أو المصدر الذي تنفرع منه ، وهذا يدل على أن الخليل عُنِيَ بالتفسير الاشتقاقى للمواد التي يتناولها ، ولم يقف عند شرح المادة ومقلوباتها وفروعها على طريق الاشتقاق الأكبر ، بل كان يذكر في كل أصل ما تنفرع عنه على طريق الاشتقاق الكبير^(٢) ، ويعد الخليل أسبق من ابن فارس وابن جنى إلى فهم الاشتقاق الكبير ، وهو دلالة الحروف في كلمة من الكلمات — على اختلاف ترتيبها وتركيبها — على أصل معنوى واحد^(٣).

ومنهج الخليل ليس سهلاً ميسوراً الاتباع ، بل فيه عيوب ؛ وصواه لا تهدي ، بل لا صوى تأخذ بيد الباحث ، وتوصله لمقصده ، لصعوبة ترتيبه ، وخلطه بين الثلاثى المضاعف والرباعى المضاعف ، واختلاط الأصل بغيره ، لذكره الكلمة وما ينشأ عنها بالقلب ، مثل : حرب ، وحبر ، وبحر ، ورحب ، ورجح ، ومن الصعب أن يعرف أيها الأصل وأيها المطلوب^(٣).

وليس هذا كل ما فى منهج الخليل من هنات ؛ بل ثمَّ هنات أخذها عليه العلماء ، لا تتصل بالمنهج وأصوله وقواعده ، بل تتصل ببعض المواد

(١) خطبة الكافى ٢٥ .

(٢) فقه اللغة لوافى ٢٧٨ .

(٣) ضحى الإسلام ، لأحمد أمين .

التي جاءت في كتابه ، مثل : تفرد به بذكر كلمات كثيرة لم يُسمع ببعضها .

وفي « العين » هنأت أخرى ؛ منها : إهماله أبنية مستعملة ، وعدم استيفائه الصيغ الواردة في كلام العرب ، ووجود أخطاء صرفية ، وتصحيف ، وتحريف .

وقد أشار ابن منظور في مقدمة اللسان إلى ما يشبه طريقة الخليل في معرض النقد فقال : « كأنّ واضعه شرع للناس مورداً عذباً وحلاً لهم عنه ، وارتاد لهم مرتعاً مريعاً ومنعهم منه ، قد آخر وقدم ، وقصد أن يعرب فأعجم ، فرق الدهن بين الثنائى المضاعف والمقلوب وبدد الفكرة باللفيف والمعتل ، والرباعى والخماسى ، فضاع المطلوب^(١) » .

وعزا ابن منظور انصراف الناس عن التهذيب والحكم وإهمالهم أمرها وعدم الإقبال عليهما ، حتى كادت البلاد تخلو منهما ، إلى سوء الترتيب وتخليط التفصيل والتبويب .

الخليل مبتكر لا مقلد

زعم بعض الناس أن الخليل كان يعرف غير العربية ، كان يعرف اليونانية ، ولعلمهم أرادوا من هذا الزعم أن يшиروا إلى أن معرفته باليونانية هدته إلى ابتكار منهجه في العين ، واستدلوا بصلة حنين بن إسحاق المشهور في الطب بالخليل ، فقد جاء في عيون الأنباء^(٢) ترجمة حنين : « وكان شيخه في العربية الخليل بن أحمد ، ، ثم انتقل بعد ذلك إلى بغداد » وفيه أيضاً^(٣) :

(١) مقدمة لسان العرب .

(٢) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ١ : ١٨٤ — ١٨٥ .

(٣) » » » » » ١ : ١٨٩ .

« أن حنين بن إسحاق كان يشتغل في العربية مع سيبويه وغيره ممن كانوا يشتغلون على الخليل » وهذا يدل على أن حنيناً لزم الخليل وأخذ عنه العربية حتى برع فيها ، وأدخل كتاب العين بغداد ، وحنين كان يعرف اليونانية ، وترجم منها كتباً ورسائل كثيرة لجالينوس وأبقراط ، وترجم بعض قصص اليونان ، والخليل معروف بالذكاء العبقرى النادر ، ولا بد أن تثمر هذه الصلة بينهما أن يعرف الخليل اليونانية^(١).

إلا أن هذا القول وهم ، فالخليل توفي سنة ١٧٥ هـ وولد حنين سنة ١٩٤ هـ أى بعد الخليل بأكثر من خمس عشرة سنة ، هذا على قول من قال : إن الخليل توفي سنة ١٧٥ هـ مع أن هناك من يقول : إنه توفي سنة ١٧٠ هـ .

وهذا لا يدع مجالاً للشك في أن الخليل لم يتصل بحنين ، وبانتفاء هذه الصلة ينتفى أخذ الخليل اليونانية منه .

ولم يرد هذا الزعم إلا عن ابن أبي أصيبعة عن سليمان بن حسان .

وإذا افترضنا أن الخليل كان يعرف اليونانية فلا مجال لأن يزعم زاعم أن طريقته في العين تشبه طريقة مؤلفي المعاجم اليونانية ، فلم يؤثر عن اليونان أن مؤلفاً صنف معجماً جعل ترتيبه على الحروف بحسب مخارجها مبتدئاً من أقصى الحلق منتهياً بأحرف الشفة .

ونخلص من هذا إلى أن الخليل لم يقتبس منهجه من اليونان .

وهناك قول آخر : أن الخليل اتبع في ترتيب معجمه طريقة الهند

(١) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ١ : ١٩٨ .

في ترتيب حروف هجائها^(١) ، فاللغة السنسكريتية ترتب حروف هجائها على حسب مخرجها مبتدئة بأبعد الحروف مخرجاً ومنتية بأحرف الشفة ، وهي آخر درجة في السلم الصوتي للحروف .

وكانت الصلة بين الهند وجزيرة العرب قديمة ، وقويت بعد الإسلام كثيراً ؛ وكان في الخليج الفارسي عدد كبير منهم ، وكان « المحاسبون » لتجار العراق في البصرة وبغداد من السند ، وفيهم علماء ومثقفون ، وكانوا على صلة بأهل العلم من العرب .

ولعل هذا الرأي أقرب إلى التصديق من سابقه ، ولكننا لا نميل إليه ، فوجود طريقة لمؤلف في لغة من اللغات لا يمنع أن يصل مؤلف آخر إليها باجتهاده وجهده ، ولا يكفي أن نقول : إن الخليل اتبع طريقة الهند في الترتيب لمجرد وجود هذا الترتيب في لغة لم يذكر أحد أن الخليل كان يعرفها ، وليس من السهل نقل ترتيب بحذافيره من لغة إلى لغة ، لاختلاف النطق بالحروف بين الأمم واللغات والأجناس ، بل إن ترتيب حروف الهجاء في السنسكريتية ليس — هو — ترتيب الخليل عينه .

وفوق هذا لم يكن للهند في ذلك الزمن معجم معروف^(٢) .

وطريقة الخليل تتفق مع علمه الواسع الدقيق بالموسيقى ، فهي تقوم على أساس الصوت ، وعلى ما يشبه السلم الموسيقي ، فهو اعتمد على مخرج الحروف عند ما يُنطق بها ، ونظر إلى الأوتار الصوتية والأصوات اللغوية ،

(١) دائرة المعارف الإسلامية مادة خليل .

(٢) Al khalil & the Evalution of Arabic Lexicography تأليف الدكتور

عبد الله درويش .

فصنع سلمه صاعداً عليه من أسفل حتى ينتهى إلى أعلاه ، مبتدئاً بأقصى الخلق ، متدرجاً فى الصعود حتى يصل إلى الشفة .

وإذا صح قول من قالوا : إن الخليل اتبع طريقة الهند فى ترتيب معجمه فإنهم ينسون أن الخليل كان مختاراً فيما يؤثره من الطرق المختلفة لترتيب الحروف الأبجدية ، فاختار ما وافق علمه الموسيقى ، ولم يجبره على ذلك سلطان نافذ حتى يبطل فضله فى الموازنة بين الطرق وإيثار ما هو أوفق منها لرأيه وأسبابه العلمية ، ويجب — بعد هذا — ألا ننسى الفارق الكبير بين القول بترتيب الحروف الأبجدية على طريقة الهند — إن صح — والقول باقتباس المعجمات منهم .

وفى وسعنا أن نقول : إن الخليل مبتكر فى معجمه المنهج والطريقة والترتيب حتى يثبت ثبوتاً علمياً أنه مقلد لا مبتكر ؛ ومتبع لا مخترع .

نسبة كتاب العين

اختلف العلماء فى حقيقة كتاب العين ، أهو للخليل أم لغيره ؟ وذهبوا فى ذلك مذاهب شتى ، فمنهم من أنكر النسبة ومنهم من أيدها ، ومنهم من وقف موقفاً وسطاً . والذين أنكروا النسبة كثير ؛ منهم : النضر ابن شميل ، وأبو حاتم ، والأزهري ، وابن فارس ، وابن جنى ، والقالى ، وابن النديم ، وأبو الطيب اللغوى ، والفخر الرازى ، والنووى ، وأقوالهم متقاربة ذات دلالة واحدة لا تشير إلى غير الإنكار ، فابن النديم يقول : « لم يرو هذا الكتاب عن الخليل أحد ، ولا روى فى شيء من الأخبار أنه عمل هذا البتة ^(١) » .

(١) الفهرست ٤٦ طبعة مصر .

وقال أبو عبد الله فخر الدين الرازي محمد بن عمر بن الحسين بن علي التيمي المعروف بابن الخطيب الرازي : « أصل الكتب المصنفة في اللغة كتاب العين وقد أطبق الجمهور من رجال اللغة على الطعن فيه^(١) » .

وقال أبو علي القالي^(٢) : « لما ورد كتاب العين من بلد خراسان في زمن أبي حاتم ؛ أنكره أبو حاتم وأصحابه أشد الإنكار ، ودفعه بأبلغ الدفع ، وقد غبر أصحاب الخليل بعد مدة طويلة لا يعرفون هذا الكتاب ولا يسمعون به ، منهم : النضر بن شميل ، ومؤرج ، ونصر بن علي ، وأبو الحسن الأخفش وأمثالهم . ولو أن الخليل ألف الكتاب لعله هؤلاء عنه ، وكانوا أولى بذلك من مجهول الحال غير مشهور في العلم تفرد به وتوحد بالنقل له ، ثم درج أصحاب الخليل فتوفي النضر بن شميل سنة ثلاث ومائتين ، والأخفش سنة خمس عشرة ومائتين ، ومؤرج سنة خمس وتسعين ومائة ، ومضت — بعد — مدة طويلة ثم ظهر الكتاب بأخرة في زمان أبي حاتم وفي حال رياسته ، وذلك فيما قارب الخمسين والمائتين ، لأن أبا حاتم توفي سنة خمس وخمسين ومائتين ، فلم يلتفت أحد من العلماء إليه يومئذ ، ولا استجازوا رواية حرف منه ، ولو صح الكتاب عن الخليل لبدر الأصمعي واليزيدي وابن الأعرابي وأشباههم إلى تزيين كتبهم ، وتحلية علمهم بالحكاية عن الخليل والنقل لعلمه ، وكذلك من بعدهم كأبي حاتم وأبي عبيد ويعقوب وغيرهم من المصنفين ،

(١) المحصول في علم الأصول ؛ مخطوطة الدار في مجلدين مخطوطتين رقم ١٣٠ .
(٢) نفي الدكتور عبد الله درويش في كتابه (الخليل والمعجم العربية) نسبة هذا الرأي إلى القالي ، لأن القالي نقل في كتابه (البارع) عن كتاب العين للخليل صراحة ، ولأن القالي عند ما ذهب إلى الأندلس وألف كتابه (البارع) أخبر الخليفة حينذاك أن كتابه البارع يزيد على كتاب العين بخمسة آلاف كلمة .

فما علمنا أحداً منهم نقل في كتابه عن الخليل من اللغة حرفاً .

والمعتدلون من المنكرين كالأزهري وأبي الطيب اللغوي — الذي اختصر العين — وثعلب وإسحاق بن راهويه طعنوا في العين تنزيهاً للخليل ورباً به من خطأ لا يجوز على تلامذته .

فالأزهري يقول في مقدمة التهذيب عن أقوام يصفهم بقوله : « تسموا بسمة المعرفة وعلم اللغة وألفوا كتباً أودعوها الصحيح والسقيم ، وحشوها بالمزال المفسد ، والمصحف المغير الذي لا يتميز ما يصح منه مما لا يصح ، إلا عند الثقات » وذكر من هؤلاء : « الليث بن المظفر الذي نحل الخليل ابن أحمد تأليف كتاب العين جملة لينفقه باسمه ، ويرغب فيه من حوله ^(١) » .

وعن ابن راهويه : « كان الليث صاحب الخليل بن أحمد رجلاً صالحاً وكان الخليل عمل من كتاب العين باب العين وحده ، وأحب الليث أن ينفق سوق الخليل فصنف باقى الكتاب وسمى نفسه الخليل ، وقال لى مرة أخرى : فسمى لسانه الخليل من حبه للخليل بن أحمد ، فهو إذا قال فى الكتاب : قال الخليل بن أحمد ، فهو الخليل ، وإذا قال : وقال الخليل مطلقاً فهو يحكى عن نفسه ، فكل ما فى الكتاب من خلل فإنه منه لا من الخليل ^(٢) » .

وقال السيرافى : « عمل أول كتاب العين المعروف المشهور الذى به يتبها ضبط اللغة ^(٣) » .

(١) مقدمة تهذيب اللغة للأزهري مخطوطة مكتبة شيخ الإسلام بالمدينة المنورة .

(٢) الزهر ١ : ٧٨ .

(٣) الزهر ١ : ٧٦ .

وقال ابن المعتز : « كان الخليل منقطعاً إلى الليث ، فلما صنف كتابه العين خصّه به ، وحظى عنده جداً ، ووقع منه موقعاً عظيماً ، ووهب له مائة ألف درهم ، وأقبل على حفظه وملازمته ، فحفظ منه النصف ، وكانت تحته ابنة عمه ، واتفق أنه اشترى جارية نفيسة فغارت ابنة عمه فأحرقت الكتاب ، فلما علم اشتد أسفه ، ولم تكن عنده نسخة منه ، وكان الخليل قد مات فأملى النصف من حفظه ، وجمع علماء عصره وأمرهم أن يكملوه على نمطه ، وقال لهم : مثلوا عليه واجتهدوا ، فعملوا هذا التصنيف الذي بأيدي الناس^(١) . »

وقال ثعلب : « إنما وقع الغلط في كتاب العين لأن الخليل رسمه ولم يحشه ، ولو كان هو حشاه ما بقي فيه شيء ، لأن الخليل رجل لم ير مثله ، وقد حشا الكتاب أيضاً قوم علماء إلا أنه لم يؤخذ منهم رواية ، وإنما وجد بنقل الوراقين ، فاختل الكتاب^(٢) . »

وقال أبو بكر محمد بن حسن الزبيدي اللغوي مؤلف مختصر العين في أول كتابه : « ونحن نربأ بالخليل عن نسبة هذا الخلل إليه ، أو التعرض للمقاومة له والرد عليه ، بل نقول : إن الكتاب لا يصح له ، ولا يثبت عنه فقد كان جِلَّةَ البصريين الذين أخذوا عن أصحابه وحملوا علمه من روايته ينكرون هذا الكتاب ويدفعونه ، إذ لم يرد إلا عن رجل واحد غير مغدود في أصحابه ، وأكبر الظن فيه أن الخليل سبَّب أصله ، ورام تثقيف كلام

(١) معجم الأدباء ١٧ : ٤٦ .

(٢) المزهر ١ : ٧٨ .

العرب ، ثم هلك قبل كماله ، فتعاطى إتمامه من لا يقوم فى ذلك مقامه ، فكان ذلك الخلل الواقع به ، والخطأ الموجود فيه^(١) .

« ومن الدليل على ما ذكره أبو العباس^(٢) من زيادات الناس فيه اختلاف نسخه ، واضطراب رواياته ، إلى ما وقع فيه من الحكايات عن المتأخرين ، والاستشهاد بالمرذول من أشعار المحدثين ، فهذا كتاب منذر ابن سعيد القاضى الذى كتبه بالقيروان ، وقابله بمصر بكتاب ابن ولاد ، وكتاب ابن ثابت المنتسخ بمكة قد طالعناها ، فألفينا فى كثير من أبوابهما : أخبرنا المسعرى عن أبي عبيد ، وفى بعضها : قال ابن الأعرابى ، وقال الأصمعى ، هل يجوز أن يكون الخليل يروى عن الأصمعى وابن الأعرابى وأبى عبيد فضلاً عن المسعرى . »

« وكيف يروى الخليل عن أبى عبيد وقد توفى الخليل سنة سبعين ومائة ؛ وفى بعض الروايات سنة خمس وسبعين ومائة ، وأبو عبيد يومئذ ابن ست عشرة سنة ، وعلى الرواية الأخرى : ابن إحدى وعشرين سنة ، لأن مولد أبى عبيد سنة أربع وخمسين ومائة ، ووفاته سنة أربع وعشرين ومائتين ، ولا يجوز أن يُسمع عن المسعرى علم أبى عبيد إلا بعد موته ، وكذلك كان سماع الحشى منه سنة سبع وأربعين ومائتين ، فكيف يسمع الموتى حال موتهم ؛ أو ينقلون عمّن ولد بعدهم^(٣) . »

ويقول الزبيدى أيضاً : « ومن الدليل على صحة ما ذكرناه أن جميع

(١) خطبة المختصر مخطوطة الدار رقم ٣٨٦ لغة .

(٢) يقصد ثعلباً فى قوله الذى مر الاستشهاد به .

(٣) الزهر ١ : ٨٣ — ٨٤ .

ما وقع فيه من معانى النحو إنما هو على مذهب الكوفيين ، وبخلاف مذهب البصريين ، فمن ذلك ما بدىء الكتاب به ، وبُنى عليه من ذكر مخارج الحروف فى تقديمها وتأخيرها ، وهو على خلاف ما ذكره سيبويه عن الخليل فى كتابه ، وسيبويه حامل علم الخليل ، وأوثق الناس فى الحكاية عنه ، ولم يكن ليختلف قوله ، ولا ليتناقض مذهبه ، ولسنا نريد تقديم حرف — خاصة — للوجه الذى اعتل به ، ولكن تقديم غير ذلك من الحروف وتأخيرها ، وكذلك ما مضى عليه الكتاب كله من إدخال الرباعى المضاعف فى باب الثلاثى المضاعف — وهو مذهب الكوفيين خاصة — وعلى ذلك استمر الكتاب من أوله إلى آخره .

ولو أن الكتاب للخليل لما أعجزه ولا أشكل عليه تثقيف الثنائى الخفيف من الصحيح والمعتل ، والثنائى المضاعف من المعتل ، والثلاثى المعتل بعلتين ، ولما جعل ذلك كله فى باب سماء اللفيف ، فأدخل بعضه فى بعض ، وخلط فيه خلطاً لا ينفصل منه شيء عما هو بخلافه ، ولو وضع الثلاثى المعتل على أقسامه الثلاثة ليستبين معتل الياء من معتل الواو والهمزة ، ولما خلط الرباعى والخماسى من أولهما إلى آخرهما .

ونحن على قدرنا قد هذبنا جميع ذلك فى كتابنا المختصر منه ، وجعلنا لكل شيء منه باباً يحصره ، وعدداً يجمعه ، وكان الخليل أولى بذلك وأجدر ، ولم نحك فيه عن الخليل حرفاً ، ولا نسبنا ما وقع فى الكتاب عنه توخيّاً للحق ؛ وقصداً إلى الصدق ، وأنا ذاكر الآن من الخطأ الواقع فى كتاب العين ما لا يذهب على من شدا شيئاً من النحو ، أو طالع باباً من الاشتقاق والتصريف ، ليقوم لنا العذر فيما نرّهنا الخليل عنه .

لقد أطلنا في ذكر الشواهد ، ووقفنا طويلا عند أقوال الزبيدي لنخلص من كل ذلك إلى إعطاء صورة دقيقة صادقة لأدلة المنكرين الغلاة والمنكرين المعتدلين .

فابن النديم يذكر بوضوح أن العين ليس للخليل ، والقالي يذكر أن أبا حاتم وأصحابه أنكروا العين ولا يعرفونه ولم يسمعوا به .

فأول الأدلة على إنكار نسبة العين إلى الخليل : القول جملة بالإنكار ، إلا أن الزبيدي أضاف — كما ذكر غيره — أدلة جديدة ذات قيمة في نظر النقد والعلم ، فالخليل بصرى ، وسيبويه — حامل علم — الخليل شيخ نخاعة البصرة وإمام مدرسة البصريين ، وما في العين مما يتصل بالنحو على مذهب الكوفيين ؛ فكيف يتفق للخليل — وهو شيخ إمام مدرسة البصرة — أن يترك مذهبه إلى مذهب آخر يختلف عنه .

إن هذا الدليل من أقوى الأدلة ، فإذا اعتمدنا عليه في نفي نسبة العين إلى الخليل كان هو نفسه قائما في نفي نسبة العين إلى الليث بن المظفر ، لأنه ظل للخليل وتابع له في آرائه ومذهبه .

ثم من الأدلة : أن في العين أوهاما وسقطات شنيعة وغلطات معيبة لا تصدر من طلبة الخليل ، وهذا ما حمل العلماء على الشك في نسبته إليه ، ومن الأدلة القوية : أن في العين روايات عن متأخرين ولدوا بعد الخليل بكثير .

ثم من الأدلة : أن العين لم يظهر إلا بعد موت الخليل بحوالى ستين سنة ، فلو كان له لكان في أيدي الناس ، ولعلم به العلماء ، وللهج به

تلامذة الخليل ، ولروى عنه الأصمعي وابن السكيت وغيرها ، أما وأن هذا لم يحدث ، فالعين ليس للخليل .

هذه أدلة المنكرين ، أما المعتدلون من المنكرين ، فيرون أن الخليل عمل من معجمه كتاب العين وسار على نهجه تلميذه الليث بن المظفر وأكملوه ، ويرى بعضهم أن الخليل عمل نصف الكتاب فأكمل الليث نصفه الباقي ، وبعضهم يرى أن الخليل عمله كله ، وحفظ الليث نصفه ، فلما أحرقت النسخة أملى الليث نصفه المحفوظ ، وطلب إلى العلماء أن يكملوا النصف غير المحفوظ .

ونحن نسأل : إذا كان الليث صنف العين ، فلماذا لم ينسبه إلى نفسه رغبة في الفخار والسمعة ؟ لماذا ينزل عنه للخليل ؟ ويجعل غيره مبتكر علم ومخترع فن ؟ ويرضى أن يكون تابعا وتلميذا ؟

أما أن الكتاب لم يعلم عنه تلاميذ الخليل فينقضه أن للنضر بن شميل^(١) كتابا اسمه « المدخل إلى كتاب العين^(٢) » والنضر من أخلص طلبة الخليل ، فإذا صح أنه منكر العين ، فكيف يؤلف كتابا حوله ، والمفضل بن سلامة ردود على العين واستدراك ، وتوفي المفضل سنة ٢٥٠ هـ ، وكان المبرد يرفع من قدر كتاب العين ، ورواه ابن درستويه ، وألف كتابا في الرد على المفضل بن سلامة مؤلف كتاب « استدراك على العين » ولا توجد لأبي إسحاق

(١) توفي سنة ٢٠٣ هـ

(٢) البغية ٤٠٥ .

الزجاجي حكاية في اللغة إلا منه ، وأبو علي القالي البغدادي أتى في كتابه « البارع » بما في العين وزاد عليه .

وإنكار نسبة العين إلى الخليل ليس صحيحاً ، فهو له حقاً ، وإن كان الإجماع لم ينعقد على أنه له ، أما أدلة المنكرين القائمة على أن في العين من الخطأ والتصحيح ما لا يتفق مع علم الخليل ، وعلى أن في كتابه روايات عن متأخرين عنه ، وعلى أن مذهب العين يخالف مذهب الخليل ، لأن ما يتصل بالنحو على مذهب الكوفيين ، والخليل بصرى ورائد مدرسة البصرة في النحو ، وأن الكتاب لم يظهر إلا في سنة ٢٥٠ أو خواليها ، فإن بعض هذه الأدلة منقوض ، فالخطأ والتصحيح والرواية عن المتأخرين من النسخ ، والذي يدل على أن الكتاب ظهر قبل سنة ٢٥٠ هـ أن النضر بن شميل تلميذ الخليل ألف كتاباً سماه « المدخل إلى كتاب العين » .

ومن ناحية التعليقات لا أستبعد أنها دخلت في صلب العين جهلاً من الناسخين فحسبت منه وهى خارجة عنه ، وكذلك القول في الرواية عن المتأخرين .

ولعل اختلاف النسخ بعضها عن بعض يقيم الدليل على هذا .

أما ما روى من مسائل النحو على مذهب الكوفيين فلعله راجع إلى ما كان من خصومة بين الكوفيين والبصريين مما حمل بعض الكوفيين على التغيير في العين ليكون حجة لهم على البصريين عندما يستدلون على تأييد آرائهم بقول رائد مدرسة البصرة الأول الخليل بن أحمد .

كل هذا جائز .

وموجز القول : أن العين للخليل ، وأنا مطمئن إلى ذلك كل
الاطمئنان ، ويجوز أنه ألفه ولم يستطع إتمامه : فآتمه غيره ، ويجوز أن
يكون آتمه كله فأضاف إليه الناسخون ما وجدوا من تعليقات وروايات
عن متأخرين أدخلوها على متن الكتاب جهلا منهم ، وقد أثبت الدكتور
عبد الله درويش — في رسالته التي ألفها عن كتاب العين والتي قدمها لجامعة
لندن ونال بها إجازة الدكتوراه — أن العين للخليل .

رُؤَادِ الْمَعْجَمَاتِ الْعَرَبِيَّةِ

ما كاد الخليل ينتهى من تأليف العين حتى اتبرى أئمة اللغة والمشتغلون بها من العلماء يؤلفون المعجمات الخاصة والعامة ؛ والمطولة والمختصرة ، ورأينا منذ عصر الخليل حتى أواخر المائة الرابعة للهجرة نشاطا فى ميدان التأليف اللغوى والتأليف المعجمى وضع قواعد المعجم العربى ومناهجه .

وبعض مؤلفى المعاجم سبقوا الجوهري وبعضهم عاصره ، ولكن الصحاح تفرد بخصائص وسمات سنذكرها فى موضعها من هذه المقدمة ، كما أن لكل معجم خصائص وميزات تظهر شخصيته وشخصية مؤلفه ، وقد أشرنا إلى ذلك فى إنجازنا عندما عقدنا موازنة بين الصحاح والمعجمات الأخرى التى سبقته وعاصرته .

وهؤلاء الأئمة الذين ألفوا معجمات -- ويُعدّون رؤاد التأليف المعجمى -- قليل عددهم ، وليس لكل منهم منهج خاص فى التصنيف والترتيب والنظام ، فبعضهم يصدر من نبع ، ويسير مع غيره فى طريق واحد كالأزهري الذى نهج منهج الخليل واختار منهج كتاب العين .

وهؤلاء هم الرؤاد ؛ ومنهم من صار إمام مدرسة ومنهم من كان تابعا ومريدا ، وفى الفصول الآتية ترجمة موجزة للرؤاد جميعا .

١ — أبو عمرو الشيبانى

أبو عمرو ، واسمه إسحاق بن مِرَار الشيبانى (٩٤ — ٢٠٦ هـ)
وليس هو بشيبانى ؛ بل أدب أولاداً من بنى شيبان فنسب إليهم ، وهو

كوفي نزل بغداد ، وكان من أعظم الناس علما باللغة والشعر حتى عُرف بين العلماء بصاحب ديوان اللغة والشعر ، وكان صدوقا فاضلا ، وروى عنه الإمام أحمد بن حنبل وأبو عبيد القاسم بن سلام وغيرهما ، وله مؤلفات ؛ منها : « غريب الحديث » وكتاب « النوادر الكبير » و « النحلة » و « الإبل » و « خلق الإنسان » وكتاب « الجيم ^(١) » .

ولد أبو عمرو سنة ٩٤ هـ ، والخليل سنة ١٠٠ هـ وتوفي الخليل سنة ١٧٠ هـ أو نحو سنة ١٧٥ هـ وعمر أبو عمرو طويلا فقيلا : عاش مائة سنة وثمانى عشرة سنة ، وقيل غير ذلك .

وكتاب الجيم معجم لغوى مختصر ، جمع من اللغة كثيراً من مفرداتها ، فمن السابق ؟ أنخليل أم أبو عمرو ؟ .

إن هذين الإمامين كانا متعاصرين ، وأبو عمرو أكبر من الخليل سنا ، وشهرته فى اللغة واسعة ، وكان معروفا بأنه صاحب ديوان اللغة ، وقد أجمع العلماء على توثيقه ، وثبت أنه ألف كتاب الجيم ، وهو معجم عظيم ، فليس غريباً أن يجد الباحث مجالا للسؤال : من السابق منهما إلى ابتكار المعجم العربى ؟ .

إن من حق الباحث أن يُلقى هذا السؤال .

أما أنا فأرى رأى الإجماع أن الخليل أسبق العلماء طرا إلى فكرة المعجم ، وأعتقد أنه أسبقهم إلى التأليف والتدوين ، ويحملنى على هذا رأى أن الخليل

(١) يقوم المجمع اللغوى المصرى بنشر كتاب الجيم بتحقيق المستشرق الفرنسى كونز .

صاحب عبقرية ملهمة ناضجة ، وذهن منبثق بالنور لم ينطفئ إلا بانطفاء شمعة حياته ، وقريحة فياضة ، وعقل جبار مبتكر ، وفكر رياضي مبتدع ، يبتدع علم « العروض » ابتداءً كاملاً لم يجعل لغيره فيه مجالاً ، حتى قال حمزة الأصفهاني : « إن دولة الإسلام لم تخرج أبدع للعلوم التي لم يكن لها عند علماء العرب أصول من الخليل ، وليس على ذلك برهان أوضح من علم العروض الذي لا عن حكيم أخذه ، ولا على مثال تقدمه احتذاه ، وإنما اخترعه ^(١) » . وهو مخترع علم الموسيقى العربية ، وكان في اللغة مبتكراً ، ابتكر علم النحو المعروف حتى اليوم ، وهو في اللغة ومتونها إمام متفرد ، وهو في الطبقة الأولى من أئمة اللغة ^(٢) ، فلا غرابة أن يبتكر — والابتكار من صفاته — لا غرابة أن يبتكر التأليف المعجمي ويسبق غيره كما سبق إلى العروض والنحو والموسيقى .

وأبو عمرو لم يكن مبتكراً ؛ وليس له ذهن رياضي مبتدع ، ومع تبخره في اللغة والشعر لم يؤثر عنه اختراع في علم أو فن .

وفي وسعنا أن نقول : إن المعجمين ألفا في وقت واحد أو قريب ، فكما تعاصر الرجلان تعاصر المعجمان ، إلا أن أبا عمرو بخل بكتاب الجيم على الناس فلم يقرأه أحد عليه ^(٣) ، وما نشك أن الخليل هو السابق حتى يأتي من يثبت لنا إثباتاً علمياً قاطعاً أن أبا عمرو أو غيره سبق الخليل إلى تأليف معجم .

(١) هامش إنباه الرواة ١ : ٣٤٢ .

(٢) مقدمة تهذيب اللغة للامام الأزهرى .

(٣) البغية ١٩٢ .

ولكتاب الجيم اسمان آخران ؛ هما : كتاب الحروف ، وكتاب اللغات^(١) ، وأصل اسم كتاب الجيم : كتاب الحروف ، ولكنه لقبه بالجيم فعرف به واشتهر .

وليس كتاب الجيم ضخماً كبيراً ، بل هو أصغر من معجمات الفارابي والجوهرى والأزهري وابن عباد وابن فارس ؛ أصغر منهم بكثير ، فهو لا يزيد على ٢٨٧ ورقة من حجم الوسط ، وهذا حال نسخة الأسكوريال .

وقسم أبو عمرو كتابه إلى عشرة أجزاء ، فرّق عليها المواد مرتبة على حروف الهجاء بالترتيب الحديث المعروف وهو : ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن و ه ي . وحوى بعض الأجزاء بضعة حروف ، وبعضها حرفاً واحداً ، وذلك لغير سبب معروف .

فالجزء الأول يحوى : الألف والباء والتاء والثاء والجيم .

والثانى : يحوى حرف الحاء وحده .

والثالث : الحاء والذال والذال .

والرابع : الراء .

والخامس : الزاى والسين والشين .

والسادس : الصاد والضاد والطاء والظاء والعين .

والسابع : بقية العين وحرف الغين .

والثامن : الفاء والقاف .

والتاسع : الكاف واللام .

والعاشر : الميم والنون والواو والهاء والياء .

(١) إنباه الرواة ١ : ٢٢٤ و ٢٢٧ .

وسمى كل حرف باباً ، فقال : باب الألف و باب الباء و باب التاء
وأخيراً باب الياء .

وافتح كتابه بباب الألف ذا كرا فيه كل كلمة مبدوءة بالألف دون
مراعاة الحرف الثانى والثالث ، بل يحشد فى باب الألف كل كلمة تبتدىء بها .
وافتح كتابه بكلمة الأوق ثم الألب ثم المأفول ثم الأفيق ثم الأزوح ثم
المأموم — وهو البعير إذا عمِدَ وأكل الدبر سنامه — وأنهى باب الألف
بكلمة « الإِدة » .

ثم ينتقل إلى باب الباء ، ويذكر كل كلمة مبدوءة بالباء كما يتفق له
دون أن يرتب المواد ترتيباً معجمياً يراعى فيه الحرف الثانى والحرف
الثالث ، ويفتح باب الباء بكلمة : البُهْرة ثم البرَّكة ثم البسيل ثم البدِغُ .
ثم ينتقل إلى باب التاء فالتاء حتى الياء ، حيث يختم به كتابه ،
 ويفتح باب الياء بقوله : يَقَنَّةٌ ؛ فكلمة يَدَسٌ ، ونص عبارته فيهما :
« رجل يَقَنَّةٌ : لا يكذب بشيء ، وامرأة يَبَسٌ : التى لا تنيل أحدا »
وختم باب الياء بقوله : اليمامة : القصد ، وهى آخر كلمة فى كتابه .

وطريقة تفسيره الكلمات هكذا :

المأموم : البعير إذا عمِدَ وأكل الدبر سنامه .

والإِدة : زماع أمر القوم واجتماعه . قال :

وباتوا جميعاً سالمين وأمرهم إلى ^(١) إِدَّة حتى إذا الناس أصبحوا

واليمامة : القصد . قال المرار :

إذا جفَّ ماء المزنِ عنها تيمَّمتْ يمامتها أىَّ العِداد تروم

وأوجز أبو عمرو في ذكر الشواهد ، كما أوجز في ذكر المواد .
ويُعَدُّ أبو عمرو أول من رتب المعجم حسب أوائل الحروف ، ولكنه
لم يلتزم الثاني والثالث .

ويُعَدُّ المجمع اللغوى المصرى العدة لنشر كتاب الجيم بتحقيق
المستشرق الفرنسى شارل كونس Charl Kuentz وإشراف الأستاذ
إبراهيم مصطفى ، معتمدا على نسخة الأسكوريال ، ونسخة خطية حديثة منقولة
من نسخة الأسكوريال لا يعرف كاتبها ، وكانت فى خزانة كتب فيشر .

٢ — القاسم بن سلام

أبو عبيد القاسم بن سلام ، كان أبوه عبداً رومياً لرجل من
هراة ، وكان أبو عبيد صالحاً زاهداً كريماً محسناً عفا ، يقضى ثلث ليله
فى الصلاة ، وثلثا فى النوم ، وثلثا فى الكتابة ، وروى الناس من كتبه
المصنفة نيفا وعشرين كتاباً فى القرآن والفقه واللغة ، وقيل : لولا أن الله
منَّ على الأمة بأبى عبيد ففَسَّرَ غريب القرآن لاقتحم الناس فى الخطأ ،
ولد سنة سبع وخمسين ومائة ، وخرج أبو عبيد إلى مكة سنة تسع عشرة
ومائتين ، ومات بها سنة ثلاث وعشرين ومائتين ، وقيل : سنة أربع
وعشرين ، وبلغ من العمر سبعا وستين سنة^(١) ، وألف كتباً كثيرة ؛
منها : « غريب الحديث » و « أدب القاضى » و « المذكر والمؤنث »
و « المقصور والممدود » و « الأموال » و « النسب » و « الأحداث »
و « الغريب المصنف »^(٢) .

(١) نزهة الألباء فى طبقات الأدباء ١٨٨ — ١٩٨ ، والأعلام ٢ : ٧٨٣ .

(٢) يقوم المستشرق الألمانى شبتلر Spitaler فى هذه الأيام بنشر الغريب المصنف .

والغريب المصنف من معاجم اللغة ، وقد قسمه على المعاني والموضوعات ، ويشتمل على أكثر من ثلاثين كتابا في موضوعات مختلفة ، مثل : خلق الإنسان ، والنساء ، واللباس ، والطعام والشراب ، والسماء والأرض ، والرحل والخيل ، والسلاح ، وغيرها .

ويضم الغريب المصنف أكثر من سبعة عشر ألف مادة ، ولكنه ليس معجما كبيرا ، بل يعد مختصرا ، وقد اطلعت على مصوِّرة منه بالجمع اللغوى المصرى أخذت من نسخة دار الكتب المصرية ، وهذه تحت رقم ١٢١ لغة .

ومراجعته في مؤلفه : الكتب التى ألفت حول الموضوعات التى احتواها معجمه ، واعتمد على كتب الأصمعى وأبى زيد وأبى عبيدة والكسائى وغيرهم . ومن مراجعه : علماء وأعراب وفصحاء ذكر أسماءهم ، واتبع ابنُ سيده طريقة أبى عبيد فى كتابه المشهور « المختصص » وكان ابن سيده يحفظ « الغريب المصنف » كله^(١) ، كما أن سليمان بن مطروح الحجارى — بالراء المهملة — يكاد يملئه من حفظه^(٢) ، واختصره محمد بن رضوان ابن أرقم النميرى^(٣) ومحمد بن على بن أبى بكر اللخمي^(٤) ، ورد عليه أبو سعيد أحمد بن خالد الضرير البغدادى^(٥) وعلى بن حمزة البصرى^(٦) ،

(١) البغية ٣٢٧ .

(٢) البغية ٢٦٣ .

(٣) البغية ٤٢ .

(٤) البغية ٤٢ .

(٥) البغية ١٣٢ .

(٦) البغية ٣٢٧ .

وشرحه أحمد بن محمد بن أحمد المرسى^(١) ، وشرح أبياته أبو محمد يوسف ابن الحسن بن السيرافى^(٢) .

وقد سبق أبو عبيد إلى طريقته من غير العرب ، فقد سبقه يوليوس بولكس Julius Pollux وألف معجماً رتبته على المعانى والموضوعات^(٣) .

٣ — ابن دريد

أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (٢٢٣ — ٣٢١ هـ) ولد بالبصرة ونشأ بها ، وتعلم فيها ، وأخذ العلم واللغة عن أئمة أعلام : كآبي حاتم والرياشى والأشنادانى ، وهو من أكابر علماء العربية ، وكان مقدماً فى اللغة وأنساب العرب وأشعارهم ، وكان أديباً شاعراً ؛ وله مؤلفات كثيرة ؛ منها : « الاشتقاق » و « كتاب الخيل الكبير » و « كتاب الخيل الصغير » و « الأنواء » و « الملاحن » و « أدب الكتاب » و « الجهرة » و « كتاب المجتنى » و « كتاب المقتنى »^(٤) .

والجهرة أحد المعاجم العربية الكبيرة ، نهج فيه منهج الخليل ، مع أنه أراد أن يتخلص منه ، ولكنه اتبعه فى كثير ؛ وشذ عنه فى الترتيب ، إذ رتب كتابه على حروف المعجم ، وعنى كثيراً بترتيب الحروف جاعلاً أساسه الأبنية ، وسار على طريقة الخليل ؛ مدخلاً فيه بعض الزيادات ، وبدأ بالثنائى ثم الثلاثى ثم الرباعى ، ثم ملحق الرباعى ، ثم الخماسى

(١) البغية ١٧٥ .

(٢) البغية ٢٤١ .

(٣) دائرة المعارف البريطانية مادة Dictionary .

(٤) مقدمة شرح المقصورة الدريدية لابن هشام اللخمي (مخطوطتنا) .

والسداسى وما يلحق بهما ، وأفرد للنوادر باباً خاصاً بخلاف الخليل الذى وضعها مع المواد كلاً فى بابيه .

واتبع ابن دريد الخليل فى نظام قلب الكلمة ؛ وابتدع نظاماً فى ذكر المواد ، وهو أن يبدأ كل باب بالكلمة المبدوءة بالحرف الذى وقف عليه الباب آخذاً بالحرف الذى يليه تاركاً ما سبقه ، فإذا كان فى باب الدال — مثلاً — ترك ما قبلها من الحروف وهى : الدال مع الهمزة ، والدال مع الباء ، والدال مع التاء ، والدال مع الثاء ، والدال مع الجيم ، والدال مع الحاء ، والدال مع الخاء ، والدال مع الدال ، وبدأ بالحرف الذى يليه فيذكر الدال مع الذال ، فالدال مع الراء ، وهكذا حتى ينتهى ، ولا يذكر بعد ذلك الدال مع الحروف التى تسبقه فى الترتيب الهجائى لأنه ذكرها فيما سبق من المواد .

إن منهج ابن دريد منهج الخليل — كما ذكرنا — إلا فى بعض النقاط ، اتفق معه فى نظام الأبنية ، وما ينشأ عن الكلمة باتباع نظام القلب كما مثلنا فيما كتبناه عن كتاب العين ، وخالفه فى البدء فى كل باب بالحرف الذى يعقده عليه تاركاً ما قبله آخذاً بما بعده .

وبعض العلماء لا يوثق ابن دريد كالإمام الأزهري الذى يقول فى مقدمة تهذيبه : « ومن ألف فى عصرنا الكتب ووسم بافتعال العربية وتوليد الألفاظ التى ليس لها أصول ، وإدخال ما ليس فى كلام العرب فى كلامهم : أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي صاحب كتاب الجهرة^(١) » .

(١) تهذيب اللغة للأزهري مخطوطة شيخ الإسلام بالمدينة المنورة .

ومع ما قيل في ابن دريد فإنه أحد أئمة اللغة الذين خدموا العربية أجل الخدمات ، ومع ما قيل في « الجهرة » فإنه معجم عظيم ، ومن الإنصاف أن نبرئ ابن دريد مما اتهم به . فقد كان يتحرى في الرواية ، ولا يذكر إلا ما يرضى عنه ، ولئن اشتمل كتابه بعد هذا على أوهام أو خلل أو خطأ فإن الكتب الكبيرة لا تخلو من المآخذ والعيوب ، وفي كلام الأزهري تحامل على ابن دريد ، غفر الله لهما .

وقيل : إن ابن دريد أملى الجهرة دون الاستعانة بالنظر في شيء من الكتب إلا في الهمزة واللفيف ، وإذا صح هذا فإن ابن دريد يتفرد بين مؤلفي المعجمات بهذه الموهبة النادرة الفذة ، فإملاء عالم — مهما بلغ علمه — معجبا من حفظه وعلمه وعقله دون الاستعانة بكتب حدّث جدير بالإعجاب ؛ وعمل قمين بأن يُقدَّرَ صاحبه أعظم القدر ، وعمل كهذا معجز ؛ ولم نسمع عن مؤلف معجم صنع ما صنع ابن دريد .

وإذا جاء بعد هذا الجهد البالغ المثمر خطأ في بعض صنيعه أو وهم أو خلل أو خلط في ترتيب بعض الكلمات ووضعها في غير تركيبها ، فإن إعجازه فيه خير شفيع له ، وأى معجم برئ من الخطأ والخلل ؟ .

٤ — الفارابي

أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم الفارابي (٠٠٠ — ٣٥٠)
خال الجوهري ، من « فاراب » وانتقل إلى اليمن وأقام في زبيد ، وفيها ألف كتابه « ديوان الأدب » وقد عرّفه بقوله : « ميزان اللغة ومعيار الكلام » .

وطريقة الفارابي في معجمه أنه قسمه ستة أقسام سماها كتباً ؛
ورتبها هكذا : كتاب السالم ، وكتاب المضاعف ، وكتاب المثال ، وكتاب
ذوات الثلاثة ، وكتاب ذوات الأربعة ، وكتاب الهمزة ، وجعل كل
كتاب شطرين : الأول خاصاً بالأسماء ، والثاني بالأفعال ، وكل شطر
منهما ينقسم إلى أبواب بحسب الأبنية ، وتنقسم الأبواب بحسب حروف
الهجاء المعروفة ، ويسير على الترتيب المؤلف ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز
حتى الياء ، ولم يذكر الهمزة في الترتيب لأنه أفرد لها باباً خاصاً بها .
وكذلك أخرج أحرف العلة لأنه أفرد لها باباً خاصاً في كتاب المثال وكتاب
ذوات الثلاثة وكتاب ذوات الأربعة .

ثم يسير في ترتيب الأبواب والفصول على هذا النهج ، ففي باب الباء
يذكر كل كلمة تنتهي بحرف الباء ، وفي باب الجيم تذكر كل كلمة تنتهي
بحرف الجيم ، ويرتب الفصول على حروف الهجاء ، ويلتزم في ترتيبه
الكلمات — بعد ترتيبه في الباب والفصل — الحرف الثاني والثالث
والرابع من أحرف وسط الكلمة .

وهذه هي نقطة الالتقاء بين الفارابي والجوهرى ، وقد حمل ذلك باحثاً
— هو الدكتور كرنكو — أن يدعى أن الجوهرى سرق في صحاحه
مواد كتاب الفارابي^(١) .

ولقد أسرف الأستاذ كرنكو في دعواه ، ولا سند له ، فديوان الأدب
للفارابي وصاح الجوهرى موجودان ، ومنهما نسخ كثيرة صحيحة ، والفارق

(١) كرنكو Krenkow الملحق الثوى لمجلة الجمعية الآسيوية الملكية سنة ١٩٢٤
وعنوان موضوعه : « بواكير المعاجم العربية حتى عصر الجوهرى » .

بين المعجمين كبير ، وبعد كل هذا نجد عمل الجوهري أصح وأكمل وأعظم من عمل خاله الفارابي .

ونحن لا نشك أن الفارابي يعد واضح بعض أساس منهج الصحاح ؛ وفوق هذا أربى الجوهري على خاله وأتى بنظام دقيق بذه فيه ، وكان نظامه آية بينة .

ولعل مما أثار وهم كرنكو حتى زعم ما زعم أن ياقوت يقول : « رأيت نسخة من كتاب ديوان الأدب بخط الجوهري ، وقد ذكر فيها أنه قرأها على أبي إبراهيم بفاراب^(١) » ولا يبعد أن يكون الجوهري اطلع على كتاب خاله ، ولكن عبارة ياقوت غير دقيقة ، وينفيها أن الفارابي ألف كتابه في زييد وتوفي بها ، وهذا يمنع الجوهري من القراءة على خاله ، ولا يمنعه من الاطلاع عليه واستنساخه .

وإذا قلنا : إنه اطلع على « ديوان الأدب » وقواه على مؤلفه ، فإن ذلك لا يوجب اتهام الجوهري بسرقة كتاب خاله ، فالفارق بينهما كبير في المنهج والترتيب والنظام وعدد المواد .

والتقاء الفارابي والجوهري في نقطة أو نقاط ليس دليلاً على أن الثاني سطا على الأول ، وإلا لعدَّ الإمام الأزهرى سارقاً كتاب العين للخليل ، وعدَّ كل تابع لمدرسة معجمية سارقاً من الرائد ، ولكن أحداً لا يستطيع — في مثل هذه الأحوال — أن يتهم عالماً إماماً بالسرقة إذا اتفق مع غيره في المنهج وأكثر المواد .

وقد تناول أبو سعيد محمد بن جعفر بن محمد الغورى ، أحد أئمة اللغة ديوان الأدب للفارابى ، وزاد عليه فى أبوابه وجعله فى عشرة مجلدات ، وهذبه ووسع فيه وأضاف إليه كثيرا من المواد^(١) . وهذبه الحسن بن المظفر النيسابورى وسماه : « تهذيب ديوان الأدب^(٢) » .

٥ — الأزهرى

أبو منصور محمد بن أحمد بن أزهر الهروى اللغوى الشهير (٢٨٢ — ٣٧٠ هـ) وليس الأزهرى نسبة إلى الجامع الأزهر بل نسبة إلى أزهر أحد أجداده ، والأزهرى إمام عظيم من أئمة اللغة المصطفين ، وحجة من حججها ، ولم تكن اللغة كل علمه ، بل اشتهر بها لأنها غلبت على علومه الأخرى كالفقه والحديث والتفسير .

ومعجمه « تهذيب اللغة » يمتاز بالدقة والتحرى فى الأخذ ، وفيه الصحيح من كلام العرب ، وبه غير الصحيح — وهو جد قليل — وقد أشار هو نفسه إلى ما شك فيه أو أخذه ممن لا يوثق به ، والتهذيب مرتب على مخارج الحروف مثل العين للخليل بن أحمد ، واتبع نظامه فى قلب الكلمة .

وجعل الأزهرى همزة حرف علة ، وكان حقها أن تذكر بعد العين ، وإن كان الصرفيون يحسبونها أول حروف الحلق ، وسمى كل حرف باباً ، وكل بناء كتاباً ، فهو يقول فى آخر المجلد الأول من معجمه : « كتاب

(١) البقية ٢٨ و ٢٩ .

(٢) البقية ٢٣٠ .

الثلاثي المضاعف من حروف العين « ثم عنوان صغير هو : « باب الغين والقاف » وجعل الأبنية ستة : كتاب الثنائي المضاعف ، وكتاب الثلاثي الصحيح ، وكتاب الثلاثي المهموز ، وكتاب الثلاثي المعتل ، وكتاب الرباعي ، وكتاب الخماسي .

وهو إذ يذكر الكلمة يردفها بما ينشأ عنها من أنواع القلب كما صنع الخليل ، وينبه إلى المهمل ، كما ينبه إلى الكلمات التي أهمل ذكرها بعض العلماء ، فهو يقول في أبواب الهاء والشين : « هبش ؛ أهمله الليث ، وروى أبو العباس عن ابن الأعرابي أنه قال : الهبش : ضرب التلف . وقد هبشه ، إذا أوجعه ضرباً . وقال اللحياني : هو يهبش لعياله ويهبتش ويحرف ويحترف ويخرش ويخترش ، معناها : يكسب ويطالب ويحتال . وقال الأصمعي : والهباشة والحباشة : الجماعة من الناس . وقال الرؤاسي : إن المجلس ليجمع هباشات وحباشات ، أي ناساً ليسوا من قبيلة واحدة ، وقد تهبشوا أو تحبشوا ؛ إذا اجتمعوا . ومنه قول رؤبة :

لولا هباشات من التهبيش لصبية كأفرخ العُشوش^(١) »

ومن هذا الشاهد نستدل على حرص الأزهري على إسناد كل قول إلى من صدر عنه أو رواه .

ولقد أشار الأزهري إلى طبيعة عمله وبعض منهجه في مقدمة كتابه ، فقال ما تقتطف منه ما يختص بمنهجه ، قال : « سميت كتابي تهذيب اللغة ، لأنني قصدت بما جمعت فيه نفي ما أدخل في لغة العرب من الألفاظ

(١) نسخة مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمة الله بالمدينة المنورة .

التي أزالها الأغبياء عن صيغها ، وغيّرها الغُثم عن سننها ، فهذبت ما جمعت في كتابي من التصحيف والخطأ بقدر علمي ، ولم أحرص على تطويل الكتاب بالحشو الذي لم أعرف أصله ، والغريب الذي لم يسنده الثقات إلى العرب » .

وقال : « ولو أنني أودعت كتابي هذا ما حوته دفاتري ، وقرأته من كتب غيري ، ووجدته في الصحف التي كتبها الورّاقون ، وأفسدها المصحّفون ؛ لطلّ كتابي ، ثم كنت أحد الجانبين على لغة العرب ولسانها ، ولقليل لا يُخزّي صاحبه خير من كثير يفضحه ، ولم أودع كتابي هذا إلا ما صحّ لي سماعاً منهم ، أو رواية عن ثقة ، أو حكاية عن خط ذي معرفة ثاقبة اقترنت إليها معرفتي » .

ويكرر ما يشبه هذا في آخر كتابه بقوله : « وقد حرصت ألا أودعه من كلام العرب إلا ما صحّ لي سماعاً من أعرابي فصيح ، أو محفوظ لإمام ثقة ، حسن الضبط ، مأمون على ما أدّى ، أما ما يقع في تضاعيف الكتاب لأبي بكر محمد بن دريد الشاعر ؛ والليث ؛ مما لم أحفظه لغيرها فإنّي قد ذكرت في أول الكتاب أنني واقف على حروف كثيرة لهما ، وأنه يجب على الناظر فيها أن يفحص عنها ، فإن وجدها محفوظة لإمام من أئمة اللغة ، أو في شعر جاهلي ؛ علم أنها صحيحة ، وإذا لم تصحّ له من هذه الجهة توقف عن تصحيحها » .

وعُني الأزهري بالبلدان والمواضع والأمكنة والمياه عناية كبيرة جعلت كتابه من أصح المصادر في هذا السبيل ، فقد وقف هو نفسه على كثير منها أو جملها ، ولو جرّدت في كتاب على حدة لكان من خير كتب البلدان .

ومن أجل ما في التهذيب أن يقول الأزهرى : « سمعت العرب يقولون » .

ومن هذا الكتاب في مكتبات العالم ثمانى عشرة نسخة ، كما وصل إلى
علمى : نسخة بالمكتبة الأحمدية بحلب ، وثانية بمكتبة شيخ الإسلام عارف
حكمة الله الحسينى بالمدينة المنورة ، وثلاث بدار الكتب المصرية ، واثنى عشرة
نسخة بتركيا ، ونسخة بالمتحف البريطانى ؛ إلا أن نسخة المدينة تفضلها ، فهي
أقدمها ، ولعلها خيرها فى جمال الخط والضبط والسلامة من التحريف والتصحيف
والخرم ، ونسخ دار الكتب نواقص ، وكلهن لا يكمن نسخة واحدة ،
ونسخة الأحمدية لا بأس بها ، وأربع نسخ من الاثنى عشرة نسخة التى
بتركيا يوثق بها ؛ وما عدا الأربعة سقيم . أما نسخة المدينة فممتازة وصحيحة
وهى بخط ياقوت^(١) كتبها سنة ٦١٦ هـ وما عداها كتب فى القرنين :
الثانى عشر والثالث عشر للهجرة ؛ إلا نسخ دار الكتب ، فتاريخهن قبل
ذلك ، ولكنهن نواقص .

٦ — ابن عباد

الصاحب إسماعيل بن عباد بن العباس أبو القاسم (٣٢٦ — ٥٣٨٥)
وزير غلب عليه الأدب والعلم ، وكان كريماً سمحاً جيد رأى ، محباً للعلم وأهله ،
استوزره مؤيد الدولة بن بويه الديلمى ثم أخوه فخر الدولة ، ولقب بالصاحب

(١) أشك أن النسخة من خط ياقوت .

لصحبته مؤيد الدولة منذ صباه فسماه صاحب فاستمر عليه واشتهر به ،
وكانت خزانة كتبه حمل أربعائة جمل . وتوفى بالرّسّى ونقل إلى أصفهان ،
وألف كتباً جليّة ؛ منها : « الوزراء » و « الكشف عن مساوئ المتبني »
و « العروض » و « الوقف والابتداء » و « جوهرة الجهرة » و « المحيط »
وهو معجم لغويّ كبير ، ينهج فيه نهج الخليل في العين والأزهرى
في التهذيب ، اتبع الخليل في ترتيب الحروف بحسب الخارج ونظام
القلب ، واتبع الأزهرى في تقسيم الأبواب ، إلا أنه لم يتقيد بمنهجيّهما
كل التقيد ، بل كان ينطلق ويخالف متبوعيه مخالفة واضحة ، وأول أوجه
المخالفة : أنه أغفل الشواهد والمراجع ، وأهل ذكر أسماء من نقل عنهم
الغريب والنوادر واللغة ؛ سواء أكانوا آدميين أم كتباً إلا نادراً .

وتفرد صاحب عن كل مؤلفي المعجمات التي سبقته أو عاصرتة في المجاز
وفي إغفال الشواهد ، وامتاز محيطه بالسعة والحفول بالمواد ، فقد استبدل بما
أغفل من شواهد ، موادّ كثيرة فكان محيطه — من ناحية الكم — أوسع معجم
معروف حتى عصره . ووصفه القفطى بقوله : كثّر فيه الألفاظ ، وقلل الشواهد ،
فاشتمل من اللغة على جزء متوفر^(١) .

(١) إنباه الرواة ١ : ٢٠١ وبدأت وزارة الثقافة والفنون بالعراق في طبع « المحيط » وصدر
منه جزآن بتحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين . (وكتبت هذه التعليقة عن « المحيط »
بمكة المكرمة حرسها الله بعد صلاة الجمعة يوم الثامن من جمادى الآخرة سنة ١٣٩٩ هـ
٤ / ٥ / ١٩٧٩ م).

٧ — ابن فارس

أبو الحسين أحمد بن زكريا بن فارس (٠٠٠ — ٥٣٩٥ هـ) من أعيان العلم وأفذاذ الدهر ، وكان أدبياً شاعراً ، وأحد أئمة اللغة المبرزين ، والتزم الصحيح في مقاييسه ومجمله ، واتبع في تأليف « مقاييس اللغة » منهجاً لم يسبق إليه ، كما يقول محقق^(١) المقاييس : إذ يرد كل مادة من مواد اللغة إلى أصولها المعنوية المشتركة ، فلا يكاد يخطئه التوفيق ، وقد انفرد بين اللغويين بهذا التأليف ، لم يسبقه أحد ، ولم يخلفه أحد .

ويقصد ابن فارس من « المقاييس » ما يقصده اللغويون من « الاشتقاق الكبير » الذي يرجع مفردات كل مادة إلى معنى أو معان تشترك فيها هذه المفردات .

وسار ابن فارس في مقاييسه على نهج خاص ، فهو لم يرتب موادها كالعين بحسب مخارج الحروف ، ونظام القلب ، ولم يتبع طريقة ابن دريد في الجهرة حيث التزم في ترتيبه أوائل الحروف ، وذكر الكلمة وما ينشأ عنها من مفردات بعد قلب الكلمة التي تجيء في الباب ، ولم ينهج منهج الصحاح بل سلك طريقاً خاصاً به ، فهو قد قسم مواد اللغة إلى كتب تبدأ بكتاب الهمزة ، وتنتهى بكتاب الياء ، وقسم كل كتاب إلى أبواب ثلاثة : باب الثنائى المضاعف والمطابق^(٢) ، وأبواب الثلاثى الأصول من المواد ، وباب ما جاء على أكثر من ثلاثة أحرف أصلية ، والتزم في كل قسم من القسمين الأولين

(١) هو العلامة الجليل الأستاذ عبد السلام محمد هارون ، وقد طبع في ستة أجزاء .

(٢) يريد بالمطابق : الرباعى المضاعف .

ترتيباً خاصاً سبقه إليه ابن دريد ، وهو أن يبدأ كل باب بالكلمة المبدوءة بالحرف الذي يقف عليه الباب ، آخذاً بما يليه من الحروف حسب التهجى المعروف ، ويخالف ابن فارس ابن دريد فى أن الأول يؤجل ذكر الكلمات التى تبدأ بحرف الباب إذا سبقته ، حتى إذا انتهى من ذكرها ذكر ما أجّل بخلاف ابن دريد الذى يغفل ذكرها لأنه ذكرها فى المواد السابقة ، فلا ضرورة — عنده — لإعادتها .

فى باب الثاء ؛ المثلثة — مثلاً — يترك ابن فارس الابتداء بالثاء والهمزة ؛ فالثاء والباء ؛ فالثاء والياء ؛ فالثاء والفاء ؛ ويبدأ بالجيم وما يثلاثها لأنه الحرف الذى يلى الثاء ، حتى إذا انتهى من الحروف كلها عاد إلى الأبواب المتروكة ، وهى أبواب الثاء مع الهمزة فالباء فالثاء فالفاء ، وذكرها ، أما طريقة ابن دريد فهى هذه ، إلا أنه لا يعود إلى المتروك ، لأنه مذكور فيما مضى من المواد .

٨ — البرمكى

أبو المعالى محمد بن تميم البرمكى اللغوى ، لم يؤلف معجماً ، ولكننا عددناه ضمن الرُّوَاد ، لأنه ابتكر المنهج المعجمى الحديث ، ألا وهو الترتيب بأوائل الحروف حسب التهجى المعروف ، ابتكر منهجاً عُدَّ غريباً ، وطبقه على كتاب لمؤلف سواه ، فقد تناول الصحاح ورتبه على حروف الألفباء وزاد فيه أشياء قليلة .

ويُعَدُّ البرمكى أول من ابتدع هذا النظام ، وقد اتبعه فيه الزمخشري فى أساس البلاغة ، فظنه العلماء مبتكر هذا الترتيب ، وقد سبقهما أبو عمرو

الشيباني إلا أنه لم يلتزم غير الحرف الأول ، أما البرمكي فكان يلتزم الثاني والثالث والرابع^(١) .

وقد رأيت جزءاً منه في مائة ورقة بالمكتبة الخاصة بإبراهيم حمدي الخربوطلي أمين مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمة الله بالمدينة المنورة — وقد توفي رحمه الله وغفر له — فألفيته مرتباً مثل ترتيب المعجمات الحديثة ، ومنه قطعة في ست ورقات بمكتبة كوبريللي^(٢) رقم ٢/١٥٢١ .

٩ — أبو علي القالي

إسماعيل بن القاسم بن هارون أبو علي القالي البغدادي (٢٨٨ — ٣٥٦ هـ) ولد بمنازکرد^(٣) من إرمينية ودخل بغداد لطلب العلم سنة ٣٠٥ هـ وأقام فيها إلى سنة ٣٢٨ هـ ، ثم رحل عنها ودخل الأندلس سنة ثلاثين وثلاثمائة ، وقيل له : القالي ، لأنه انحدر إلى بغداد مع رفقة من قاليقلا ، وتوفي بقرطبة ودفن بها سنة ٣٥٦ هـ

وأخذ القالي علومه من كثير من أئمة اللغة والنحو كابن دريد وابن القاسم الأنباري ونفطويه والزجاج والأخفش وابن درستويه .

وله مؤلفات ؛ منها : الأمل ، والمقصود والممدود ، وفعلت وأفعلات ، والبارع .

والبارع : معجم ابتداء فيه منذ سنة ٣٣٩ هـ ، وعاونه فيه وراق اسمه محمد بن

(١) راجع في المدارس المعجمية ما كتبناه عن البرمكي .

(٢) فهرس المخطوطات المصورة ١ : ٣٧٥ .

(٣) منازکرد في معجم البلدان لياقوت ٨ : ١٦٤ « منازجرد » ، وأهله يقولون منازکرد : بلد مشهور بين خلاط وبلاد الروم . وخلاط : عاصمة إرمينية :

الحسين الفهدى من أهل قرطبة منذ عام ٣٥٠ هـ ، وأخذ يجمع موادّه حتى عاجلته المنية سنة ٣٥٦ هـ ، فتولى تهذيبه ورّاقه مع محمد بن مَعمر الجياني ، وكان قد أتمه ولكن لم يستطع أن يكمل تبييضه ونقله ، بل نقل كتاب الهمزة وكتاب الهاء وكتاب العين .

وقد بنى القالى معجمه على حروف المعجم ، وجمع فيه كتب اللغة ، وعزا كل كلمة من الغريب إلى من نقلها عنه من العلماء ، واختصر الإسناد عنهم ، وهو يشتمل على ٥٠٠٠ ورقة .

واتبع طريقة الخليل ومنهجه ، فبنى معجمه على مخارج الحروف ، ولكنه لم يَسِرْ على ترتيب الخليل ، ويلتزمه بحذافيره ، فبدأ بالهمزة ثم الهاء ثم العين ، والخلاف يسيرٌ في الترتيب ، وخالف الخليل في الأبنية وترتيبها ، فهي عند القالى ستة : أبواب الثنائى المضاعف ، ويسميه : الثنائى في الخط ، والثلاثى في الحقيقة ، وأبواب الثلاثى الصحيح ، وأبواب الثلاثى المعتل ، وأبواب الحواشى ، وأبواب الرباعى ، وأبواب الخماسى .

واتبع القالى الخليل في ذكر الكلمة ومقلوبها .

ولا يعد القالى مبتكراً بل سار على منهج الخليل ، ومنهج المشاركة في التأليف المعجمى ، والبارع أول معجم يؤلف في الأندلس .

ولم تظهر من البارع نسخة كاملة حتى الآن ، بل كل ما ظهر منها قطعتان : إحداهما في المتحف البريطانى تحت رقم Or ٩٨١١ ، والثانية في المكتبة الأهلية بباريس برقم ٤٢٣٥ . وقد صورها الدكتور فلتون أمين المكتبة الشرقية بالمتحف البريطانى وجعلهما في كتاب .

المدارس المعجمية

إن مؤلفي المعجمات الأولى هم رواد التأليف المعجمي في العربية ، ومعاجمهم الطلائع الأولى ، وهي التي وضعت كل قواعد المعجم العربي ، ومعاجم هؤلاء الرواد لم تُبق لمن بعدهم جديداً في ترتيب المواد ، إلا في حالات لا تعد جدتها ابتكاراً ؛ وإن كان فيها تيسير على الشُّدادة ، مثل معجم الشيخ محمد النجارى المصرى المتوفى سنة ١٣٣٢ هـ ، الذى جمع فيه اللسان والقاموس ورتب موادها ترتيباً اتبع فيه طريقة البرمكى ، وهي ترتيب المواد على أوائل الحروف - كترتيب معاجنا الحديثة - وخالفه أنه لم يراع الاشتقاق والتجريد ، فهو يذكر الكلمة في بابها بالحرف الأول ، الذى يُنطق به ، غير ناظر إلى أصالة الحرف الذى تبدأ به الكلمة ، فهو يذكر كلمة كتب في حرف الكاف ؛ ويذكر كلمة « مكتب » في حرف الميم ، مع أن المعجميين يذكرون كلمة « مكتب » في مادة كتب ، وهذه الطريقة سبق إليها فلوجل الألمانى .

ورواد التأليف المعجمي في العربية ، وضعوا كل قواعد المعجم ، ومن جاء بعدهم حتى هذا العصر لم يُضيفوا جديداً إلى نظام السلف ، ولم يبتكروا ترتيباً طريفاً ، بل سبقهم أولئك الرواد ومشى الخلف على نهجهم بعد أن اختاروا طريقة أحدهم ، وأغفلوا ما عداها ، لأنها أقرب تناولاً ، وأكثر تيسيراً وأبعد ، عن المشقة ؛ وتركوا غيرها لوعورة الطريق إليها .

ويلتقى هؤلاء الرواد في كثير من النقاط ، ويتفق بعضهم في المنهج ، ولكن لكل منهم سماته وخصائصه ، وفي وسعنا أن نحصر معجمات هؤلاء

الرواد — من الخليل حتى البرمكي — في أربع مدارس ، كلها وجدت خلال ثلاثة قرون ؛ ابتداء من أواخر القرن الثاني للهجرة ، حتى أواخر القرن الرابع للهجرة ، وعلى سبيل التقريب : بدأت قبل وفاة الخليل سنة ١٧٠ أو ١٧٥ هـ ، وانتهت سنة ٣٩٧ هـ .

وكما يلتقى الرواد في بعض نقاط المناهج التي اتبعوها فإن المدارس المعجمية تلتقى في بعض النقاط ، وتختلف في بعضها ، ولكن لكل منها شخصيتها الخاصة التي تميزها عن سواها .

وعندما يطلع القارئ على هذه المدارس ؛ ومنهج كل منها ، سيري الفارق بينهن واضحاً جلياً .

وهذه المدارس أربع في رأينا ، إلا أن في وسعنا أن نجعل مرد أصولها إلى نبعين مختلفين ، وهي أربع لمن أراد التفصيل ، واثنان لمن أراد الإيجاز والإجمال .

وهاتان المدرستان هما : مدرسة المعاني ، ومدرسة الألفاظ ، أما مدرسة المعاني فهي التي اتخذت معاجم رتبها حسب المعاني والموضوعات ، كالغريب المصنف لأبي عبيد ، أحد الرواد المتقدمين ، والمخصّص لابن سيده ، ويدخل في فصول هذه المدارس كل الرسائل والكتب اللغوية التي اتخذت المعاني وسيلتها في ذكر الكلمات .

أما مدرسة الألفاظ فهي التي بنت قواعدها على علم الأصوات اللغوية ، ورتبت المعجم حسب الحروف التي تبتدىء بها أوائل الكلمات على اختلاف

فى ترتيب الحروف ، كالاختلاف بين ترتيب الخليل وأبى عمرو والجهرى والبرمكى والقالى .

فهؤلاء بنوا معجماهم على علم الأصوات اللغوية ، ورتبوا على الحروف ، ولكن كل واحد منهم اتخذ طريقاً خاصاً ، فالليل رتب مواد على الحروف بحسب الخارج ، واتبعه القالى على اختلاف سير ، إذ خالف الخليل فى ترتيب حروف الحلق ، وخالفه فى ترتيب المجموعات إذ نقلها من مواضعها التى أنزلها فيها الخليل دون أن يغير فى ترتيب حروف كل مجموعة من المجموعات .

وأبو عمرو رتب مواد على ترتيب الحروف الهجائية المعروف وكذلك البرمكى ، أما الجهرى فقد رتب على الحروف ولكنه خالف من سبقه أو لحقه ، ممن خالفوا طريقته ، خالفهم فى أنه لم ينظر إلى أول الكلمة بل نظر إلى آخرها ، ثم رتب المواد على حروف الهجاء .

ولو قسمنا المدارس اللغوية إلى مجموعتين بهذا الاعتبار ، لكان تقسيمنا صحيحاً ، إلا أننا آثرنا أن نفرّد لكل من ألف معجماً بناء على الأصوات اللغوية مدرسة خاصة به ، نسبناها إلى رائدها أو إمامها ليكون عملنا أدق وأكثّر تفصيلاً .

وعلى هذا فإن المدارس اللغوية فى رأينا أربع ، لكل منها نظام خاص ، ومنهج خاص ، وشخصية خاصة ، وسنشير إلى سمات كل مدرسة وخصائصها فى إيجاز .

وهذه المدارس الأربع هي :

١ — مدرسة الخليل .

٢ — مدرسة أبي عبيد .

٣ — مدرسة الجوهري .

٤ — مدرسة البرمكي .

مدرسة الخليل

مدرسة الخليل أول مدرسة عرفت في العربية في تاريخ المعجم العربي ،
والخليل إمام هذه المدرسة وإمام المعجميين العرب عامة ، فهو أول من شق
أمامهم طريق التأليف المعجمي ودلهم عليه ، وفتح لهم بابه .

وقوام مدرسته ترتيب المواد على الحروف حسب مخارجها ، وتقسيم
المعجم إلى كتب ، وتفرع الكتب إلى أبواب بحسب الأبنية ، وحشد
الكلمات في الأبواب ، وقلبُ الكلمة إلى مختلف الصيغ التي تأتي منها ،
مثل قوله في باب السين والميم مع الواو والألف والياء : سوم ، وسم ،
سمو ، مسو ، موس^(١) . وإهمال ما لم يُستعمل إذا لم يجيء ؛ فهو قد أهمل
في هذا الباب « ومس » لأن العرب لم تستعمله في رأيه .

وقد سار بعض رواد التأليف المعجمي على نهج الخليل ، فالتزمه الأزهرى
في « التهذيب » وابن عباد في « المحيط » ، والقالى في « البارع » .

(١) كتاب العين ٢ : ٢٣٨ نسخة الدكتور عبد الله درويش ، وفي نسخته المنقولة بالآلة الكتابة

ولم يكن هؤلاء الرواد مقلدين ، ولم يتبعوا الخليل في كل دقيقة من دقائق منهجه ، بل خالفوه في بعض منهجه ، وأضافوا إلى طريقة الخليل أشياء جديدة ، وهذا الجديد الذى أضافوه أو المقصد الذى أرادوه ، نتيجة تطور التأليف المعجمى الملحوظ بين البادى المبتكر ، والتابع المتأخر ، ولكن هؤلاء التابعين المتأخرين لم يسعهم الابتكار مثل الخليل ، ولم يستطيعوا الخروج على قواعد مدرسته المتبوعة .

فالخليل أراد أن يحصر اللغة — كما حصر العروض — حصراً علمياً ، بواسطة الأرقام ، وذكر أن عدد أبنية كلام العرب — المستعمل والمهمل — على مراتبها الأربع ؛ من الثنائى والثلاثى والرابعى والخماسى اثنا عشر مليون كلمة .

وطريقة الخليل فى الإحصاء طريقة دقيقة مبنية على علم الحساب ، فهو رأى أن الحروف التى تتألف منها الكلمات ثمانية وعشرون ، والأبنية أربع .

ففى الثنائى — مثلاً — ذكر أن عدد أبنيته ٧٥٦ وذلك ناتج من أن عدد الحروف الهجائية ٢٨ وتضرب فى ٢٧ وهى الكلمات التى تتركب مع الحرف الذى تبتدىء به الكلمة ، بعد أن يسقط هو نفسه فى التركيب مع جنسه ، فحرف الهمزة مع الباء فالتاء فالثاء حتى الياء يكون سبعة وعشرين كلمة ، فبضرب هذا العدد فى عدد الحروف ينتج ٧٥٦ منها المهمل ، ومنها المستعمل .

وهكذا صنع فى أبنية الثلاثى والرابعى والخماسى .

وطريقة الخليل هى الفائزة فى إحصاء مواد اللغة ، ولكن الرقم الذى ذكره ليس هو المستعمل ، بل فيه المهمل وهو كثير ، ولعله أكثر من المستعمل .

أما أتباع مدرسة الخليل فقد قصدوا إلى جمع اللغة ، ولكنهم أرادوا مع ذلك أن يسموا عملهم بجديد ، فوصف الأزهرى عمله في كتابه أنه « تهذيب اللغة » ونفى الغلط عنها وتصويب ما لحق بعض ألفاظها من تصحيف وتحريف .

أما ابن دريد فسمى كتابه « جمهرة اللغة » واسمه يدل على مقصده من تأليف معجمه ، فهو غنى بتدوين جمهور العربية ، أما غيره فيذكره عرضاً ، ومقصد ابن عباد في « المحيط » استيعاب المواد واستدراك ما أغفله غيره ممن سبقوه ، ومقصد القالى قريب من مقصد الأزهرى .

ولم يكن هؤلاء الأتباع صورة مكرورة للخليل ، بل بينه وبينهم نقاط يلتقون فيها ، وأوجه خلاف ، ونجد هذا الخلاف بين الأتباع أنفسهم .

إلا أن هذا الخلاف بين طريقة الرائد المتبوع والأتباع لا يعود إلى قصد المخالفة ، ولكنه التطور الذى نشهده بين المبتكر ومن يحىء بعده ، فيزيد الخلف على السلف زيادة لا تنقص من قدر الإمام الرائد ، ففضل الابتكار منسوب إليه ، وذكره مرفوع به .

ومن أوجه الخلاف بين رائد هذه المدرسة وأتباعها أن الخليل جعل كل كتاب فى معجمه قائماً على حرف من حروف الهجاء ، ومقسوماً إلى أربعة أبواب : الثنائى المضاعف ، والثلاثى الصحيح ، واللفيف ، وجعل الباب الرابع للرباعى والخماسى .

وكذلك صنع القالى ، إلا أنه أفرد لكل من الرباعى والخماسى باباً ، وعزل ما كان ثلاثياً معتلاً بحرف عن اللفيف ، وسماه الثلاثى المعتل .

والأزهرى الذى اتبع الخليل وسار على طريقه خطوة خطوة ، خالفه فى المهموز وأحرف العلة ، فالخليل حشد ما كان معتلا بحرف أو حرفين مع المهموز دون تفرقة ، وجعلهما فى باب اللفيف ، وأراد الأزهرى إفراد المهموز ، وعزله عن المعتل ، ولكنه لم يوفق كل التوفيق .

وصنع صاحب صنع الأزهرى فى باب اللفيف ، وافتتح الباب بالصحيح ، ثم ما كان مبدوءاً بالهمزة ، ثم ما كان أوله واواً ، ثم ما كان أوله ياء ، ولكن لم يتبع صاحب هذا النهج فى الثلاثى المعتل .

وأراد ابن فارس التخلص من مدرسة العين ، ولكنه لم يستطع أن يخرج عنها ، فقد تبع العين فى بعض الخطوط التى خطها الخليل ، منها : أن ابن فارس قسم معجمه بحسب الأبنية ، وهذا هو بعض قواعد كتاب العين .

واتبع أيضاً طريقة أبى عمرو الشيبانى بعد أن أدخل عليها كثيراً من الضبط والإحكام ، فهو سار فى ترتيب مواد معجميه الجمل والمقاييس على ترتيب حروف الهجاء ، وكان ابن فارس أكثر توفيقاً من أبى عمرو فى ترتيب الكلمات إذ راعى الحرف الثانى ، ولكن البرمكى كان أكثر منهما توفيقاً فى هذا السبيل .

ولعل أهم عيوب هذه المدرسة — باستثناء معجمى ابن فارس — وعورة الطريق لمن يريد أن ينتقل فى ربوعها ، وصدُّها الشادى عن منهلها كل الصدود ، وإجهادها العالم المتمكن الذى يقصدها مسترشداً مستفيداً ، وقد أشرنا فيما كتبناه عن كتاب العين إلى هذه العيوب ، فلا ضرورة إلى إعادتها فى هذه الكلمة .

مدرسة أبو عبيد

وهي التي تنتسب إلى أحد أئمة اللغة والأدب أبي عبيد القاسم بن سلام ، وقواعدها بناء المعجم على المعاني والموضوعات ، وذلك بعقد أبواب وفصول للمسميات التي تتشابه في المعنى أو تتقارب ، وكانت طريقة أبي عبيد من أولى المراحل التي بدأ فيها التأليف اللغوي ، ولكن بدأ كتباً صغيرة ، كل كتاب يؤلف في موضوع ، مثل كتاب الخيل وكتاب اللبن ، وكتاب العسل ، وكتاب الذباب ، وكتاب الحشرات ، وكتاب النخيل ، وخلق الإنسان ، وخلق الفرس .

وفضل أبي عبيد أنه جمع أشتات هذه الموضوعات والمعاني في كتاب كبير ، يضم أكثر من ثلاثين كتاباً مثل : خلق الإنسان ، والنساء ، واللباس ، والطعام والشراب ، والسماء والأرض ، والرحل والخيل ، والسلاح ومجموع ما تضم هذه الكتب الثلاثون سبعة عشر ألف حرف وأكثر .

وعرف العرب هذه الطريقة ابتكاراً ، كما عرفوا كل ضروب الترتيب المعجمي ، إلا أن غير العرب عرفوا هذا اللون من المعجمات قبل العرب بقرون كثيرة ، فقد عرفه اليونان ، وألف فيه يوليوس بولكس *yulius pollux* — وكان في القرن الرابع الميلادي — معجماً رتبته على المعاني والموضوعات .

ومما لا شك فيه أن أبا عبيد لم يقلد يوليوس بولكس ، بل ابتدعه ابتداءً ، ونقول : ابتدعه ، لأنه جمع أشتات الكتب الصغيرة المؤلفة بحسب المعاني والموضوعات ، وجمعها في غريبه ، وقسمها أبواباً سماها كتباً ، ثم أفرد

كل كتاب بموضوع حشد فيه من الكلمات ما يتفق مع العنوان ، فمثلاً حشد في كتاب النساء كل الكلمات الخاصة بهذا الجنس .

وهذه إلى هذه الطريقة أنه وجد كتباً كثيرة ألفها أعلام اللغة وعلماء العربية الذين وقفوا كل كتاب منها على موضوع خاص ، وجاء أبو عبيد ولم شمل هذه الكتب وجمعها وأطلق عليها « الغريب المصنف » .

ولما ألف أبو عبيد غريبه فتح للناس باباً في التأليف اللغوي والتأليف المعجمي لم يكن مطروحاً بجملته ، واتبع كثير من المؤلفين طريقته ، واتفق في اتباعه القدماء والمحدثون المعاصرون على السواء ، اتبعه من القدماء أبو الحسن الهنائي الأزدي — المعروف بكراع النمل — في كتابه « المنجد فيما اتفق لفظه واختلف معناه » . وقد روى في كتابه عن يعقوب ابن إسحاق عن علي بن عبد العزيز عن أبي عبيد القاسم بن سلام .

واتبعه ابن سيده في « المختص » وتوسع فيه كثيراً ، ومن المعاصرين مؤلفاً^(١) كتاب « الإفصاح » .

ومن عيوب هذه المدرسة أن كثيراً من الألفاظ تأتي لمعان كثيرة ، والباحث لا يعرف في أي الأبواب ذكر مطلبه ، وكثير من الصفات يشترك فيها الكائن الحي سواء أكان إنساناً أم حيواناً أم نباتاً ، بل هناك من الصفات ما يشترك فيه الكائن الحي والجماد .

وهذا مما يصعب على الباحث الحصول على مبتغاه .

(١) هما عبد الفتاح الصعدي وحسين يوسف موسى .

مدرسة الجوهري

هذه المدرسة تنتسب إلى الإمام المجدد الجوهري الذي ابتكر في التأليف المعجمي منهاجاً قرَّب اللغة إلى الباحثين ، ويسرَّ لهم السبيل إلى الكلمة التي يقصدون ، وهي خير من مدرستي العين والغريب المصنف ، لأنهما أسهل ، وهذا ما كثر أتباعها والمنتسبين إليها .

ومئات المعجمات والكتب اللغوية مرتبة ترتيب الجوهري مما يدل على عِظَم مدرسته .

ونظام هذه المدرسة ترتيب المواد على حروف المعجم باعتبار آخر الكلمة بدلاً من أولها ، ثم النظر إلى ترتيب حروف الهجاء عند ترتيب الفصول ، والأول سماه بابا ، والثاني فصلاً ، فكلمة « بسط » يُبحث عنها في باب الطاء لأنها آخر حرف فيها ، وتقع في فصل الباء لأنها مبدوءة بها .

ولم يقف إمام هذه المدرسة عند الحرف الأخير بل نظر إلى الحرف الأول ، ثم تجاوز ذلك إلى الحرف الثاني في الثلاثي ، والحرف الثالث في الرباعي ، والحرف الرابع في الخماسي ، حتى يكون الترتيب دقيقاً .

فإذا أراد باحث كلمة حجب وحجب وحذب وحرب وحزب وحسب ، لزمه أن ينظر إلى آخر الكلمة أولاً ؛ وهو الباء ، واسم ذلك الباب ، ويحشد فيه كل كلمة تنتهي بالباء ، فإذا وصل عند الباب نظر إلى أول الكلمة وهو الحاء ، واسم ذلك الفصل ، ويأتي بعد فصل الجيم الذي سبقته فصول الهمزة والباء والتاء والتاء ، ويجب أن يعرف نظام الجوهري

ليسهل عليه الوصول إلى الكلمة المقصودة ، وهذا النظام النظر إلى الحرف الثانى إذا كان اللفظ ثلاثيا ، فهو إذا أراد البحث عن كلمة « حنس » استخرج باب السين ثم فصل الحاء ، ثم نظر إلى الحرف الثانى وهو النون ، فإذا راعى ذلك تجاوز فى باب السين فصل الحاء وما وقع بينهما من حروف تسبق النون : تجاوز الهمزة والباء حتى الميم ، ليلتقى بالنون ، فيقف على الكلمة المقصودة « حنس » .

وهكذا فى الرباعى والخماسى .

فنظام مراعاة الحرف الثانى والثالث فالرابع ما يزال متبوعاً حتى عصرنا هذا من مؤلفى المعجمات ، وسيتبعه كل من يؤلف معجماً .

وقد فحص الجوهري طريقة الخليل ومن اتبعه فوجدوها مجعدة مُعَيَّنة تنبتُ بالباحث أو تبهر أنفاسه حتى يصل إلى مقصده ، ولعله اطلع على كتاب الجيم فلم تعجبه طريقته فى اتخاذ سبيل أوائل الكلمات ، وإغفال النظر إلى الثانى ، لأن فاء الكلمة يلحقها التغير وتنتقل من مكانها وتتأخر إذا سبقها حرف مزيد ، مثل الكاف فى كرم تصبح ثانيا إذا جاءت مزيدا ، فى مثل : أكرم ، وتكرّم أو مكرم ، ويحار الشادى — إذا كان غير عارف بالمجرد والمزيد — أين يجد هذه الكلمات ، أبحث عن أكرم فى باب الهمزة ، وعن تكرم فى باب التاء ؛ وعن مكرم فى باب الميم .

إنه لم يتخذ طريق الخليل لوعورته وصعوبة السير فيه ، ولم يأخذ بنظام أبى عمرو لأن فاء الكلمة غير ثابتة فى موضعها ، واتخذ له سبيلا جديداً غير معروف وغير متبوع ، هداه إليه علمه بالنحو والصرف ، ألا وهو أن لام

الكلمة لا تتغير ، بل ثابتة ، وإذا ضعفت انتقلت من باب إلى باب ،
مثل جلبب تنتقل من الثلاثي إلى الرباعي .

ولهذا بنى نظامه على آخر الكلمة تاركا أولها آخذا به في ترتيب
الفصول ، فالبحت في الصحاح في كرم وأكرم وتكرم ومكرم يقتضى أن
يفتح باب الميم ، ثم يقصد فصل الكاف ، وإذا كان الباحث يجهل الجرد
والمزيد وسعه أن يبحث في هذا الباب في الحرف الذى تبدأ بها الكلمة .
وفي هذا عناء له ، ولكنه أقل من عناء الباحث في كتاب العين وفي
كتاب الجيم .

ومن أشهر أتباع هذه المدرسة الإمام الصغاني في معجماته المعلمات
المشهورات : « التكملة والذيل والصلة » و « مجمع البحرين » و « العباب » ،
والفيروزبادي في « القاموس » وابن منظور في « اللسان » .

ومع أن الفيروزبادي أراد من تأليف القاموس منافسة الجوهري وإظهار
عجزه وقلة بضاعته فإنه لم يستطع أن يتشكر سبيلا جديدة ، بل اتبع الجوهري
في النظام والترتيب والمنهج .

ولم ننسب هذه المدرسة إلى الفارابي مع تقدمه ومع أن الجوهري يلتقى
معه في بعض النقاط ، لأن الفارابي ألمع إلماعا إلى بعض منهج الجوهري ،
ولكن الجوهري جاء بما وفى على الغاية ووصل فيه إلى النهاية ، وأحكم
النظام ، وضبط المنهج ، فانتسبت المدرسة إليه ، وهو بهذه النسبة جدير ، لأنه
إمامها الفاذ ، وعلمها الذى لا تخطئه العين مهما ابتعدت عنه .

مدرسة البرمكى

هى المدرسة التى اتخذت ترتيب المعجم على الحروف الهجائية ، مبتدئة بالهمزة منتهية بالياء مع مراعاة الحرف الثانى والثالث والرابع .

ورائد هذه المدرسة إمام اللغة والعربية العظيم أبو عمرو الشيبانى ، ولكنه لم يراع فى الترتيب إلا الحرف الأول ، أما ما بعده فلم يُراعِه ، فهو يذكر فى باب الهمزة كل حرف مبدوء بها دون أن يراعى ما بعدها من الحروف فى ترتيب المواد ، فهو قد ذكر فى باب الهمزة هذه الألفاظ على هذا الترتيب :

الأوق

الألب

المأفول

الأفق

الأزوح

المأموم

وآخر كلمة ذكرها فى هذا الباب « الإدة » مع أن حقها أن تذكر قبل أول كلمة ذكرها فى معجمه .

ولهذا لم تنسب المدرسة إليه لأنه لم يحكم النظام ، بل التزم أول الكلمة دون أن ينظر إلى ما بعدها ، أما البرمكى فقد نظر إلى الحرف الذى تبتدىء به الكلمة ، وراعى الحرف الثانى إذا كان اللفظ ثلاثياً ، والثالث إذا كان رباعياً ، والرابع إذا كان خماسياً .

وسهل له هذا أن الجوهري راعى هذه القاعدة ، ومع هذا فإن البرمكى

أجهد نفسه في ترتيب المواد ، لأنه أخذ الصحاح ورتبه ترتيباً جديداً حيث جعله على أوائل الحروف ، مما عده العلماء المتقدمون إغراباً في الترتيب .

وطريقة البرمكي أنه أخذ من الصحاح من كل باب وفصل الحرف الذي يريده ، ففي باب الهمزة أخذ منه فصل الهمزة ، ومن باب الباء والياء والحاء والجيم حتى الياء فصل الهمزة ورتبها على أوائل الحروف مراعيًا الحرف الثاني والثالث ، ثم انتقل إلى باب الباء وصنع فيه ما صنع في الهمزة حتى انتهى إلى آخر حرف في حروف الهجاء .

وننقل للقارئ رموس المواد من باب الهمزة ليرى القارئ طريقة البرمكي ، وهي الطريقة المتبعة في التأليف المعجمي الحديث .

ا	ابل	اث	اح	اذن
آ	ابن	اثر	اخذ	اذا
اب	ابه	اثف	احن	ارب
ابت	ابو	اثل	اخذ	ارث
ابث	ابي	اثم	اخر	ارج
ابد	اتب	اثو	اخو	ارخ
ابر	اتت	اجأ	ادب	ارر
ابر	اتل	اجج	ادد	ارز
ابس	اتم	اجر	ادر	ارش
ابض	اتن	اجص	ادل	ارض
ابط	اته	اجل	ادم	ارط
ابغ	اتو	اجم	ادو	arf
ابق	اتى	اجن	اذ	ارق

امن	الب	اطط	اسك	ارك
امه	الت	اطل	اسل	ارم
ان	الخ	اطم	اسم	ارن
انب	الس	افخ	اسن	ارو
انت	الف	افد	اسو	ازب
انث	الق	افر	اشب	ازج
انع	الك	افف	اشر	ازح
انس	الل	افق	اشش	ازد
انض	الم	افك	اشف	ازر
انف	اله	افل	اصد	ازز
انق	الا	افن	اصر	ازف
انك	الى	اقر	اصص	ازق
انن	ام	اقط	اصف	ازل
انه	امت	اقن	اصل	ازم
انا	امج	اقه	اصطبل	ازو
انى	امد	اكد	اصو	اسب
او	امر	اكر	اضخ	است
اوب	امس	اكف	اضض	اسد
اود	امع	اكك	اضم	اسر
اور	امل	اكل	اضو	اسس
اوز	امم	اكم	اطر	اسف

اوس	اون	اهل	ايض	اين
اوف	اوه	اهن	ايك	ايه
اوق	اوو	ايد	ايل	ايا
اول	اهب	اير	ايم	اياه
اوم	اهق	ايس	ايمآ	اى

ويدل هذا الترتيب على أن البرمكى أول من رتب المواد ترتيباً محكماً سبق به أصحاب المعجمات الحديثة كلها ، وسبق الزمخشري الذى نسبت إليه هذه الطريقة وهما ، فالزمخشري تأخر ميلاده عن البرمكى بأكثر من قرن ونصف قرن لأنه توفى سنة ٥٣٨ هـ ، والبرمكى كان حياً سنة ٣٩٧ هـ وهى السنة التى انتهى فيها من تأليف معجمه ، وسبق كل من رتب المعجمات على أوائل الحروف ، ونقلنا رءوس المواد من باب الهمزة لنعطى الصورة الدقيقة لمنهجه الدقيق الذى لم يأت من بعده فيه بجديد يذكر ، بل كلهم سار على طريقه وتأسى خطاه .

فهو صاحب هذه المدرسة وإمامها الذى لا ينافر ولا ينازع .

الصِّحَاح

الجوهري

قال ياقوت : « كان الجوهري من أعاجيب الزمان ذكاء وفطنة ، وأصله من بلاد الترك من فاراب ، وهو إمام في علم اللغة والأدب ، وخطه يضرب به المثل في الجودة ، ولا يكاد يفرق بينه وبين خط أبي عبد الله ابن مقلة ، وهو مع ذلك من فرسان الكلام والأصول ، وكان يؤثر السفر على الحضر ، ويطوف الآفاق ، واستوطن الغرب على ساق » .

ورحل الجوهري إلى العراق — وهو يومئذ يزخر بأفذاذ العلماء في كل فن — فتلقى علم العرب من شيخين عظيمين من شيوخ العربية هما : أبو علي الفارسي (٢٨٨ — ٣٥٦ هـ) وأبو سعيد السيرافي (٢٨٤ — ٣٦٨ هـ) وأحب أن يستزيد من العلم والمعرفة فسافر إلى الحجاز ، وشافه العرب العاربة في ديارهم — كما ذكر ذلك في مقدمة الصِّحاح — وطوَّف بلاد ربيعة ومضر ، ثم عاد إلى خراسان وتطَرَّق الدامغان^(١) ، فأنزله أبو علي الحسن ابن علي — وهو من أعيان الكتّاب — عنده وأكرمه ، وأخذ منه وسمع عنه ، ثم مضى إلى نيسابور وأقام بها على التدريس والتأليف وتعليم الخط وكتابة المصاحف والدفاتر حتى انتقل إلى ربه تاركاً آثاراً جميلة رائعة تسلكه في عداد عظماء من خدموا العربية وأفنوا أعمارهم في سبيلها .

وَأَلَفَ الجوهري صِحاحه في نيسابور ، وصنفه لأبي منصور عبد الرحيم

(١) الدامغان : بلد كبير بين الري ونيسابور .

ابن محمد البيشكى^(١) ، وكان البيشكى أديباً واعظاً أصولياً من أصحاب أبي عبد الله الحاكم بن عبد الله^(٢) ، والبيشكى يعد من ذوى الأتباع ، وله تلاميذ ومدرسة وأصحاب ، وكان يدرّس وينظر ، وينظم الشعر ويكتب النثر ، وتوفى فى جمادى الأولى سنة ٤٥٣ هـ^(٣)

وفاة الجوهري

اعترت الجوهري — رحمه الله — وسوسة فمضى إلى الجامع القديم بنيسابور وصعد إلى سطحه محاولاً الطيران ، ويروى أنه قال بعد أن صعد السطح^(٤) : أيها الناس ، إنى عملت فى الدنيا شيئاً لم أسبق إليه^(٥) ، فسأعمل للآخرة أمراً لم أسبق إليه ، وضم إلى جنبيه مصراعى باب وتأبطهما بحبل ، وزعم أنه يطير ، فألقى بنفسه من أعلى مكان فى الجامع فمات .

قال ياقوت : « بحثت عن مولده ووفاته بحثاً شافياً فلم أقف عليهما^(٦) وقد رأيت نسخة من الصحاح عند الملك العظيم بخطه ، وقد كتبت سنة ست وتسعين وثلاثمائة » .

(١) بيشك : بكسر الباء : قصبة كورة رخ من نواحي نيسابور .

(٢) هو محمد بن عبد الله بن حمدويه بن نعيم الضبي النيسابورى الشهير بالحاكم ، ويعرف بابن البيع أبو عبد الله (٣٢١ — ٤٠٥ هـ) من أكابر حفاظ الحديث . والمصنفين فيه ، أخذ عن أئمة شيوخ ، وولى قضاء نيسابور سنة ٣٥٩ هـ ، وصف كتباً كثيرة ، ويعد من أعلم الناس بصحيح الحديث وتمييزه عن سقيمه (طبقات الديكى) .

(٣) معجم الأدباء ٦ : ١٦٣ .

(٤) تاج العروس (المقدمة ص ٢٦) .

(٥) يريد كتاب الصحاح وما ابتدع من نظام غير مسبوق إليه فى تأليفه .

(٦) البلغة ١٩٥ .

وقال ابن فضل الله في المسالك : « مات سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة
وقيل : في حدود الأربعمائة^(١) » .

وفي فقه اللغة : ولد الجوهري سنة ٣٣٢ هـ وتوفي سنة ٣٩٣ هـ^(٢) .

وفي دائرة المعارف البريطانية ومقدمة قاموس إدواردلين : توفي سنة ٣٩٨ هـ .

الصحيح

إذا كان الخليل أول من ألف معجماً في العربية ، ومهد السبيل لمن
بعده ، فإن الشيخ أبا نصر إسماعيل بن حماد الجوهري صاحب « تاج
اللغة وصحاح العربية » المعروف بالصحيح يليه في الشهرة ، ويفضل الصحيح
العين في أمور كثيرة : بفضل في الترتيب ، وسهولة الانتفاع به ، وحسن المأخذ
ولين القياد ، ورقة الحاشية ، أما العين فلا يرود صعبه إلا لعالم متمكن ولا
يفيد منه القارئ إلا إذا كان لديه مفتاح (فهرس) يهدي إلى الكلمة
المقصودة ، والصحيح خير المعاجم التي سبقته أو عاصرتة .

ويعد الجوهري — دون منازع — أول من وجه تأليف المعجم العربي
هذه الوجهة السهلة الحسنة ، وحمل من بعده على أن يسيروا على منهجه ،
ويتركوا طريقة الخليل حتى ظهر من أئمة اللغة من اختطوا طريقة ترتيب
المواد حسب التهجى الحديث . وفيما يأتي من الصفحات تفصيل مزايا
الصحيح ومنهجه وطريقته وخصائصه .

(١) المصدر السابق .

(٢) مقدمة فقه اللغة ، كتبها أحد الآباء اليسوعيين الذي نشر فقه اللغة للثعالى ،

وفقه اللغة للدكتور وافي ص ٢٧٩ .

ضبط اسم الصحاح

اختلف العلماء في ضبط الصحاح ، أهو بكسر الصاد أم بالفتح ؟ ولم يرد عن المؤلف ضبطه ، وهو صالح أن ينطق بالكسر أو بالفتح ، ولا لوم على الناطق بأحدهما .

جاء في المزهر عن أبي زكريا الخطيب التبريزي : يقال . بكسر الصاد ، وهو المشهور ، وهو جمع صحيح كظريف وظراف ، ويقال : بالفتح ، نعت مفرد مثل صحيح ، وقد جاء فعال ، بفتح الفاء لغة في فعيل ، كصحيح وصحاح ، وشحيح وشحاح ، وبرىء وبراء .

وأنشد بعضهم بحضور الشيخ محمد بن أبي الحسن البكري الصديقي المصري قول الشاعر :

لله قاموس يطيب وروده أغنى الورى عن كل معنى أزهرى
نبذ الصحاح بلفظه والبحر من عاداته يلقى صحاح الجوهري
فكسر الصاد من صحاح ، فقال الأستاذ : الصحاح لا تكسر ،
فتعجب كل من كان بالمجلس من هذا الجواب مع سهولة اللفظ والتورية ،
ويروى عن شيخ الإسلام الطبرلاوى أنه قال : الصحاح ؛ بالفتح أفصح ،
وأكثر استعمالاً ، وقال البدر الدماميني في تحفة الغريب : هو بفتح الصاد ؛
اسم مفرد بمعنى الصحيح ، والجارى على السنة كثير كسرهما على أنه جمع
صحيح ، وبعضهم ينكره ، قال الإمام المحقق ابن الطيب ما معناه : حيث
لم يرد عن المؤلف في تخصيص أحدهما بالسند الصحيح ما يصار إليه ولا يعدل
عنه ، فكلا الضبطين صحيح خلافاً لمن أنكر الفتح ولمن رجحه على الكسر .
والمشهور الكسر . ونذر أن ينطق أحد في زماننا بالفتح .

آراء العلماء فى الصحاح

أتجه علماء اللغة من مؤلفى المعجمات وغيرها إلى العناية بالصحاح ، والاعتماد عليه ، والإعجاب به ، والثناء الجم المستطاب عليه ، وعلى سبيل المثال — لا الحصر — نشير إلى بعض هذا القدر والإعجاب .

قال الثعالبي فى اليتيمة ^(١) : وله كتاب الصحاح فى اللغة ، وهو أحسن من « الجهرة » وأوقع من « تهذيب اللغة » وأقرب متناولاً من « مجمل اللغة » .

وفيه يقول أبو محمد إسماعيل بن محمد النيسابورى ، وعنده الكتاب بخط مؤلفه :

هذا كتاب الصحاح سيّد ما صُنّف قبل الصحاح فى الأدب
يشمل أنواعه ويجمع ما فرّق فى غيره من الكتب

وقال الباخرزى صاحب الدمية ^(٢) :

« وهذا الكتاب هو الذى بأيدى الناس اليوم ، وعليه اعتمادهم ، أحسن تصنيفه ، وجوّد تأليفه ، وقرب متناوله ، وأبرّ ^(٣) من ترتيبه على من تقدمه ، يدل وضعه على قريحة سالمة ، ونفس عالمة ، فهو أحسن من الجهرة ، وأوقع من تهذيب اللغة ، وأقرب متناولاً من مجمل اللغة ، هذا مع تصحيح

(١) يتيمة الدهر ٤ : ٢٨٩ .

(٢) الدمية (ترجمة الجوهري) . وانظر معجم الأدباء (٦ : ١٥٥) .

(٣) أبر : غلب وزاد . وفى الأصل آثر .

فيه في مواضع عدة أخذها عليه المحققون ، وتتبعها العالمون ، ومن ما ساء قط ، ومن له الحسنى فقط ؟ فإنه — رحمه الله — غلط وأصاب ، وأخطأ المرمى وأصاب ، كسائر العلماء الذين تقدموه ، أو تأخروا عنه ، فإنى لا أعلم كتاباً سُمِّ إلى مؤلفه فيه ، ولم يتبعه بالتتبع من يليه .

ويقول القفطى^(١) :

« وله كتاب الصحاح في اللغة ، أكبر وأقرب متناولاً من مجمل اللغة ، وهذا كتاب الصحاح قد سار في الآفاق ، وبلغ مبلغ الرفاق ، ولما دخلت منه نسخة إلى مصر نظرها العلماء فاستجودوا مأخذها وقربه ، ولحوا فيها أوهاماً كثيرة انتدبوا لإصلاحها ، وزادوا فيها بعض ما لعله أخلَّ به من ألفاظ لغوية ؛ الحاجة داعية إليها ، فلا شبهة في أنه نقلها من مُصَنِّفٍ فصَحَّفَ ، وانفرد في تصريف الكلمة برأيه فخرَّفَ » .

ويقول التبريزى^(٢) :

« وكتاب الصحاح هذا حسن الترتيب^(٣) ، سهل المطالب لما يراد منه ، وقد أتى بأشياء حسنة ، وتقاسير مشكلات من اللغة ، إلا أنه مع ذلك فيته تصحيف لا يُشَكُّ في أنه من المصنِّف لا من الناسخ ؛ لأن

(١) إنباه الرواة (١ : ١٩٥) .

(٢) كشف الظنون في رسم الصحاح .

(٣) أشار بعضهم إلى طريقة البحث في الصحاح نظماً فقال :

إذا رمت كشفاً في الصحاح للفظه فأخبرها للباب والبدء للفصل
ولا تعتمد في بدئها وأخيرها فزبدأ ولكن اعتمادك للأصل
وقال آخر :

إن شئت كشفاً إلى تحقيق مسألة من الصحاح فلا يعوزك إسهاب
فالفصل خذه مضافاً نحو أوله ونحو آخره فليعنعك الباب

(١٥)

الكتاب مبني على الحروف ، ولا تخلو هذه الكتب الكبار من سهو فيها أو غلط ، غير أن القليل منه إلى جنب الكثير الذي اجتهدوا فيه ، وأتعبوا أنفسهم في تصحيحه معفو عنه .

وقال ابن منظور مؤلف « لسان العرب » في مقدمة معجمه الكبير :
« ولم أجد في كتب اللغة أجمل من « تهذيب اللغة » لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهرى ، ولا أكمل من « المحكم » لأبي الحسن بن إسماعيل ابن سيده الأندلسي — رحمهما الله — وهما من أمهات كتب اللغة على التحقيق ، وما عداهما بالنسبة إليهما ثنيات الطريق ، غير أن كلا منهما مطلب عسر المهلك ، ومنهل وعمر المسلك ، وكأنَّ واضعه شرع للناس مورداً عذاباً وحلاً لهم عنه ، وارتاد لهم مرعى مريعاً ومنعهم منه ، قد آخر وقدم ، وقصد أن يعرب فأعجم ، فرّق الذهن بين الثنائى المضاعف والمقلوب ، وبدّد الفكر باللفيف والمعتلّ والرباعى والخماسى فضاع المطلوب ، فأهمل الناس أمرها ، وانصرفوا عنها ، وكادت البلاد — لعدم الإقبال عليهما — أن تخلو منهما ، وليس لذلك سبب إلا سوء الترتيب وتخليط التفصيل والتبويب ، ورأيت أبا نصر إسماعيل بن حماد الجوهري ، قد أحسن ترتيب مختصره ، وشهره بسهولة وضعه ، فحفّ على الناس أمره فتناولوه ، وقرب عليهم مأخذه فتداولوه وتناقلوه .

وقال السيوطى^(١) ؛ بعد أن سرد طائفة من كتب اللغة المشهورة :
« وغالب هذه الكتب لم يلتزم فيها مؤلفوها الصحيح بل جمعوا فيها ما صح وغيره ، وينبهون على ما لم يثبت غالباً . وأول من التزم الصحيح

(١) المزهري ١ : ٩٧ .

مقتصرًا عليه : الإمام أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري ، ولهذا سَمِّي كتابه الصحاح .

ثم قال : « وكان في عصر صاحب الصحاح ابنُ فارس ، فالتزم أن يذكر في مجمله الصحيح . قال في أوله : قد ذكرنا الواضح من كلام العرب ، والصحيح منه دون الوحشيِّ والمستنكر . وقال في آخر الجمل : قد توخيت فيه الاختصار ، وآثرت الإيجاز ، واقتصرت على ما صح عندي سماعًا ، ومن كتاب صحيح النسب مشهور ، ولولا توخِّي ما لم أشكك فيه من كلام العرب لوجدت مقالا . »

وقال صاحب القاموس — وهو أحد منافسي الجوهري وخصومه — في خطبة كتابه :

« لما رأيت إقبال الناس على صحاح الجوهري ، وهو جدير بذلك ؛ الخ . » إلى أن يقول : « واختصت كتاب الجوهري من بين الكتب اللغوية — مع ما في غالبها من الأوهام الواضحة والأغلاط الفاضحة — لتداوله واشتهاره بخصوصه ، واعتماد المدرسين على نقوله ونصوصه . »

وقال الزبيدي شارح القاموس في مقدمة التاج^(١) :

« أول هذه المصنفات وأعلاها عند ذوى البراعة وأغلاها : كتاب الصحاح للإمام الحجة أبي نصر الجوهري ، وهو عندي في ثمان مجلدات بخط ياقوت الرومي ، وعلى هوامشه التقييدات النافعة لأبي محمد بن برى وأبي زكريا التبريزي ، ظفرت به في خزانة الأمير أربك . »

(١) التاج (المقدمة ٣ — ٤) .

وقال ابن الطيب الفاسي^(١) محشى القاموس ؛ وقد انتصر للجوهري :
« إن الجوهري خطيب المنبر الصرفي ، وإمام الحراب اللغوي » .
وقال أيضاً : « إن الله قد رزق الجوهري شهرة فاق بها كل من تقدمه
ومن تأخر عنه ، ولم يصل شيء من المصنفات اللغوية في كثرة التداول
والاعتماد — على ما فيه — إلى ما وصل إليه كتاب الصحاح ، وإن فيه من الفوائد
المهمة التي أهملها صاحب القاموس كثيراً من القواعد الصرفية ، والشواهد المحتاج
إليها في العلوم الشرعية والأدبية » .

وقال ابن برى : « إن الجوهري أنحى اللغويين » .

وقال أديب الشام العلامة عبد الغنى بن إسماعيل الكنانى المقدسى :
من قال قد بطلت صحاح الجوهري لما أتى القاموس فهو المفتري
قلت : اسمه القاموس ، وهو البحر إن يفخر فمعظم فخره بالجواهر
وذلك رد على من قال :

مُذْ مد مجد الدين فى أيامه من بعض أبحر علمه القاموسا
ذهبت صحاح الجوهري كأنها سحر المدائن حين ألقى موسى

وقال آخر :

مولاي إن وافيتُ بابك طالباً منك الصحاح وليس ذاك بمنكر
البحر أنت ، وهل يلام فتى أتى للبحر كى يلقى صحاح الجواهر

(١) هو أبو عبد الله محمد بن الطيب بن محمد الفاسى المولود بفاس سنة ١١١٠ هـ
والتوفى بالمدينة المنورة سنة ١١٧٠ هـ [مقدمة تاج العروس] .

وقال آخر :

نقل الأراك بأن ربيعة ثغره من خمره مرجت بماء الكوثر
قد صح ما نقل الأراك لأنه يرويه حقاً عن صحاح الجوهر

وغير هذا كثير مفرق في الكتب ، واكتفينا بنقل ما نقلناه لنشير
إلى اهتمام العلماء البالغ بصحاح الجوهرى حتى يقف القارئ على ما لقي
الصحاح وصاحبه من التجلة والتكريم اللذين صاحبهما حتى الآن .

وإن الدراسة التي قمنا بها للصحاح ، والفصل الذى عقدناه تحت عنوان
« أثر الصحاح » يبينان بوضوح مدى ما لقي الصحاح وصاحبه من قدر
العلماء وإكبارهم واهتمامهم ؛ من عرب وغير عرب ، مسلمين وغير مسلمين ،
ومدى ما بعثه من ألوان النشاط العظيم فى محيط العربية وعلومها ، وما كان له
من أثر بارز مشهود فى توجيه التأليف المعجمى ، ويدلان على أنه كان
— وما يزال — مبعث نشاط كبير فى محيط اللغة وتصنيف المعجمات ،
وحسبه أن المشتغلين بالتأليف اللغوى جعلوه معتمداً لهم ، بل جعله بعضهم
كل همه ومرجعه .

الصحاح والمعاجم الأخرى

المعجمات التى ألفت قبل الصحاح لم تكن فى درجة الصحاح ، فالعين
كان ناقصاً — كما يزعمون — وأكملها بعض طلبة الخليل فغلطوا فيما
أضافوه إليه كثيراً ، مما حمل العلماء إلى الشك فيه وإنكار نسبته إليه
ربأً بالخليل أن يُنسب إليه خطأ لم يصدر منه . وكتاب الجيم لأبى عمرو

الشيبياني معجم مختصر ، ومعجم الغريب المصنف لأبي عبيد القاسم ابن سلام الذى فيه أكثر من سبعة عشر ألف حرف ككتاب الجيم فى الاختصار وإغفال الاشتقاق ؛ أما الجهرة لابن دريد فقد جاءت فيه مواد مفتعلة لا أصل لها فى العربية ، وترتيب موادها صعب لا يفيد الباحث ولا يعينه فى الوصول إلى ما يقصد إلا بعد جهد جهيد ؛ وديوان الأدب للفارابى — خال الجوهري — معجم جيد ، ولكنه لا يرتفع إلى درجة الصحاح لما فيه من تعقيد وصعوبة ، وإغفاله العناية بالاشتقاق — مثل أبى عمرو الشيباني فى الجيم — وإهماله تحديد المواضع والأمكنة ، وتركه تفسير كثير من المفردات ، وتشتيت شمل المادة الواحدة باختلاف صيغها ، وإهماله الحروف والمبنى للمجهول ، وتهذيب اللغة للأزهري كالجهرة فى المأخذ ، إلا أن الأزهري غير متهم بالافتعال . والبارع للقالى معجم ممتاز ولكنه غير مشهور ولا متداول ، وفيه مأخذ كثيرة أهمها : التكرار المريب لما يفسره وللشواهد التى يحشدها ، بل أنه ينسى أحيانا فيعيدها هى نفسها ، وطريقة ترتيبه تشبه طريقة الخليل إلا بعض تغيير يسير ، وهى طريقة مجعدة متعبة مغلقة الأبواب أمام الباحث .

والمعجمات الأخرى لم تخل من عيوب المعجمات التى ذكرناها .

منهج الصحاح

ومع أن الصحاح ألف فى عصر عظمت فيه العناية باللغة ، وازدخر بأئمة العربية الذين حرصوا على جمع اللغة وضبطها ، وشرح معانى مفرداتها ، فإن الجوهري كان أبرز أولئك الأئمة ؛ ومرد ذلك أن صحاحه كان آية فى

فن التأليف المعجمي ، سبق غيره في هذا السبيل بابتكاره منهجا جديدا لم يُسبق إليه ، منهجا قرَّب اللغة إلى الباحثين ، ومهد الطريق للشُّدَّة .

وهذا النظام الجديد غير المعروف جعل للصحاح المنزلة الرفيعة التي تفرَّد بها بين المعجمات التي سبقته أو عاصرتة ، وجعل الصحاح نفسه يمضي في طريق الشهرة وسيرورة الذكر قُدُما ، ومهدَّ له الطرق حتى كثر تداوله واعتماد الناس عليه .

ولم يكن النظام الجديد وحده الذي حمل الناس على إكبار الصحاح واتخاذ مرجع اللغة الأول ، بل أغراهم به أن المؤلف أخذ نفسه بما لم يأخذ غيره به نفسه ، فالتزم إيراد ما صحَّ عنده رواية ودراية وسماعا مشافهة من أصحاب اللغة الأصلاء .

قال السيوطي : « وغالب هذه الكتب لم يلتزم فيها مؤلفوها الصحيح ، بل جمعوا فيها ما صح وغيره ، وينبهون على ما لم يثبت غالبا ، وأول من التزم الصحيح مقتصرًا عليه : الإمام أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري ، ولهذا سمي كتاب الصحاح^(١) » .

أما النظام الجديد الذي ابتكره الجوهري وأشار إليه في مقدمته عندما ذكر أنه أودع كتابه ما صح عنده من هذه اللغة على ترتيب لم يسبق إليه ؛ وتهذيب لم يُغلب عليه ، فهو أنه سار على نهج جديد يعد فتحاً في تأليف المعجم العربي سحر الناس وبهرهم .

(١) المزهري ١ : ٧٩ .

ترك الجوهري طريقة الخليل التي اتبعها في العين عندما رتبها على مخارج الحروف ؛ وأغفل نظامه في ذكر الكلمة وما ينشأ عنها بالقلب ، يذكر الكلمة ومقلوباتها في موضع واحد ، كأن يذكر « الضرم » في كتاب الضاد ، ويتبعها بذكر كل كلمة تتكون من « ض ر م » بقلبها إلى مختلف التراكيب ، فيذكر الضمر ثم الرضم ثم المضمر ثم الرمض ثم المرض في موضع واحد ، فإن أهمل شيء من أنواع القلب أشار إلى إهماله^(١) ، وترك طريقة كتاب الجيم لأبي عمرو الشيباني الذي رتب مواده على الحروف الهجائية دون مراعاة الحرف الثاني والثالث .

وترك تقسيم الكتاب إلى أبواب بحسب أبنية الألفاظ أسماء أو أفعالا ؛ كما ترك طريقة أبي عبيد في « الغريب المصنف » وترك كل منهج من مناهج من تقدموه واتخذ منهجاً جديداً ابتكره .

ولئن اتهم بعض ذوى رأى الخليل باقتباس طريقته في ترتيب العين على مخارج الحروف من طريقة اللغة السنسكريتية في ترتيب حروف هجائها على مخارج الحروف ، أو أن طريقة الخليل مسبوقه فإن الجوهري سابق متفرد ؛ ولا شك في سبقه وتفرد ، لأنه ابتدع نظاماً خاصاً بكرة سبق عليه غيره ولحق به من جاء بعده .

ونظام الجوهري : ترتيبه الصحاح على حروف المعجم ، واعتبار آخر حرف في الكلمة بدلا من الأول ، وجعله الباب للحرف الأخير ، والفصل الأول ، مثل : شرف ؛ يبحث عنها في باب الفاء فصل الشين ، ويذكر

(١) شرح خطبة الكافي في اللغة .

فى الباب كل كلمة فى اللغة وصلت إىله وصحت لده عروبتها الصحيحة على أن تكون منتهية بحرفه ، ويوزع الكلمات على الفصول ؛ وهى ثمانية وعشرون فصلا بعدد حروف المعجم كالأبواب ، إلا أن بعض الأبواب تقل فصولها عن ثمانية وعشرين ، وهو الأكثر ، فباب الراء — مثلا — ينقص منه فصل اللام لأنه ليس فى العربية كلمة أولها لام وآخرها راء ، وأقل الأبواب فصولا باب الظاء ، فإن فصوله ستة عشر .

ويحشد فى الباب كل الكلمات التى تتفق فى الحرف الأخير ، فباب الألف المهموزة يذكر فيه الكلمات التى تنتهى بهمزة مثل : أجأ ، بأأ ، تأتأ ، ثأتأ ، جأجأ ، وهكذا حتى ينتهى إلى يأيا ، وبهذه المادة ينتهى الباب كله ، ويسمى المادة التى تبدأ فى الباب بالحروف التى تبتدىء بها فصلا ، فمادة « أجأ » فى فصل الألف المهموزة ، و « بأأ » فى فصل الباء ، و « تأتأ » فى فصل التاء ، و « ثأتأ » فى فصل الثاء ، وهكذا يسير حسب ترتيب الحروف المعروف .

وقد ذكر بعض العلماء أن سبب اختيار الجوهري — أو من تبعه — ترتيب معجمه على أواخر الكلمات : التيسير على الشعراء والكتّاب النظم والنثر ، فالكتاب كانوا يلتزمون السجع ، والشعراء القوافى ، فهم فى حاجة إلى الكلمات باعتبار أواخرها ، أو أن غلبة السجع أو نظم القوافى هدت مؤلفى المعجمات — وعلى رأسهم الجوهري — إلى هذه الطريقة .

ونحن لا نقبل هذا رأى ونراه غير علمى ، وإذا صح هذا السبب فما أهون شأن مؤلفى المعجمات ، وما أضال القصد ! .

والذى نراه أن منهج الجوهري في ترتيب صحاحه باعتبار أواخر الكلمات غير مقصود منه تبشير الأمر على الشعراء والكتّاب ، حتى يجدوا السجع وكلمات القوافي دون عناء ، بل أراد الجوهري أن يؤلف معجماً للناس جميعاً دون أن ينظر إلى طائفة واحدة يُؤثرُها بعمله العظيم .

أما المنهج الذى اتبعه فهو من ابتكاره ، وهداه إليه علمه الواسع بالصرف واشتغاله به ، فهو قد رأى أن ميزان الكلمة الفاء والعين واللام ، والتغيير يلحق ما قبل لام الكلمة ، وتنقلب « فعل » بين أحوال كثيرة ، وتأتى فى صور شتى ؛ وهى : أَفَعَلَ وَفَعَلَ وَفَاعَلَ وَانْفَعَلَ وَافْتَعَلَ وَافْعَلَ وَتَفَاعَلَ وَتَفَعَّلَ وَاسْتَفَعَلَ وَافْعَوْعَلَ وَافْعَوَّلَ وَافْعَالًا .

وهذه — هى — أوزان مزيد الفعل الثلاثى المجرد ، ويظهر منها أن التغيير تناول الفاء والعين ، فتارة ، يتقدم الفاء حرف ، وتارة حرفان ، وتارة ثلاثة ، أما العين فقد تنفصل عن الفاء وقد تنفصل عن اللام ، وقد تضعف . أما لام الكلمة فثابتة لا تتغير مهما اختلفت صورة الكلمة إلا فى حالات قليلة ، ومتى لحقها التغيير أو زيد بعدها حرف أو حرفان فإن الكلمة تنتقل إلى أوزان أخرى ، ولا تعتبر من الثلاثى ، بل تصير رباعية أو خماسية^(١) .

رأى الجوهري أن الفاء والعين لا تثبتان فى موضع ؛ ولا تبقيان على حال ، أما اللام فثابتة ، فَتَرَكْ ترتيب الكلمات على أوائل الحروف لأن فيه مَتْنِيَّة الباحث الذى لا يعرف التصريف والمجرد والمزيد ، فكلمة « أَكْرَمَ » وَاسْتَنْوَقَ وَتَرَهَّلَ وَمَحَجَّة ؛ تضلل الباحث الشادى ، بل رأيت بعض العلماء يضلون فى الكشف عن مواضعها من المعجم ، ولا يعرف فى أى حرف هى .

(١) ليس هذا تغييراً فى لام الكلمة ، فهى ثابتة لا تتغير ، وإن زيد بعدها حرف فتعتبر من جنسها . وأما اتصال الضمائر بآخر الكلمة فلا يغير من الأمر شيئاً .

أما طريقة الجوهرى فأمونة هادية ؛ فيجد الباحث « أكرم » وكل ما تفرّع من مادة « كرم » فى باب الميم ، واستنوق فى باب القاف ، وترهل فى باب اللام ، ومحجة فى باب الجيم ، وإذا كان الباحث عارفاً بالمجرد والمزيد ؛ فإنه سيجد أكرم فى فصل الكاف، واستنوق فى فصل النون ، وترهل فى فصل الراء ، والمحجة فى فصل الحاء .

وأعتقد أن ما ذكرته هو الذى حمل الجوهرى على اتباع منهجه الذى ابتكره ابتكاراً ، أما السبب الذى رآه بعض العلماء — وذكرناه — فهو رأى لا قيمة له علمياً .

وأعانه على هذا الإبداع فى نظامه علمه الواسع بالنحو والصرف حتى قيل فى وصفه : إنه « خطيب المنبر الصرفى وإمام الحراب اللغوى^(١) » وإنه « أنحى اللغويين^(٢) » .

وأفرد لكل حرف من حروف الهجاء باباً خاصاً به إلا الواو والياء فجمعهما فى باب واحد ، ولهذا قدم الهاء على الواو ليسعه جمع الواو والياء فى باب ، وختم المعجم بالألف اللينة ، وهى غير المهموزة وغير المنقلبة عن واو أو ياء ، ويذكر فى الفصول الكلمات الثنائية أو الثلاثية أو الرباعية ، دون أن يرتب ذلك على نسق واحد دائماً .

ونظر فى ترتيبه المواد إلى المجرد مُعْفِلاً أحرف الزيادة أو الحرف المبدل

(١) كلمة ابن الطيب الفاسى (مقدمة تهذيب الصحاح ٤٤) .

(٢) كلمة ابن برى (مقدمة تهذيب الصحاح ٤٥) .

من حرف آخر وفقاً لقواعد الصرف ، فإذا أردنا البحث عن « المحجة » و « الحاجة » جردنا الأول من المزيد وأعدنا الثاني إلى أصله ، فنبحث عن « المحجة » في حجب ، وعن « الحاجة » في حوج باب الجيم فصل الحاء .

وقد أشار بعضهم إلى طريقة البحث في الصحاح نظماً فقال :
إذا رمت كشفاً في الصحاح للفظه فآخرها للباب والبدء للفصل
ولا تعتمد في بدئها وأخيرها مزيداً ، ولكن اعتمادك للأصل

وأخذ الجوهري بنظام آخر جديد في محيط التأليف المعجمي بعد أن قيد نفسه بالباب والفصل ، ألا وهو أن ينظر إلى الحرف الثاني والثالث في ترتيب الكلمات ، ويقدم ما كان حقه التقديم ، فيجعل — مثلاً — أرب قبل أرب ، وأرب قبل أسب ، وأسب قبل أشب ، وهكذا ؛ ويجعل فروجة قبل فلوجة ، وعذلج قبل عرفج ، وعرفج قبل عسلج ، وعبقر قبل عبهر .

ولا يكتفى بهذا في الثلاثي ، بل يتبعه فيما زاد على الثلاثي كأن يكون رباعياً أو خماسياً ، فيلتزم فيه — بعد الباب والفصل — الحرف الثاني ثم الثالث ثم الرابع .

وهذا الالتزام جعل نظامه في ترتيب معجمه بدءاً جميلاً رائعاً صان معجمه من الخلط والاضطراب ، ووسمه بطابع الدقة العلمية المنهجية في التأليف المعجمي ، ووجهه وجهة حسنة ما زلنا حتى الآن نأخذ به في تأليف المعجمات ، مع أننا استبدلنا بترتيب الجوهري ترتيب الكلمات حسب أوائل الحروف في المعجمات الحديثة .

وقد فخر الجوهري بنظامه المبكر في مقدمته الموجزة عند ما قال :

« على ترتيب لم أسبق عليه » وحق له أن يفخر ؛ وينافر مؤلفي المعجمات فينفروهم بما ابتدع وجدد .

ولعل من الحق والإنصاف أن نذكر أن بين الفارابي والجوهرى نقطة التقاء ، وهى تقسيم الكتاب إلى أبواب وفصول ، والتزام الحرف الثانى والثالث والرابع من أحرف وسط الكلمة فى ترتيب الكلمات عند توزيعها على الأبواب والفصول .

والتزم — فوق هذا — طريقة للضبط بالحركات لم يتبعها أحد قبله ، فإذا أراد ضبط اسم قال : « الكُدَاد^(١) ؛ بالضم » و « الكُرْد ؛ بالضم » و « الكِرْدِيدَة ؛ بالكسر^(٢) » فهو يريد أن يضبط الحرف الأول من الكلمات الثلاث ، وإذا قال : بالتحريك ؛ كقوله : « التَّرْد ؛ بالتحريك^(٣) » و « الجَحْد ؛ بالتحريك^(٤) » فالضبط للحرفين الأولين من الترد والجحد ، وإذا قال : بالتشديد فى مثل قوله . « حَلَّاب ، بالتشديد^(٥) » فالمعروف — ضرورة — أن اللام هى المشددة ، وإذا كان فى الكلمة لغات أشار ؛ كقوله : « حوب ؛ فيه ثلاث لغات^(٦) » ويذكر اللغات ويكرر الكلمة بعدد اللغات التى وردت فيها .

-
- | | | | |
|-----|----------------|------|-------|
| (١) | راجع من الصحاح | مادة | كدد . |
| (٢) | » | » | » |
| (٣) | » | » | » |
| (٤) | » | » | » |
| (٥) | » | » | » |
| (٦) | » | » | » |

وإذا أراد ضبط الفعل الماضي قال : « جُجِدَ الرجلُ ، بالكسر^(٧) »
و « ذُوِبَ الرجل^(٢) ، بالضم » والقصد عين الفعل . وإذا قال في مثل
هذا التركيب : « جَدَّ في الأمرِ يَجِدُّ ؛ بالكسر^(٣) » و « حَسِبْتُهُ أَحْسَبُهُ ؛
بالضم^(٤) » و « حَسِبْتُهُ صَالِحًا أَحْسَبُهُ ؛ بالفتح^(٥) » فالقصد عين الفعل
المضارع ، لأن الضبط جاء عُقبان المضارع .

الأبواب والفصول

الباب في الصحاح آخر الكلمة ، والفصل أولها ، فإذا أراد باحث
كلمة « شرف » طرق باب الفاء ، ونظر في فصل الشين ، ولا بد للباحث
أن يبحث عن المجرد ويترك ما زيد في الكلمة من أحرف اتباعاً للميزان
الصرفي ، فكلمة « استغفر » يبحث عنها في مادة « غفر » لأن ما قبل
الغين مزيد .

ورتب الأبواب على حروف المعجم ، وكذلك صنع في الفصول ، وجعل
الأبواب ثمانية وعشرين بعدد حروف المعجم وترتيبها ، وجعل كل باب ثمانية
وعشرين فصلاً ، إلا أن يُهْمَل من الأبواب جنس من الفصول .

والأبواب التي ذكرها سبعة وعشرون ، إلا أنه لما كانت الألف على
قسمين : مهموزة ولينة ، جعل الأولى في صدر الكتاب ، وفتح للأخيرة

-
- | | | |
|-----|----------------|------------|
| (١) | راجع من الصحاح | مادة جدد . |
| (٢) | » » » » | ذأب . |
| (٣) | » » » » | جدد . |
| (٤) | » » » » | حسب . |
| (٥) | » » » » | حسب . |

— غير المنقلبة عن واو أو ياء — باباً ختم به الكتاب ، وبذلك أصبحت
عدّة الأبواب ثمانية وعشرين .

والأبواب ذوات الفصول سبعة وعشرون ، لأن باب الألف اللينة
لا فصول فيه ، وكل باب ثمانية وعشرون فصلاً ، ويكون مجموع الفصول
ستة وخمسين وسبعمائة ، إلا أن أكثر الأبواب ناقصة الفصول ، والأبواب
الكاملة خمسة وهى : الألف المهموزة ، واللام ، والميم ، والنون ؛ وباب
المعتل ، والاثنان والعشرون باباً الباقية ناقصة الفصول ، وليست كل الأبواب
متساوية فيما نقص منها من فصول ، فمن الأبواب ما نقص منه فصل ، ومنه
ما نقص منه فصلان ، ومنه ما نقص منه ثلاثة ، ومنه خمسة وستة وسبعة
وثمانية وتسعة وعشرة واثنًا عشر .

فما نقص منه فصل واحد : باب الراء ، نقص منه فصل اللام .

وما نقص منه فصلان ؛ أربعة أبواب : الباء ، والتاء ، والذال ،
والقاف ، نقص من باب الباء : فصل الفاء والميم ، ومن التاء : فصل
الضاد والطاء ، ومن الذال : فصل الظاء والياء ، ومن القاف : فصل النطاء
والكاف .

وما سقط منه ثلاثة فصول ؛ أربعة أبواب : الجيم والطاء والعين والفاء ،
فسقط من الجيم : فصل الذال والطاء والياء ، ومن الطاء : التاء والذال
والطاء ، ومن العين : الحاء والعين والغين ، ومن الفاء : الباء والميم والياء .
وما سقط منه خمسة فصول بابان هما : الحاء والسين ؛ سقط من الحاء :

فصل الحاء والطاء والعين والغين والياء ، ومن السين : فصل الثاء والذال والزاي والصاد والطاء .

وما نقص منه ستة فصول : باب الثاء وباب الزاي ، نقص من الثاء : فصل الذال والزاي والسين والصاد والطاء والياء ، ومن الزاي : فصل الثاء والذال والسين والضاد والطاء والياء .

وما نقص منه سبعة فصول : باب الحاء وباب الصاد ، نقص من الحاء : فصل الثاء والحاء والطاء والعين والغين والهاء والياء ، ومن باب الصاد : فصل الثاء والذال والزاي والسين والضاد والطاء والطاء .

وما نقص منه ثمانية فصول ؛ باب الذال المعجمة : نقص منه : فصل التاء والثاء والذال والسين والصاد والضاد والطاء والياء .

وما نقص منه تسعة فصول ؛ ثلاثة أبواب : الغين والكاف والهاء ، نقص من الغين : فصل الجيم والذال والطاء والطاء والعين والغين والقاف والكاف والياء ، ومن باب الكاف : فصل الثاء والجيم والحاء والذال والطاء والطاء والعين والقاف والياء ، ومن باب الهاء نقص : فصل الثاء والحاء والحاء والذال والزاي والضاد والطاء والطاء والغين .

وما نقص منه عشرة فصول ؛ باب الشين وباب الضاد : نقص من باب الشين : فصل التاء والثاء والذال والزاي والشين والصاد والضاد والطاء واللام والياء ، ومن باب الضاد : فصل التاء والثاء والذال والزاي والسين والصاد والضاد والطاء والطاء والياء .

وما سقط منه اثنا عشر فصلاً : باب الظاء ، نقص منه : فصل الألف
والثاء والطاء والحاء والذال والزاي والسين والصاد والضاد والطاء والظاء والهاء .
ونخلص من هذا إلى أن الفصول الناقصة أربعة وعشرون ومائة ، ومجموع
ما يضم الصحاح من الفصول اثنان وثلاثون وستمائة فصل .

مزاييا الصحاح

الصحاح خير المعجمات التي سبقته أو عاصرتة قاطبة ، لأن له مزاييا
وخصائص يفضل بها غيرها ، ومن هذه المزاييا : التماسه الصحيح الذي
لا خلاف فيه ، وسهولة تناوله ومأخذه ، ويُسر البحث فيه والوصول إلى
الكلمة المقصودة دون جهد أو عناء ، واختصاره في الشرح والتفسير ، وتركه
الفضول الذي لا غناء فيه ، وجمال أسلوبه في الشرح ، وذكره شواهد من
الشعر الرفيع وكلام العرب غير المصنوع ، وتجاوزه ذكر أسماء من ينقل
عنهم غالباً رغبة في الإيجاز ، وعنايته بمسائل النحو والصرف ، وإشارته
إلى الضعيف والمنكر والمتروك والردىء المذموم من اللغات ، وإلى العامي
والمولد والمعرَّب ؛ والإتباع والازدواج والمشارك والمفاريد والنوادر ، والألفاظ
التي لم تأت في الشعر الجاهلي وذكرها الإسلام ، وإلى الأضداد .

وسمة الصحاح — بعد كل هذا — أنه يجمع الصحيح مع الترتيب
الحكم ، والتنسيق المنظم ، والاختيار الموفق .

ولا يسعنا أن نمثل لكل هذه المزاييا ، فالكتاب بين يدي القارئ ،
والصوى التي أقامها الجوهري تدل عليها إلا أن هناك بعض المزاييا جديرة
بالإشارة .

ومن هذه المزايا : إشارته إلى الضعيف والمنكر والمتروك والردىء والمذموم من اللغات ، مثال ذلك قوله : جَرَعْتُ الماء بالفتح ، لغة أنكرها الأصمعي^(١) ، وجَفَأْتُ القدرَ : كفأتها وصببت ما فيها ، ولا تقل : أجفأتها ، وأما الحديث الذى فيه : « فَأَجْفِئُوا قَدُورَهُمْ بما فيها » فهى لغة مجهولة^(٢) ، وأفلطنى ، لغة تميمية قبيحة فى أفلتنى^(٣) ، وأوقف — بالألف — لغة رديئة^(٤) ، وأَعَقَّتْ الفرس فهى عقوق ، ولا يقال : مُعِقٌّ إلا فى لغة رديئة^(٥) ، وغَلَقْتُ الباب غلقاً ؛ لغة رديئة متروكة^(٦) ، ومحقه الله ؛ وأمحقه لغة رديئة فيه^(٧) ، وماء ملح ، ولا يقال : مالح إلا فى لغة رديئة^(٨) ، ولا يقال : أشر الناس إلا فى لغة رديئة^(٩) .

وأشار إلى المفاريد والنوادر كقوله : التَّوَأْبَانِيَّانِ : قادمتا الضرع . قال ابن مقبل :

فمرَّتْ على أطراف هر عشية لها توأبانيان لم يتفلقلا
سمى ابن مقبل خلفى الناقة : توأبانيين ، ولم يأت به عربى^(١٠) ، والشَّمْلُ — بالتحريك — لغة فى الشَّمْل . أنشد أبو زيد فى نوادره للبعيث :
وقد ينعش الله الفتى بعد عثرة وقد يجمع الله الشتيت من الشَّمْلِ

(١) الصحاح ١ : ٥٨١ .

(٢) » ١ : ٦ .

(٣) » ١ : ٥٦١ .

(٤) » ٢ : ٦٥ .

(٥) » ٢ : ١٠٧ .

(٦) » ٢ : ١١٢ .

(٧) » ٢ : ١٢٠ .

(٨) » ١ : ١٩٥ .

(٩) » ١ : ٣٣٨ .

(١٠) » ١ : ٣٢ .

قال أبو عمر الجرمي : ماسمته بالتحريك إلا في هذا البيت^(١) ، وأعقت
الفرس فهي عقوق ، من النوادر^(٢) .

و « الكَمْء » واحدة الكَمأة ؛ على غير قياس ، وهو من النوادر^(٣) ،
وأسهب الرجل ، فهو مُسَهَّب^(٤) ، وألفج الرجل — أى أفلس — فهو
مُلفَج^(٥) ، وأحصن الرجل فهو مُحْصَن^(٦) ؛ من النوادر^(٧) ، والحبة
من العنب عنبَة ، وهو بناء نادر ، لأن الأغلب على هذا البناء الجمع ، نحو :
قرد وقرَدَة وفيل وفيلة وثور وثورة ، إلا أنه قد جاء للواحد وهو قليل ، نحو :
العنبَة والتَّوَلَة والحبرة والطَّيرة والطَّيْبَة والخيرة ولا أعرف غيره^(٨) .

وأشار الجوهري إلى المعرب بعد أن عرفه بقوله : « تعريب الاسم
الأعجمي : تنفوه به العرب على مناهجها ، تقول : عربَّته العرب وأعربَّته أيضا^(٩) » .
وذكر مئات الكلمات المعربة ؛ وأشار إلى الأسانيد في بعضها ، ومن المعربات
التي جاءت في الصحاح : المهندس^(١٠) (المهندز) والدولاب^(١١) ، والبخت^(١٢) ،

(١) الصحاح ١ : ٢٠٢ .

(٢) « ٢ : ١٠٧ وكان القياس أن يكون « معق » لأنه من باب أكرم يكرم ،
جاء من النوادر ، أما « معق » ، فلفظة قبيحة .

(٣) الصحاح ١ : ٢٢ .

(٤) « ١ : ٦٤ .

(٥) « ١ : ١٦٢ .

(٦) « ٢ : ٣٦٦ .

(٧) « ١ : ١٦٢ .

(٨) « ١ : ٨٥ .

(٩) « ١ : ٨٠ .

(١٠) « ١ : ٤٤٠ .

(١١) « ١ : ٥١ .

(١٢) « ١ : ١١٣ .

والبوس^(١) ، والدهليز^(٢) ، والدرز^(٣) — واحد دروز الثوب —
والطراز^(٤) ، والإفريز^(٥) ، والصك^(٦) .

وأشار إلى المولد ، فذكر منه كلمات كثيرة ؛ مثل الطنز بمعنى السخرية^(٧) ،
والبرجاس^(٨) ، والطرش^(٩) ، والماش^(١٠) ، والعفص^(١١) ، والعجة^(١٢) ،
والخرقة^(١٣) ، والجبر^(١٤) ، والفسر والتفسر^(١٥) ، والبُحْران^(١٦) ، والكُنه^(١٧) ،
والجمعس^(١٨) .

وتفرد الجوهري بذكر كثير من مسائل النحو والصرف ، وهي مبثوثة
في كل أبواب الكتاب ، مثل قوله^(١٩) : « إذا نسبت إلى مدينة الرسول
صلى الله عليه وسلم قلت مَدَنِيٌّ ، وإلى مدينة المنصور قلت : مديني ، وإلى
مدائن كسرى قلت : مدائني » .

ولم أقف على مثل هذه التفرقة في النسب إلى مدينة في كتاب قبل
الصحاح .

وعنى الجوهري بفقہ اللغة فضمن كتابه كثيراً من البحوث والآراء التي

(١)	الصحاح ١ : ٤٤٣ .
(٢)	الصحاح ١ : ٤٢٨ .
(٣)	» ١ : ٤٣٠ .
(٤)	» ١ : ٤٣٤ .
(٥)	» ١ : ١٣٩ .
(٦)	» ١ : ٤٣١ .
(٧)	» ١ : ٤٤٣ .
(٨)	» ١ : ٤٩١ .
(٩)	» ١ : ٤٩٧ .
(١٠)	» ١ : ٥٠٩ .
(١١)	» ١ : ١٥٦ .
(١٢)	» ٢ : ٧٩ .
(١٣)	» ١ : ٢٩٥ .
(١٤)	» ١ : ٣٨٢ .
(١٥)	» ١ : ٤٣١ .
(١٦)	» ١ : ٢٨٣ .
(١٧)	» ١ : ٤٤٥ .
(١٨)	» ٢ : ٢١٨ .

تتصل به ، فعرض في غير موضع لبيان المناسبة بين الألفاظ ومعانيها ، والفوارق الدقيقة بين مدلول الكلمات ، كقوله : « فضم الشيء كسرذ من غير أن يبين^(١) ، وقصمت الشيء قصما ، إذا كسرتَه حتى يبين^(٢) ، والخصم : أكل بجميع الفم ، والخصم ؛ دون ذلك^(٣) ، ويقال : طويل وطوال ، فإذا أفرط في الطول قيل : طووال^(٤) ، والعُجَاب : الأمر يتعجب منه ؛ والعُجَاب ، أبلغ منه^(٥) . كما عرض للفرقة بين معاني الألفاظ المتقاربة كقوله : المخطيء من أراد الصواب فصار إلى غيره ، والخطيء : من تعمد لما لا ينبغي^(٦) » .

وأشار إلى المشترك ، وهو ما اتفق لفظه واختلف معناه ؛ كالأرض : وهي المعروفة ، وكل ما سفل ، وأسفل قوائم الدابة ، والنفضة ، والزكام ، ومصدر أرضت الخشبة تؤرض أرضاً فهي مأروضة ، إذا أكلتها الأرضة^(٧) .

وعنى بالاشتقاق الكبير — أو المقاييس كما يسميه ابن فارس — وهو دوران المادة حول معنى أو معان تشترك فيها المفردات المتولدة من مادة واحدة ، وذلك في الصحاح جد كثير .

فالنساء : أصل يدل على تأخير الشيء ، تقول : نسأت الشيء نساً ، وأنسأته أيضاً : أخرته . ونسأ الله في أجله : أخره . ومنه : المنسأة للعصا ،

(١) الصحاح ٢ : ٣٢١ .

(٢) » ٢ : ٣٢٦ .

(٣) » ٢ : ٢٨٢ .

(٤) » ٢ : ٢٠٩ .

(٥) » ١ : ٧٨ .

(٦) » ١ : ٩ .

(٧) » ١ : ٥١٨ .

لأنها آلة لتأخير الشيء وإبعاده ، ومنه : النسيء في الأشهر ، وهو تأخير حرمة الأشهر الحرم^(١) .

ورَجِبَتْهُ بالكسر : هبته وعظمته ، ومنه سمى . رجب ، لأنهم كانوا يعظمونه في الجاهلية ولا يستحلون فيه القتال . والترجيب : التعظيم^(٢)

وأشار إلى الأضداد فذكر أن « الرس : الإصلاح بين الناس ؛ والإفساد^(٣) ، وعسّس الليل ، إذا أقبل بظلامه ، وعسّس : أدبر^(٤) . وأمرستُ الحبلَ ، إذا أعدته إلى مجراه ، وأمرسته ، إذا أنشبت بين البكرة والقعو^(٥) ، والأشرط : الأرذال ؛ والأشراف^(٦) . والغابر : الباقي ؛ والماضي^(٧) . والقفوة ، تقول : فلان قفوتي ، أى خيرتى ممن أوتر ، وفلان قفوتي ، أى تهمتى — كأنه من الأضداد^(٨) — وكلّ : مضى قدما ، وكلل : جبن^(٩) .

الهئات

وبجانب الحسنات التى يُذهبن السيئات ، وبجانب المزايا بعض الهئات التى يجب أن نشير إليها ، لتكون لدى القارئ صورة واضحة للصحيح ، ونقول ماله وما عليه ، فهو لم يخلُ من بعض الهئات ، منها : اقتصاره على الصحيح ، وطرحه مالم يصح عنده .

(١) الصحاح ١ : ٢٥ .

(٢) » ١ : ٥٥ .

(٣) » ١ : ٤٥٥ .

(٤) » ١ : ٤٦٢ .

(٥) » ١ : ٤٧٦ .

(٦) » ١ : ٥٥٤ .

(٧) » ١ : ٣٧٤ .

(٨) » ٢ : ٥٣٦ .

(٩) » ٢ : ٢٣٦ .

وهذه مزية من مزايا الصحاح ، إلا أننا إذا نظرنا إليها من زاوية النقد نجد فيها مجالا للقول ، فهو قد أغفل ذكر مواد كثيرة تُعدُّ من « تاج اللغة وصحاح العربية » ولو لم يغفلها — التزاما للصحیح وطرحا لما ظنه غير صحیح — لقدّم لنا ثروة لغوية ضخمة ، فليس كلُّ ما طرحه غير صحیح ، فقد حشد الصغاني في التكملة والذيل والصلة أكثر من ستين ألف مادة ، أكثرها من صحیح اللغة ، بل استوعب الصغاني في مجمع البحرين موادّا أكثر مما ذكر في التكملة والذيل والصلة .

ومن الهنات التي تعد على الصحاح : التصحيف والتحريف ، فهو يصحّف الشعر والمواد اللغوية والأعلام ويحرّف في كل هؤلاء أيضا ، فقد ذكر في مادة عفت : « الأعفت من الرجال : الكثير التكشف^(١) » قال الهروي : المعروف الأعفت بالتاء بنقطتين .

وجاء في الصحاح :

يعلون بالمرد قوش الورد ضاحية على سعايب ماء الضالة اللّجز
أراد اللّزج فقلبه^(٢) .

وهذا تصحيف تبع فيه الجوهريّ ابن السكيت ، وإنما هو « اللّجن » بالنون من قصيدة نونية وقبلة :

من نسوة شمس لا مكره عنف ولا فواحش في سر ولا علان

(١) الصحاح ١ : ٦٣ ، ١ : ١٣٦ .

(٢) « ١ : ٤٣٦ .

وهو تصحيف قبيح ، وأقبح منه تفسيره كلمة « لجز » بأنه مقلوب « لزج^(١) » .

وفي الصحاح^(٢) :

أَسْلِمُ إِن مَصَابِكُمْ رَجُلًا أَهْدَى السَّلامَ تَحِيَّةً ظَلُمُ

وفي رواية الجوهري تحريف ، والصحيح :

أَظْلِمُ إِن مَصَابِكُمْ رَجُلًا أَهْدَى السَّلامَ تَحِيَّةً ظَلُمُ

وظليم ؛ ترخيم ظليمة ، وهى أم عمران روجة عبد الله بن مطيع ، وكان الحارث بن خالد بن العاصي الخزومي ينسب بها ، ولما مات زوجها تزوجها .

وفي الصحاح^(٣) : « الخزاء : نبت » وهو غلط وتصحيف . والرواية :

الخزء ؛ بالخاء المهملة^(٤) .

وفي الصحاح^(٥) : « معروف بن عمرو » والصحيح : مفروق بن عمرو^(٦) .

وفي الصحاح^(٧) : « مَا أَعْقَلَهُ عَنْكَ شَيْئًا ، أَى دَع عَنْكَ الشَّك ،

وهذا حرف رواد سيبويه فى باب الابتداء ، يضم فى مابنى على الابتداء ،

كأنه قال : ما أعلم شيئاً مما تقول فدع عنك الشك ، ويستدل بهذا على

صحة الإضمار فى كلامهم للاختصار ، وقال بكر المازنى : سألت أبا زيد

(١) التكملة .

(٢) الصحاح ١ : ٨٢ .

(٣) » ٢ : ٤٦٩ .

(٤) التكملة .

(٥) الصحاح ١ : ٥ .

(٦) كتاب الجيم ٢٥ ، والتكملة ، واللسان .

(٧) الصحاح ٢ : ٢١٨ .

والأصمعي وأبا مالك والأخفش عن هذا الحرف فقالوا جميعا : ما ندري ما هو . وقال الأخفش : أنا مذ خلقت أسأل عن هذا » .

وقد علق الشيخ أبو نصر الهوريني على قول الجوهري بقوله^(١) :
وقولهم : ما أعقله ؛ الخ . في القاموس : وقول الجوهري « ما أعقله عنك شيئا »
أى دع عنك الشك ؛ تصحيف ، والصواب : ما أعقله بالعين والفاء^(٢) .

والكلمتان مصحفتان فهما ليستا ما أعقله وما أعقله ، بل « ما أغقله »
وقد ورد في كتاب سيبويه^(٣) : « ما أغقله عنك ، أى دع عنك الشك » .

وقال أبو سعيد السيرافي شارح الكتاب^(٤) : لم يُفسّر هذا الحرف
فيما مضى إلى أن مات المبرد ، وفسره أبو إسحاق الزجاج بعد ذلك فقال :
معناه على كلام تقدم ، كأنّ قائلًا قال : زيد ليس بغافل عنى ، فقليل : بلى ،
ما أغقله عنك ، انظر شيئا ، أى تفقّد أمرك ، فاحتج به على الحذف ، يريد
حذف « انظر » التى نصبت « شيئا » .

ومثل هذا مذكور فى كتاب « الإنصاف فى مسائل الخلاف بين
البصريين والكوفيين »^(٥) .

ومما يؤخذ على الجوهري : نسبته قول إمام إلى إمام آخر ، فهو

(١) التعليقة على هامش صفحة ٢١٨ من الجزء الثانى من الصحاح (طبعة بولاق)

(٢) فى القاموس : ما أغقله . ونقل الهورينى خطأ .

(٣) الكتاب ١ : ٢٧٩ .

(٤) نسخة المكتبة المحمودية بالمدينة المنورة .

(٥) صفحة ٥٣ .

يقول^(١) : « قال الأخفش : شبهوا لات بليس وأضمروا فيها اسم الفاعل »
مع أن هذا القول لسيبويه ، فهو يرى أنها تعمل عمل ليس ، أما الأخفش
فكان لا يُعْمِلُها ويرفع ما بعدها بالابتداء إن كان مرفوعاً ؛ وينصب
بإضمار فعل إن كان منصوباً^(٢) . »

ويؤخذ عليه أنه ينقل أقوال العلماء بغير دقة ، كما يظهر في قوله^(٣) :
« قال أبو عبيد : إن ضمنت الدال قلت : دُرِّيٌّ ، يكون منسوباً إلى الدر
في فُعْلِيٍّ ، ولا تهمزه ؛ لأنه ليس في كلام العرب فُعْلِيٌّ » ويريد بالهمز
دُرِّيٌّ (على وزن فُعْلِيل) .

وفي نقله اضطراب ، وصحته أن يروى هكذا : « إن ضمنت الدال
قلت : دُرِّيٌّ ؛ يكون منسوباً إلى الدرّ على فُعْلِيٍّ ، ولا تهمزه ؛ لأنه
ليس في كلام العرب فُعْلِيلٌ » .

ونقول رداً على أبي عبيد : حكى سيبويه أنه يدخل في الكلام
فُعْلِيلٌ ، وهو قولهم للعصفور : مُرِّيْقٌ ، وكوكب دُرِّيٌّ^(٤) .

ويؤخذ عليه : أنه ينسب الحديث الشريف إلى غير صاحبه عليه السلام ،
وينسب إلى الحديث النبوى ما ليس منه كقوله^(٥) : « في حديث سراقه :
« ما خلأت ولا حرّنت ، بل حبسها حابس الفيل » ونسبة الحديث

(١) الصحاح ١ : ١٢٥ .

(٢) حواشي ابن برى ، وتهذيب الصحاح هامش صفحة ١١٩ من الجزء الأول .

(٣) الصحاح ، مادة (درأ) .

(٤) التكملة .

(٥) الصحاح ، مادة (خلأ) .

إلى سراقه سهو . وإنما هو حديث النبي صلى الله عليه وسلم قاله عام
الحديبية ، رواد المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم^(١) . وكقوله^(٢) :
وفي الحديث : « لا تسبوا الإبل فإن فيها رَقُوءَ الدم » وهو ليس بحديث
بل هو قول العرب يجرونه مجرى الأمثال ، وأصله من قول أكرم
ابن صيفي في وصية كتب بها إلى طيء ، قال فيها : ولا تضعوا رقاب
الإبل في غير رقابها فإن فيها ثمن الكريمة ورقوء الدم ، وبألبانها يُتَحَفُّ
الكبير ويُغذَى الصغير ، ولو أن الإبل كَلَّفت الطحن لطحنت^(٣) .

ويؤخذ عليه أنه يخطئ في رواية الشعر ويغير أشطره .

جاء في الصحاح^(٤) : قال الراجز :

رَأَيْنَ شَيْخًا ذَرِئْتُ مَجَالِيَهُ يَقْلِي الْغَوَانِي وَالْغَوَانِي تَقْلِيَهُ

أقول : وهذا مُغَيَّرٌ ، والرجز لأبي محمد الفقعسي ، والرواية^(٥) :

قَالَتْ سَلِيمِي إِنِّي لَا أَبْغِيهِ أَرَادَ شَيْخًا عَارِيًا تَرَاقِيَهُ

مُرْمَصَّةً مِنْ كَبِيرٍ تَرَاقِيَهُ مُتَقَوِّسًا قَدْ ذَرِئْتُ مَجَالِيَهُ

رَأَتْ غَلَامًا جَامِلًا تَصَابِيَهُ يَقْلِي الْغَوَانِي وَالْغَوَانِي تَقْلِيَهُ

وفي الصحاح^(٦) :

سَرَاةٌ صَلَايَةٌ خَلَقَاءُ صِيغَتْ تَزِلُّ الشَّمْسُ لَيْسَ لَهَا رَثَابٌ

(١) التكملة .

(٢) الصحاح ، (رقا)

(٣) التكملة .

(٤) الصحاح ، مادة (ذرأ) ومادة (جلا)

(٥) التكملة ٩: ١ نسخة دار الكتب المصرية ، وهو امش نسخة المناني المخطوطة من الصحاح .

(٦) الصحاح ، مادة (رأب) .

أى صدوع .

والصواب : ليس لها إياب ، أى ليس للشمس رجوع إذا زالت عن السماء للغرب لملاسة السماء^(١) .

ومما يؤخذ عليه : خلطه فى نسبة الشعر أو إغفاله النسبة ، ومن الأول أنه نسب إلى كعب بن زهير هذا البيت^(٢) .

طعنًا طعنة حمراء فيهم حرام رأبها حتى المات

وليس لكعب على قافية التاء شيء^(٣) .

ومن غلطاته فى التفسير قوله^(٤) : « نضو السهم : قدحه ، وهو ما جاوز الريش إلى النصل » وهو غلط ، وقد تبعه فى هذا الخطأ ابن فارس ، والصواب : النضو : السهم الذى قد فسد من كثرة ما رُمى به ، فأما ما جاوز الريش إلى النصل فهو « النَّضِيُّ » لا غير^(٥) .

وقوله^(٦) : « القطرب طائر » ولم يرد فى كلام صحيح ، فالقطرب دويبة ، ومن معانيه : الصغير من الكلاب ، وصغار الجن ، وذكر الغيلان ، واللص ، والجاهل ، والجبان ، والسفيه ، والمصروع ، والذئب الأمعط^(٧) .

(١) التكملة ، وهوامش نسخة العنانى .

(٢) الصحاح ، مادة (رأب) .

(٣) التكملة .

(٤) الصحاح ، مادة (نضا) .

(٥) التكملة .

(٦) الصحاح ، مادة (قطرب) .

(٧) تهذيب الصحاح ١ : ٨٥ والراموز ، والتكملة .

وقوله^(١) : « الصاب : عصارة شجر مر » والصواب : الصاب :
شجر مر^(٢) .

ومما يؤخذ عليه : غلطه في ترتيب المواد ، ووضعه مادة مكان مادة ، أو
إنزاله مادة في غير تركيبها ، ومن الأمثلة على هذا : أنه وضع « الثيب »
في ثوب^(٣) . مع أن موضعها ثيب كما نبه القاموس ، ووضعه اللسان
في تركيب ث ي ب .

ووضع « أثأ » في تركيب « ثأثأ »^(٤) وحقها أفراد تركيب لها .

وذكر « الجيء » في تركيب « جأجأ »^(٥) وحقها أن تكون في
تركيب « جياً » .

وأنزل « مريعة » بمعنى خصبة ، في « ريع »^(٦) وحقها أن تذكر في
« مرع » وقد ذكرها الجوهري نفسه في « مرع » وصنيعه مثل من يضع
« مريضة » في « ريض » .

ووضع « اندال » — فعل ماض — في « ندل »^(٧) وموضعها
في « دول » .

(١) الصحاح ، مادة (صوب) .

(٢) القاموس ، والراموز ، والتكملة .

(٣) الصحاح ، مادة (ثوب) .

(٤) الصحاح ، مادة (ثأثأ) .

(٥) الصحاح ، مادة (جأجأ) .

(٦) الصحاح ، مادة (ريع) .

(٧) الصحاح ، مادة (ندل) .

وجعل « حانوت » في « حين^(١) » وحقها أن تكون في « حنت » .
 و « الدّرحاية » في « درحي^(٢) » وموضعها « درح » .
 و « الشاصيلّ » في « شصا^(٣) » وموضعها « شصل » .
 و « الديمومة » في « دم^(٤) » وحقها « دوم^(٥) » .
 و « الجاد » في « جود^(٦) » وحقها أن تكون في مادة « وجه »
 لأن فيها قلباً مكانياً كما ذكر الصرفيون^(٧) .

ووضع « هراق » في « هرق^(٨) » وحقها أن تذكر في مادة « روق »
 باب القاف فصل الراء لا فصل الهاء ، لأن الهاء بدل الهمزة ، وقد وافق
 الجوهري النحويين في أن « هراق » أصلها أراق ، ومع هذا وضعها في
 « هرق » وقد أشار سيبويه^(٩) وابن يعيش^(١٠) والرضي^(١١) والبغدادى^(١٢)
 إلى « هراق » في مؤلفاتهم بما ذهبنا إليه .

ووضع الجوهري « مذحج » في باب الجيم فصل الميم^(١٣) ، وحقها أن

-
- (١) الصحاح ، مادة (حين) .
 - (٢) الصحاح ، مادة (درحي) .
 - (٣) الصحاح ، مادة (شصا) .
 - (٤) الصحاح ، مادة (دم) .
 - (٥) شرح الرضى للشافعية ٣ : ١٥٢ .
 - (٦) الصحاح ، مادة (جود) .
 - (٧) شرح الشافعية ١ : ٢٢ .
 - (٨) الصحاح ، مادة (هرق) .
 - (٩) الكتاب ٢ : ٣٣٣ .
 - (١٠) المفصل ٦ : ١٢٦ ، ١٠ : ٥ .
 - (١١) شرح الرضى للشافعية ٢ : ٣٨٤ .
 - (١٢) خزانة الأدب ٤ : ٦١ .
 - (١٣) الصحاح ، مادة « مذحج » .

تكون في باب الجيم فصل الذال ، لأن الميم زائدة ، وقد نسب الجوهري إلى سيبويه القول بأصالة الميم^(١) ، وسيبويه لم يقل ذلك ، وإنما ذكر زيادة الميم في مفعول ؛ نحو : مجلس ومسجد^(٢) ، وقال في « مَنْبِج » الميم بمنزلة الألف لأنها إنما كثرت مزيدة أولا ؛ فموضع زيادتها كموضع الألف وكثرتها ككثرتها إذا كانت أولا في الاسم والصفة ، ولم يقل سيبويه بأصالة الميم إلا في مأجج^(٣) ، ومجن^(٤) ، ومعد^(٥) .

وقد انعقد إجماع النحويين على أن الميم زائدة إذا تصدرت وبعدها ثلاثة أحرف أصول مقطوع بأصالتها ، ولم يشذ عن هذا الإجماع أحد .

ولو جعلنا الميم أصلا في « مَذْحِج » لكان مثل جعفر ؛ وزنها فَعْلِلٌ وهو وزن غير موجود في أوزان الاسم الرباعي المجرد ، ولم يثبت أحد من النحويين ، وقد حصر سيبويه أوزان الاسم الرباعي المجرد في كتابه^(٦) ولم يذكر من بينها فَعْلِلًا ، ولم يستدرك أحد عليه هذا الوزن .

وقد وهم المجدُّ الصحاح في « مذحج » والحق مع المجد ، وقد انتصر للجوهريّ الشيخ أبو الطيب الفاسي — شيخ صاحب تاج العروس — وتحامل على المجد تحاملا شديدا ، مريدا تأييد الجوهري ، وخرق أبو الطيب الإجماع ،

(١) الصحاح ، مادة « مذحج » .

(٢) الكتاب ٢ : ٣٢٨ .

(٣) الكتاب ٢ : ٣٤٤ .

(٤) الكتاب ٢ : ٣٣٠ .

(٥) الكتاب ٢ : ٣٣٠ .

(٦) الكتاب ٢ : ٣٣٥ .

ويقول الزبيدي^(١) : « روى في كتاب سيبويه « مأجج » فصَّفه
الجوهرى « بمذحج » ، وميم مأجج أصلية ، وذكر ابن جنى في « المصنف »
كلاماً مثل هذا .

ومع أن الجوهرى كان أنحى اللغويين وخطيب المنبر الصرفى ، فقد وقع
في كتابه بعض الخطأ في الإعلال الصرفى وقواعد النحو ، ونقدم للقارىء
بعض الأمثلة على هذا النوع من الخطأ :

جاء في الصحاح^(٢) : وقد يُزادان (إذ وإذا) جميعاً في الكلام
كقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ .

ولم يقل أحد من النحويين بزيادة « إذ » وإنما قال بذلك أحد اللغويين ،
وهو أبو عبيدة ، ولم يكن له حذق في النحو ، كما قالوا .

قال أبو حيان^(٣) عند تفسيره قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتْ امْرَأَةُ عِمْرَانَ
رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ . وذهب أبو عبيدة إلى أن
« إذ » زائدة . المعنى : قالت امرأة عمران ، وكان أبو عبيدة يُضعف في
النحو ، ونقل عنه أبو حيان مثل ذلك في البحر^(٤) في قوله تعالى :
﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ .

وأما « إذا » فلم أقف على رأى يقول بزيادتها .

(١) تاج العروس ٢ : ٤٧ ، ٢ : ٩٩ .

(٢) الصحاح ، باب الألف اللينة ؛ مادة (إذا) .

(٣) تفسير أبى حيان (البحر المحيط) ٢ : ٤٣٧ .

(٤) تفسير أبى حيان ٤ : ٥٨ .

وفي الصحاح^(١) : كَأَيِّنْ وَكَأَيِّنْ لَغَتَانِ مَعْنَاهُمَا كَمْ فِي الْخَبَرِ وَالِاسْتِفْهَامِ ،
وفي المعنى لابن هشام^(٢) : لَا تَقَعُ كَأَيِّنْ اسْتِفْهَامِيَّةٌ عِنْدَ الْجُمْهُورِ ، وَيَقُولُ :
إِفَادَةُ كَأَيِّنْ الِاسْتِفْهَامِ نَادِرٌ لَمْ يَثْبُتْهُ غَيْرُ ابْنِ قَتَيْبَةَ وَابْنِ عَصْفُورٍ وَابْنِ مَالِكٍ .

وقال الجوهري^(٣) : لَا تَدْخُلُ الْكَافُ عَلَى « ذَلِكَ » الْمَوْثُ . وَإِنَّمَا
تَدْخُلُ عَلَى « تَا » تَقُولُ : تَيْكَ وَتِلْكَ ، وَلَا تَقُلُ : ذَيْكَ ، فَإِنَّهُ خَطَأٌ ،
وَقَدْ تَبَعَ الْجَوْهَرِيُّ ثَعْلَبًا فِي إِنْكَارِ ذَيْكَ .

فِي هَمْعِ الْمَوَامِعِ^(٤) : أَنْكَرَ ذَيْكَ ثَعْلَبٌ . وَفِي ابْنِ يَعِيشَ^(٥) : ذَيْكَ ،
وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لِإِنْكَارِ ثَعْلَبٍ ، وَفِي شَرْحِ الرِّضِيِّ لِلْكَافِيَةِ^(٦) : أَوْرَدَ « ذَيْكَ »
الزَّمْخَشَرِيُّ وَابْنُ مَالِكٍ .

وفي الصحاح^(٧) : « وَاتَّكَلْتُ عَلَى فُلَانٍ فِي أَمْرٍ ، إِذَا اعْتَمَدْتَهُ ،
وَأَصْلُهُ : اَوْتَكَلْتُ . قَلْبْتُ الْوَاوَ يَاءَ لِانْكَسَارِ مَا قَبْلَهَا ثُمَّ أَبْدَلْتُ مِنْهَا التَّاءَ ،
فَأَدْغَمْتُ فِي تَاءِ الْاِفْتِعَالِ » .

وفي الصحاح^(٨) : « اتَّقَى يَتَّقَى ، أَصْلُهُ اَوْتَقَى عَلَى اِفْتِعَالٍ ، فَقَلْبْتُ الْوَاوَ
يَاءَ لِانْكَسَارِ مَا قَبْلَهَا وَأَبْدَلْتُ مِنْهَا التَّاءَ وَأَدْغَمْتُ » .

(١) الصحاح ، مادة « كين » .

(٢) المعنى ١٥٦ .

(٣) الصحاح ، باب الألف اللينة ، مادة (ذا) .

(٤) همع الموامع ١ : ٧٥ .

(٥) المفصل ٣ : ١٣٤ .

(٦) شرح الرضي للكافية ٢ : ٣١ .

(٧) الصحاح ، مادة (وكل) .

(٨) الصحاح ، مادة (وقى) .

والمتفق عليه بين الصرفيين أن الواو إذا وقعت فاء لافتعل وما تصرف منه تُقَلَّبُ تاءً وتدغم في تاء الافتعال حتى لا تتلاعب بها حركة ما قبلها ، ويظهر منه أن الواو لم تقلب ياءً ، ولم تبدل الياء تاءً ثم تدغم في تاء الافتعال كما ذهب الجوهري .

وقد بسط القول في هذه المسألة الرضى في شرح الشافية^(١) وقال : « اعلم أن التاء قريبة من الواو في المخرج لكون التاء من أصول الثنايا ، والواو من الشفتين ، فتقع التاء بدلا منها كثيراً ؛ لكنه مع ذلك غير مطرد إلا في باب افتعل نحو تراث وتجاه وتولج وتترى والتكأة وتقوى من وقيت وتوراة عند البصريين .

والتاء أقل مناسبة للياء منها للواو ؛ فإذ لك قلَّ إبدالها منها وذلك في « ثنتان وكلتا » على قول ، فلما كثر إبدال التاء من الواو في الأول واجتمع معه في نحو : اوتعد و اوتصل داع إلى قلبها مطلقاً صار قلبها تاء لازماً مطرداً ، وذلك الداعي إلى مطلق القلب حصول التخالف في تصاريفه بالواو والياء لو لم يقلب ؛ إذ كنت تقول : ايتصل وفيما لم يُسمَّ فاعله : اوتصل ؛ وفي المضارع واسم الفاعل والمفعول : يَوْتَصِلُ ومُوتَصِلٌ ومُوتَصِّلٌ ؛ وفي الأمر : ايتَّصل ، فلما حصل هذا الداعي إلى مطلق قلبها إلى حرف جلد لا يتغير في الأحوال — وللواو بانقلابها تاء عهد قديم — كان انقلابها تاء هنا أولى ، والياء وإن كانت أبعد عن التاء من الواو وإبدالها منها أقل ؛ لكن شاركت الواو ههنا في لزوم التخالف لو لم تقلب ؛ إذ كنت تقول : ايتسر وموتسر

وموتَّسَر ، فاتَّبَعَت الياء الواو في وجوب القلب والإدغام فقليل :
التَّسَرَّ (١) .

وفي الصحاح (٢) : « القضية والجمع القضايا على فعالى وأصله فعائل »
وهو مخالف للإعلال الصرفى ، فالياء في قضايا بدل من الهمزة الزائدة التى
أصلها الياء الزائدة فى قضية ، والألف فيها منقلبة عن الياء التى هى لام
الكلمة ، وأصلها قضاينى ثم قضائى ثم قضاء ثم قضايا كما هو معروف
فى الصرف ، فوزن قضايا — على هذا — فعائل لا فعآلى .

وفي الصحاح (٣) : « الإمام : الذى يقتدى به ، وجمعه أئمة ، وأصله
أئمة على أفعله ، مثل : إناء وآنية وإله وآله ، فأدغمت الميم فنقلت
حركتها إلى ما قبلها فلما حركوها بالكسر جعلوها ياء » .

وقد سلك الجوهري فى تصريف أئمة طريقاً خالف طريق الصرفيين
الذين يتلخص كلامهم فى أن جمع إمام : أئمة ؛ على وزن أفعله ، واجتمع
فى الكلمة ما يوجب الإعلال فى صدرها بقلب الهمزة ألفاً وما يوجب إدغام
المثلين المتحركين فى عجزها ؛ فقدم الإدغام على الإعلال ، فصار اللفظ أئمة ؛
وهذا الجمع (أئمة) فصيح استعمالاً ، والقياس أئمة بقلب الهمزة الثانية ياء (٤) .

قال الرضى فى شرح الشافية (٥) : « وإنما قدم فى الإدغام فى أئمة

(١) المفصل ١٠ : ٣٧ .

(٢) الصحاح ، مادة (قضا) .

(٣) الصحاح ، مادة (أمم) .

(٤) تعليقات على الصحاح (مخطوطة العنانى) .

(٥) شرح الشافية ١ : ٢٧ .

وإِوَزَّة على إعلال الهمزة بقلبها ألفاً وإعلال الواو بقلبها ياء للكسرة التي قبلها ، لأن المثليين في آخر الكلمة ، وآخرها أثقل طرفيها ، إذ الكلمة يتدرج ثقلها بتزايد حروفها ، واللائق بالحكمة الابتداء بتخفيف الأثقل ، ألا ترى إلى قلب لام نوى أولاً دون عينه ، فلما أدغم أحد المثليين في الآخر في أئمة وإِوَزَّة — ومن شرط إدغام الحرف الساكن ما قبله نقل حركته إليه — تحركت الهمزة والواو الساكنتان فزالت علة قلب الهمزة ألفاً الواو ياء . »

وبعد هذه الهنات التي تتصل بالمواد اللغوية وما دخل بعضها من خلل أو خطأ نختم هذا الفصل بعيوب طريقة الجوهري — ومن تبعه من مؤلفي المعجمات — في ترتيب المواد حسب الأبواب والفصول .

أهم عيوب هذه الطريقة : وقوع الالتباس في الكلمة التي يكون آخر حرف منها حرف علة ، ولعل هذا ما حمل الجوهري على أن يجمع الواوى واليائى في باب واحد دون مراعاة ما كان منتهياً بواو أو منتهياً بياء ، وصعوبة ترتيب الكلمات الأحادية والثنائية ، وهى التي أتت منها الضمائر وحروف المعانى ، كما أن هناك من الكلمات ذات ذيول مستعارة كالـكلمات التي تنتهى بحروف غير أصيلة ولا أصلية ، أو ذات ذيول مقطوعة ، كالأسماء الخمسة ومثل : است وماء .

نسخة المؤلف

كتب الجوهري صحاحه بخط يده ، وكان قد ألفه لأبى منصور عبد الرحيم ابن محمد البيشكى ، وقيل : إنه سمعه منه إلى باب الضاد المعجمة ، وقيل :

لم يكن الصحاح كله مهذباً منقحاً ، بل كان ما بعد باب الضاد مسوداً من غير تنقيح أو تهذيب ، فلما مات الجوهرى تولى أبو إسحاق إبراهيم بن صالح الوراق — تلميذ الجوهرى — تبلييضه^(١) .

ونقل أبو سهل محمد بن علي بن محمد الهروى (٣٧٢ — ٤٣٣ هـ) — نزيل مصر — الصحاح من خط الجوهرى نفسه^(٢) رواية عن تلميذه أبي محمد إسماعيل ابن محمد بن عبدوس الدهان النيسابورى^(٣) .

ويذكر ياقوت الموصلى أنه نقل الصحاح من خط أبي سهل الهروى الذى نقله من خط المصنف ورواه عن ابن عبدوس عن المؤلف^(٤) .

ويذكر محمد بن عبد الله بن أبي البقاء البصرى^(٥) فى ختام نسخة الصحاح التى كتبها بخطه^(٦) أنه نقلها من خط المصنف .

وكل هذا يدل على أن المؤلف كتب صحاحه بخط يده ، ونسخته هذه كانت موجودة ، ونقل منها الهروى وابن أبي البقاء ، وكتب كل منهما نسخة من الصحاح ، إحداهما — وهى نسخة الهروى — نقل عنها ياقوت الموصلى ، والثانية ما تزال باقية حتى كتابة هذه السطور .

(١) معجم الأدباء ٦ : ١٥٧ ، ١٦١ .

(٢) تهذيب الصحاح ٤٨ — ٤٩ .

(٣) برع ابن عبدوس فى النحو واللغة والعروض ، وأخذ عن الجوهرى ، وأنفق ماله على الأدب وتقدم فيه (البغية ١٩٩) .

(٤) مقدمة تهذيب الصحاح ٤٨ .

(٥) هو محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن أبي البقاء البصرى ، أبو الفرج ، قاضى البصرة النحوى ، توفى سنة ٤٩٩ هـ . ومن مؤلفاته : « مقدمة فى النحو » و « كتاب المنقهرين » ، (أسماء المؤلفين ٢ : ٧٨ — ٧٩ البغية ٧٢) .

(٦) هذه النسخة فى خزانة كتب الأستاذ محمد خليل عنانى وعليها تعليقات بخط أبي الفرج قاضى البصرة ، وأكثر تعليقاته مما يتصل بالنحو والصرف ، وقد كتبت سنة ٤٥٠ هـ .

أما قول من قال : إن الكتاب بقي أكثره على سواده ولم يقدر له التنقيح والتهذيب ، ولم يُسمع من الجوهرى إلا إلى باب الضاد ، ولما مات بيّضه الوراق ؛ ففيه نظر .

يجوز أن اليشكى سمع حتى باب الضاد ، ويجوز أن أكثر الكتاب كان على سواده لم يبيّضه الجوهرى نفسه ، إلا أن فى قيام الوراق بتبييض المسود مجالا للقول .

وأعتقد أن الوراق بيّض نسخة كاملة له ، أما أنه أكمل تببيض نسخة المؤلف فيرده أن المروى وابن أبى البقاء نقلا نسختيهما من خط المصنف ، وأن الجوهرى ألف كتابه لليشكى الذى سمع منه إلى باب الضاد .

ولو صح أن فى نسخة المصنف ما كتب بخط غيره — وهو النصف على زعم الزاعمين — لأشار ياقوت وابن أبى البقاء ، لأنه أمر لا يمكن السكوت عليه .

ونخرج مما تقدم أن الصحاح وصل إلى الناس من ثلاث طرق :

أولا : طريق اليشكى الذى ألف الجوهرى الصحاح له .

ثانياً : طريق ابن عبدوس الذى سمع عليه المروى .

ثالثاً : الوراق الذى بيّض من الصحاح ما كان على سواده بعد موت مؤلفه .

وروى عن ثلاثتهم أيضاً ، وكلهم أخذ عن الجوهرى نفسه ، وكلهم ممن

اشتغل بالعلم واللغة ، إلا أن من اشتهر من هؤلاء بالسمع والإسماع والرواية :

ابن عبدوس . فالهروى وياقوت روياه عنه ، الأول رواه عنه وسمع منه ، والثانى

رواه متصلاً إلى ابن عبدوس .

وما أشك أن هناك طرقاً أخرى سلكها الصحاح للوصول إلى الناس ،
ومن هذه الطرق : طريق محمد بن تميم البرمكي الذي نقل الصحاح ، واستبدل
بترتيب مؤلفه ترتيباً آخر جديداً^(١) ، وطريق القاضي البصري الذي نسخ
الصحاح من خط مصنفه ، وطريق أحمد بن محمد بن أحمد الميداني النيسابوري
المتوفى سنة ٥١٨ هـ^(٢) .

أما القول بأن الوراق أكمل تبييض ما كان على سواده فالتقصيد منه تبرئة
الجوهري من تبعة الأوهام التي في صحاحه .

وأعتقد أن بعض المعجبين بالجوهري أرادوا أن يربأوا به من نسبة الخطأ
إليه ، ولم يرضهم أن يطعن هذا الإمام الثَّابِتُ ، ولم يكونوا يصدقون وقوع
خلل في كتاب يؤلفه هذا العبقري المبتكر ، فاعتذروا بأنه لم يسمع منه إلا
إلى حرف الضاد^(٣) .

وينقض اعتذارهم هذا أن القسم الذي يزعمون تبييضه وتنقيحه وتهذيبه
لم يسلم من الوهم ، والخللُ مبثوث في كل أبوابه ، ولو صح زعمهم لكان
القسم المنقح المذهب المقروء على المؤلف مُبرِّئاً من الخطأ ، أما وقد وقع فيه
فإن لنا أن نقول : إن بعض الأوهام من الجوهري ، وبعضها من النساخ ،
وجلٌّ من لا يخطيء .

يقول الباخرزي^(٤) في الحديث عن الصحاح : « هذا مع تصحيف فيه في

(١) معجم الأدباء (طبعة مصر) ١ : ١٥٧ .

(٢) معجم الأدباء (طبعة مرجليوث) ١ : ١٥٤ و ٢ : ١٠٨ .

(٣) مقدمة تهذيب الصحاح ص ٤٦ .

(٤) إنباه الرواة ١ : ١٩٥ .

مواضع عدة أخذها عليه المحققون ، وتتبعها العالمون ، وَمَنْ ما ساء قط ،
وَمَنْ له الحسنى فقط ؟ فإنه — رحمه الله — غلط وأصاب ، وأخطأ
المرمى وأصاب ، كسائر العلماء الذين تقدموه أو تأخروا عنه ، فإنى لا أعلم
كتاباً سُلِّم إلى صاحبه فيه ، ولم يتبعه بالتتبع من يليه .

ويقول القفطى^(١) عن الصحاح : « ودخلت منه نسخة إلى مصر
نظرها العلماء ، فاستجودوا مأخذها وقربه ، ولحوا فيها أوهاما كثيرة انتدبوا
لإصلاحها ، ولا شبهة في أنه نقلها من صُحُف فصَحَّفَ ، وانفرد في
تصريف الكلمة برأيه فخرَّفَ » .

ويقول ياقوت الموصلى عن الصحاح^(٢) « هذا الكتاب أرويه متصلا
إلى ابن عبدوس عن المصنف ، فما صح في هذه النسخة فهو الرواية من خطأ
أو صواب ، وما خالفها من زيادة أو تغيير فهو من كلام غير المصنف ،
وقد استدرك أبو سهل وبين بعض ما صحَّفه المصنف » .

ويقول التبريزى^(٣) : « فيه تصحيف لا يُشَكُّ في أنه من المصنف
لا من الناسخ ، ولا تخلو هذه الكتب الكبار من سهو يقع فيها
أو غلط » .

ونخلص من كل هذا إلى أن الجوهرى كتب صحاحه كله بخطه ، وفيه
بعض أوهام وغلطات هي منه ، أما النسخ التى كُتِبَتْ بأقلام النساخ فقد

(١) مقدمة تهذيب الصحاح ٤٩ وكشف الظنون (هامش) ٢ : ١٠٧٤ .

(٢) مقدمة تهذيب الصحاح ٤٩ .

(٣) كشف الظنون ، رسم الصحاح .

وقعت فيها أوهام كثيرة ، وأمر النساخ معروف ، إلا أن نسخة القاضي البصري^(١) من خير النسخ التي رأيتها ، ورأيت نسخة يوثق بها في مكتبة شيخ الإسلام بالمدينة المنورة كتبت سنة ٦٨٦ هـ ورقمها بالمكتبة ٧٩ وأوراقها ٣٩١ في مجلد واحد ، وكانت النسختان — مضافا إليهما نسخة دار الكتب المصرية — وبعض نسخ آخر اعتمادي في تحقيق الصحاح .

ومن الصحاح نسخ كثيرة بأكثر مكتبات العالم ، ففي مكتبة المتحف العراقي بضع نسخ نفيسة قديمة كتبت في القرن السادس والسابع والثامن للهجرة^(٢) .

(١) أوراتها ٦٠٠ في مجلد ، ونسخت سنة ٤٥٠ هـ وهي بخط القاضي البصري المتوفى سنة ٣٩٩ هـ وعلمها حواش وتعليقات للقاضي البصري ، وعلى النسخة تملك للشيخ أحمد بن عبد الرحمن بن محمد ابن سعد بن مضا . اللخمي ، وهي الآن في خزانة الأستاذ محمد خليل عناني من أهل مكة المكرمة .
(٢) مجلد معهد المخطوطات العربية ، العدد الأول رمضان ١٣٧٤ هـ (١٩٥٥ م) ص ٤٣ مقال كوركيس عواد .

أثر الصّاح

كان لظهور الصّاح بنظامه الجديد المبتكر الذى لم يألّفه الناس من قبل — وهو النظام الذى مكن لهم الاطلاع على اللغة فى سهولة ويسر — أثر جليل فى إقبال الناس عليه ومدارسته ونقده وتكلمته وحفظه والتعليق عليه ، وأحدث بذلك آثاراً لا تمحى فى التأليف المعجمى والتصنيف اللغوى ، ولم يُخَدَمْ معجم عربى — إطلاقاً — مثلاً خُدِمَ صّاح الجوهرى ، فقد تناولته أئمة اللغة باهتمام عظيم وحفاوة بالغة ؛ وقَدَرُوهُ حق قدره ، واختطوا منهجه ، ومازالت طريقته فى بعض مبتكراته متبوعة فى تأليف المعجمات الحديثة — الآن — وستتبع فى المستقبل .

ودفع الصّاح بعض أئمة اللغة إلى تأليف معجمات ضخمة ، كما كان مشار بحث ونقاش بين العلماء ، وما يزال الصّاح منذ أَلْفٍ حتى يومنا هذا موضع التّجَلّة من أهل العلم ، ومن يوم أن أَلْفَ وهو واسع الخطى فى سيره بل طفره ، يطوى المسافات والأجيال ؛ وهو عظيم القدر مرموق المكانة مرفوع الذرى ، حتى أن خصومه وحساده أجبروا على أن يشيدوا به .

وكان تأليف الجوهرى صحاحه فتحاً جديداً فى التأليف المعجمى ، بل كان أعظم فتح فى تاريخه ، وهو وحده الذى وجّه التأليف المعجمى وجهة صالحة ، وإلا لو اتبع المؤلفون طريقة الخليل وأبناء مدرسته كابن دريد والأزهري وابن سيده لكانت المعجمات العربية مغلقة الأبواب أمام الناس ، عذراء لا يفتضحها إلا الراسخون فى العلم ، وهم يعدون على الأصابع .

ومن هنا تظهر قيمة الجوهرى الذى ابتكر طريقة جديدة لم يسبق إليها ؛
والذى وضع قواعد فى ترتيب الكلمات — ما تزال هى قاعدة مؤلفى
المعجمات فى ترتيب الكلمات كما أشرنا إليه فى مقدمتنا هذه — وإن طريقته
البكر أُرُوِدَت الصعب ، وأسست قياد العاصى الحرون ، وسهلت البحث
أمام الشداة والعلماء ، وزُوِدَت العلماء بثروة لغوية تقدر بأربعين ألف مادة
من « تاج اللغة وصحاح العربية » .

وكان الصحاح شغل العلماء والأمصار ، إذا قدم عالم بلداً سأل أهله
عن الصحاح ، كما صنع المصريون مع ابن القطاع ، فهو حينما دخل مصر
سئل عنه ، ولما رأى رغبة المصريين فيه وكثرة اشتغالهم به ركب عليه
طريقاً ورواه لهم^(١) .

بل كان المؤرخون يعدون من مزايا العالم أو الأديب اتصاله بالصحاح
أى اتصال كان ، ويحسبونه من المفخر والمزايا مما يدل على عِظَم قدره
وسمو منزلته ، فالمؤرخون يذكرون أن أبا على الواسطى : الحسن محمد بن
عُبدوس^(٢) — بضم العين — كتب الصحاح بخطه ، وأن ياقوت الموصلى
كان مغرى بنسخ الصحاح ، ويذكر ابن خلكان أنه رأى عديداً من
النسخ بخط ياقوت ، وكل نسخة تباع بمائة دينار ، وأن أبا سهل الهروى
والقاضى البصرى وغيرهما نقلوه بخطه .

(١) إنباه الرواة ١ : ١٩٥ .

(٢) كان ابن عبدوس فاضلاً قيماً بالأدب ، حسن المعانى مليح الإيراد طيب الأخلاق ، متودداً
ظريفاً توفى سنة ٦٠١ هـ (البغية ٢٢٩) .

ويذكر أن ابن النحاس الحلبي^(١) تفرد بسماع الصحاح ، وأن تاج الدين الخوارى^(٢) حفظ كتاب الصحاح « عن ظهر قلب » بعد ما قرأه على الميداني ، وأن علي بن زيد بن أبي القاسم البيهقي (٤٠٩ - ٥٦٥ هـ) صحح كتاب الصحاح على الميداني في الحرم من سنة ٥١٦ هـ^(٣) ، وأن ابن معطي الزاواوي كان يحفظ الصحاح^(٤) .

أما الذين درسوا الصحاح وألفوا حوله أو أكملوه أو نقدوه أو كتبوا حواشي وتعليقات أو اختصروه أو نقلوه إلى لغات أخرى فكثير ؛ منهم : البرمكي ، والهروي ، وياقوت الموصلي ، والقصباني ، وابن القطاع ، وابن برّي ، والصغاني ، والبسّطي ، والزنجاني ، والخوارى ، والقفطي ، والبطلاني ، والإشيلي ، والشاطبي ، والصفدي ، والسيوطي ، والتادلي ، والقرافي ، والقرشي ، والفيروزبادي ، وابن منظور ، وابن الصائغ ، والرازي ، والشريف ، والقرماني ، والقارصي ، والهمداني ، والفيشي ، والأويسى ، والجوابي ، وأبو الكرم المدني ، ومحمد الحنفي ، وعلي العلي ، والزنجاني الخزرجي ، والبصري ، والبحر اليمني ، والداوودي ، وعبد القادر اليمني ، والقولي ، وابن معطي .

(١) هو أبو عبد الله بهاء الدين محمد بن إبراهيم بن محمد بن أبي نصر ، الإمام العلامة ؛ شيخ الديار المصرية في علم اللسان ، ولي تدريس التفسير في الجامع الطولوني ، وكان زاهدا ورعا تقيا ، توفي سنة ٦٩٨ هـ (البغية ٦) .

(٢) هو تاج الدين محمود بن أبي المعالي بن الحسن الخوارى اللغوي وكان حيا سنة ٥٨٠ هـ وهو من المشتغلين باللغة والتأليف فيها (معجم الأدباء ، طبعة مرجليوت) ١ : ٤١٥ ، ٢ : ١٠٨ .

(٣) معجم الأدباء لياقوت ، طبعة مرجليوت ٦ : ٢٠٨ - ٢٠٩ .

(٤) البغية ٤١٦ .

وبعض هؤلاء ألف حول الصحاح غير كتاب ، مثل القرشي ، والصغاني ،
والسيوطي ، والصفدي ، والشريف ، والقراقي .

وكل هذا يدل على ما لقي الصحاح من المجد والشهرة والعناية والاهتمام
ما لم يلقه معجم سواه ، وألوان النشاط الحى الذى بعثه ألوان جليلة رائعة ،
والنواحي التى أثر فيها كثيرة ؛ أعظمها : التعليقات ، والحواشي ، والتكملات ،
والمستدركات ، والمقارنات ، والنقد ، والدفاع ، والجمع بينه وبين غيره من
المعجمات ، والمختصرات ، والترجمات ، والنظم .

وها نحن أولاء نعقد لكل ناحية من هذه النواحي فصلا نوجز
الكلام فيه ، والإشارة إلى الدراسات التى قامت حول الصحاح وإلى الكتب
المؤلفة فيه أو المشتقة منه .

التعليقات

علق كثير من الأئمة على الصحاح تعليقات يتصل بعضها بتوضيح
ما غمض منه ، ونسبة الشواهد الشعرية الغفل ، وتصحيح أسماء الأعلام
والبلدان ، وتصويب بعض أوهام الجوهرى ، وأقدم هذه التعليقات ما كتبه :

١ - أبو نعيم على البصرى ، أحد أئمة الأدب واللغة ، وهو الذى
نزل عنده المتنبي لما ورد بغداد ، وله ردود على جماعة من أئمة اللغة الأعلام
كأبي زياد الكلابي وأبي على الشيباني وأبي عبيد وابن السكيت وثلعب
وابن ولاد والدينورى والجاحظ ، وتوفى سنة ٢٧٥ هـ^(١) وله بعض تعليقات
على الصحاح .

(١) البنية ٣٢٧ ، أسماء المؤلفين ١ : ٦٨٢ .

٢ — أبو سهل محمد بن علي بن محمد المروى (٣٧٢ — ٤٣٣ هـ)
نزيل مصر ، وأحد أئمة اللغة في عصره ، وله فيها تواليف : مثل : شرح
الفصيح ، نقل الصحاح بخطه من خط الجوهرى نفسه ورواه عن إسماعيل
ابن محمد بن عبدوس النيسابورى ، وقد استدرك أبو سهل بعض الاستدراك ،
وبين بعض ما صحفه الجوهرى^(١) ، وقد دون محمود بن أحمد الزنجاني في كتابه
« تهذيب الصحاح »^(٢) بعض تعليقات المروى وتصحيحاته .

٣ — محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن أبي البقاء البصرى
أبو الفرج النحوى القاضى بالبصرة ، توفى في المحرم من سنة ٤٩٩ هـ وله
كتاب « مقدمة في النحو » و « كتاب المتقعرين »^(٣) وقد كتب
الصحاح بخطه وعلق على بعض المواضع تعليقات نحوية وصرفية ، وقد نقلنا
عنه في مقدمتنا هذه تعليقة منها ، ونسخته موجودة^(٤) .

٤ — أبو زكريا التبريزى ؛ يحيى بن علي بن محمد (٤٢١ — ٥٠٢ هـ)
أحد أئمة اللغة والنحو ، أخذ عن أبي العلاء المعرى ، وله مؤلفات نفيسة ؛
منها : شرح الدرديدية ، وشرح شعر المتنبي ، وشرح شعر أبي تمام ، وشرح
المفضليات ، وشرح القصائد العشر ، وتفسير القرآن والإعراب .
وله تقييدات على الصحاح ، اطلع عليها مرتضى الزبيدى ، ونسخة
الصحاح هذه بخط ياقوت في ثمان مجلدات ، وعليها تقييدات لابن
برى أيضاً^(٥) .

(١) كشف الظنون (هامش) ٢ : ١٠٧٤ ، مقدمة تهذيب الصحاح ٤٩ .

(٢) نشر محمد سرور الصبان ، وتحقيق كاتب هذه السطور والأستاذ عبد السلام هارون .

(٣) أسماء المؤلفين ٢ : ٧٨ — ٧٩ والبغية ٧٢ .

(٤) مخزاة كتب محمد خليل عناني .

(٥) مقدمة التاج ، صفحة ٤ .

٥ — أبو الدر؛ أمين الدين؛ ياقوت بن عبد الله الموصلی (٠٠٠ - ٦١٨ هـ) المعروف بالملكي نسبة إلى السلطان ملكشاه أبي الفتح بن سلجوق، وكان ياقوت مغري بنسخ الصحاح فكتب منه نسخا كثيرة، كل نسخة في مجلد واحد، ويذكر حاجي خليفة عن پير محمد بن يوسف الأتقروى أنه رأى نسخة من الصحاح بخط ياقوت الموصلی، ذكر في آخرها ما هذه صورته :

« يقول ياقوت : نقلت هذا الكتاب من خط الشيخ أبي سهل محمد بن علي الهروى النحوى — رحمه الله — وذكروا أنه نقله من خط المصنف، ورواه عن إسماعيل بن محمد بن عبدوس عن المصنف، وشاهدت بخط ابن عبدوس على النسخة التي نقلت منها ما هذا حكايته : قرأ عليّ الشيخ أبو سهل محمد بن علي بن محمد الهروى أكثر هذا الكتاب، وسمع ما فيه بلفظي بقراءتي عليه، فصحّ سماع جميعه مني، وروايته عنى، وذلك في سنة ٤٢١ هـ، وكتبه إسماعيل بن محمد بن عبدوس الدهان النيسابورى. ويقول ياقوت : هذا الكتاب أرويه متصلا إلى ابن عبدوس عن المصنف، فما صح في هذه النسخة فهو في الرواية من خطأ أو صواب، وما خالفها من زيادة أو تغيير فهو من كلام غير المصنف، وقد استدرك أبو سهل وبين بعض ما صحّفه المصنف. قال ياقوت : وقد أثبت ذلك في موضعه، ولى أيضا مواضع قد نبهت عليها من سهو المصنف ومن سهو وقع في خط أبي سهل، على أن الكتب الكبار لا تخلو من ذلك » .

٦ — أبو نصر الهورينى، وقد علق على الصحاح — النسخة المطبوعة ببولاق — تعليقات جليّة رائعة .

٧ — الشريف أحمد سقى الدمشقي المكي ، علق على نسخته الخاصة المطبوعة من الصحاح بمطبعة بولاق ، وله عليها نقود يسيرة ، ولكنها جيدة ، وقد ملكت هذه النسخة .

٨ — كاتب هذه السطور — أحمد عبد الغفور عطار من أهل مكة المكرمة — فقد علق على النسخة المطبوعة من الصحاح بعد أن ضبط كل كلمة فيه بالشكل ، وصحح بعض أوهام الجوهرى ، كما رد على من وهَّموه خطأ ، وهذه التعليقات منشورة في طبعة الصحاح هذه ، كما نشر بعضها في « تهذيب الصحاح » الذى طبع منذ بضع سنين .

٩ — عبد السلام محمد هارون الأستاذ بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة ، له تعليقات على الصحاح دوَّنها عندما حقق معنى « تهذيب الصحاح » للزنجاني ، وهى تعليقات رائعة مفيدة .

الحواشى

١٠ — أقدم ما وصل إلينا من علم حول الحواشى ما كتبه أبو القاسم الفضل بن محمد بن على القصبانى البصرى^(١) المتوفى سنة ٤٤٤ هـ ، وهو أحد علماء البصرة الأجلاء فى اللغة والنحو ، وإليه كانت الرحلة فى زمانه ، ومن مؤلفاته : كتاب فى النحو ، والأمالى ، والصفوة فى أشعار العرب ، وكتاب « حواشى الصحاح »^(٢) .

(١) معجم ياقوت طبعة مرجليوث ٦ : ١٤٣ .

(٢) أسماء المصنفين ١ : ٨١٩ .

١١ — على بن جعفر بن على السعدى المعروف بابن القطاع الصقلى (٤٣٣ — ٥١٥ هـ) ولد فى صقلية ، ولما احتلها الفرنج انتقل إلى مصر وأقام بالقاهرة يعلم ولد الأفضل الجمالى أمير الجيوش ، ويقول عنه النقاد المصريون : إنه متساهل فى الرواية ، وذلك أنه لما قدم مصر وسأله عن الصحاح وذكر لهم أنه لم يصل إلى المغرب ، ولما رأى رغبة المصريين فيه وكثرة اشتغالهم به ؛ ركب لهم إسنادا ورواه لهم ، فقلدوه ، ومن تصانيفه : الأفعال ، وأبنية الأسماء ، وتاريخ صقلية ، و « حاشية على الصحاح » وقد رواه عن أبى بكر الصقلى^(١) .

١٢ — أبو محمد عبد الله بن برى المقدسى المصرى (٤٩٩ — ٥٧٦ أو ٥٨٢ هـ) أحد أئمة اللغة والنحو ، ولم يكن بمصر مثله علما وذكاء واطلاعا ، له مؤلفات ؛ منها : « الاختيار فى اختلاف أئمة الأمصار » و « اللباب على ابن الخشاب من حواشى درة الغواص » و « التنبيه والإيضاح عما وقع فى كتاب الصحاح » و « الإيضاح فى حاشية الصحاح^(٢) » : ولعل التنبيه غير الإيضاح ، أو لعله ألف الإيضاح كله تأليفاً ، أما « التنبيه » فقد تعاون فى تأليفه ابن برى وأستاذه ابن القطاع ثم البسطى الذى أكمله .

١٣ — التنبيه والإيضاح عما وقع من الوهم فى كتاب الصحاح ، ابتداء به ابن القطاع ثم بنى عليه ابن برى ولكنه لم يكمله ، بل أدركته المنية وهو فى باب الشين فصل الواو (وقش أو ومش) فبقى ناقصاً^(٣) .

(١) أسماء المصنفين ١ : ٦٩٥ وإنباه الرواة ١ : ١٩٥ والبعية ٣٣١ .

(٢) كشف الظنون ٢ : ١٠٧٢ .

(٣) المصدر السابق .

١٤ — وجاء الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأنصارى البسطى — نسبة إلى بسطة بالفتح ؛ من كورة جيان بالأندلس — وتولى إكمال « التنبيه » عام ٦٢٢ هـ^(١) ، ولعل هذه الحواشى المعروفة بحواشى ابن برى ؛ والحواشى التى تسمى « التنبيه والإيضاح عما وقع من الوهم فى كتاب الصحاح » أجود ما كتب على الصحاح من حواش ، وقد استدرکوا فيه على الجوهري ، وصححوا نسبة بعض الشواهد الشعرية ، ونقدوا أحكامه النحوية والصرفية ، والمواد التى وُضعت فى غير مواضعها ، وبعض تفسيره الكلمات .

١٥ — أبو عبد الله رضى الدين محمد بن على بن يوسف الأنصارى الشاطبي ، ولد فى بلنسية سنة ٦٠١ هـ وتوفى فى مصر سنة ٦٧٤ أو ٦٨٤ هـ ، كان إمام عصره فى اللغة ، عالى الإسناد فى القرآن ، معظماً ، مهيباً ، له كتاب « حواشى الصحاح »^(٢) .

١٦ — وقد اختار أحد المؤلفين من حواشى ابن برى على الصحاح مختارات جمعها وأطلق عليها اسم « تعليق لغة من حواشى الصحاح للجوهري من كلام ابن برى » ومنه نسخة بمكتبة كوپرللى تحت رقم ١/١٥٢١ وأوراقها ٢٣ ، كتبها الشيخ أحمد بن عبد القادر بن مكتوم القيسى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ^(٣) .

(١) كشف الظنون .

(٢) البغية ٨٣ .

(٣) فهرس المخطوطات المصورة ١ : ٣٤٧ .

كتب جمعت الصحاح وغيره

قام بعض اللغويين بتأليف معجمات جمعوا فيها بين الصحاح وغيره من المعجمات ، ومنهم :

١٧ — تاج الدين محمود بن أبي المعالي بن الحسن الخوارى^(١) اللغوى المعروف بابن الخوارى ، ألف كتاباً سماه « ضالة الأديب من الصحاح والتهذيب » أو « ضالة الأديب فى الجمع بين الصحاح والتهذيب » انتقد فيه على الجوهري كثيراً من المواضع ، وقال عنه أحمد بن على البيهقي : « كان الخوارى إماماً فى القراءات والأدب ، حَفِظَ كتاب الصحاح عن ظهر قلب بعد ما قرأه على أبى الفضل أحمد بن محمد الميدانى وبرع فى اللغة ، وله النثر الفائق ؛ والشعر الرائق ؛ وكان واحد نيسابور علماً وفضلاً وأدباً ، وله مؤلفات منها : « المحيط بلغات القرآن » وكان حياً سنة ٥٨٠ هـ^(٢) .

١٨ — ولابن أبى المعالى الخوارى كتاب آخر اسمه « ينابيع اللغة » جرّد فيه صحاح الجوهري من الشواهد ، وضمّ إليه من « تهذيب اللغة » للأزهري ، و « الشامل » لأبى منصور الجبان^(٣) ، و « المقاييس » لابن

(١) الخوارى ؛ نسبة إلى خوار ، بضم الخاء المعجمة : مدينة بين الرى وسمنان (أسماء المؤلفين ٢ : ٤٠٤) .

(٢) معجم الأدباء ، طبعة مرجليوث ١ : ٤١٥ ، ٢ : ١٠٨ ، ٢ : ٢٧١ ، ٧ : ١٥١ — ١٥٢ والبغية ٣٩٠ وأسماء المصنفين ٢ : ٤٠٤ ومقدمة معجم إدوارد لين .

(٣) هو محمد بن على بن عمر بن الجبان . قال ياقوت : أحد حسنة الرى وعلمائها الأعيان ، جيد المعرفة باللغة ، وكان من ندماء صاحب بن عباد ، وله : « أبنية الأفعال » و « شرح الفصيح » و « الشامل » فى اللغة ؛ قرئ عليه سنة ست عشرة وأربعمائة . (البغية ٧٩) .

فارس ؛ قدراً صالحاً من الفوائد والفرائد ، وهو كتاب صالح كبير الحجم يقرب من حجم الصحاح ، وهو غير كتاب « ضالة الأديب في الجمع بين الصحاح والتهذيب » . و « ينابيع اللغة » لابن الخوارى غير « ينابيع اللغة » لأبى جعفر أحمد بن على المعروف بجعفر ك المتوفى سنة ٥٤٤ هـ ^(١) . وقد أعدنا ذكر هذا الكتاب فى باب المختصرات ، لأن الخوارى اختصر الصحاح ثم ضم إليه قدراً صالحاً من الشامل والمقاييس .

١٩ — أبو إسحاق إبراهيم بن قاسم البطلانيّ النحوى المعروف بالأعلم — وهو غير الأعلم المشهور المسمى يوسف بن سليمان الشنتمرى — وكان البطلانيّ أديباً وشاعراً ، برع فى النحو . توفى سنة ٦٤٢ هـ وقيل : ٦٤٤ هـ وقيل : ٦٤٦ هـ . وألف كتاباً سماه « الجمع بين الصحاح والغريب المصنف » والأخير لأبى عبيد القاسم بن سلام ^(٢)

٢٠ — أبو الفضائل ؛ رضى الدين ؛ الحسن بن الحسن بن حيدر الصغانى (٥٨٧ — ٦٥٠ هـ) ألف كتاباً عظيماً سماه « مجمع البحرين » جمع فيه بين الصحاح وكتابه المسمى « التكملة والذيل والصلة » وهو الكتاب الذى جمع فيه ما أهمله الجوهري ، وسيأتى التعريف به فى قسم « التكملات » وطريقة الصغانى فى مجمع البحرين أنه ذكر الصحاح ورمز له بحرف ص ثم ذكر كتابه التكملة وجعل علامته حرف ت ثم أردفها بحاشية أشار إليها بحرف ح ، يذكر المادة من الصحاح ، فإذا انتهى منها ذكر المادة من التكملة ؛ ثم ذكر ما ليس فيهما مما وصل إليه علمه ، ومن

(١) كشف الظنون ٢ : ١٠٥٢ .

(٢) أسماء المؤلفين .

« مجمع البحرين » مصورة بدار الكتب المصرية منقولة عن مخطوطة بمكتبة كوبريللى بالآستانة ، وهى فى ستة مجلدات^(١) .

٢١ — تاج الدين عبد الوهاب بن إبراهيم بن عبد الوهاب بن المعالى الخزرجى الزنجانى البغدادى ؛ الفقيه الأديب اللغوى ؛ المعروف بالزنجانى ؛ الشافعى — وهو غير الزنجانى محمود بن أحمد بن بختيار — ألف كتاباً عنوانه « المغرب عما فى الصحاح والمغرب » أو « المغرب فى الجمع بين الصحاح والمغرب » أتمه فى سنة ٦٣٨ هـ فى المدرسة القاهرية بالموصل ، فصل فيه نص الصحاح عن المغرب وأشار إلى الصحاح بحرف ص وإلى المغرب بحرف م والمغرب لأبى الفتح ناصر بن عبد السيد المطرزى المتوفى سنة ٦١٦^(٢) هـ ، وللزنجانى مؤلفات ، وله التصريف المشهور بتصريف العزى ، ومتن الهادى ، وشرح الهادى ، وتوفى بعد سنة ٦٥٤^(٣) هـ .

٢٢ — لسان العرب ، لأبى الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقى المصرى الأنصارى الخزرجى (٦٣٠ — ٧١١ هـ) جمع فيه بين صحاح الجوهرى وحواشيه وتهذيب الأزهرى ومحكم ابن سيده ونهاية ابن الأثير واتبع طريقة الجوهرى .

ويحتوى اللسان ثمانين ألف مادة ، وهو « دائرة معارف » ويعد من أعظم معجزاتنا ، وقد طبع فى مصر فى عشرين مجلداً .

(١) فهرس المخطوطات المصورة ١ : ١٧٠ .

(٢) البلغة ١٧٠ .

(٣) البنية ٣١٨ .

وللشيخ المرصفي تعليقات ونقدات واستدراكات وتصحيحات على نسخته المطبوعة، تكاد تبلغ حجم اللسان نفسه، كما أن المستشرق كرنكو تعليقات تبلغ نصف حجم اللسان، وحبذا عناية من ينشر اللسان بهذه التعليقات وإضافتها إليه، ولو أضيفت إليه نُحْدِمَت العربية خدمة جليلة، ولكني أعتقد أن من ينشرون اللسان في هذه الأيام تجار لا يعينهم العلم ولا تطعيم المعرفة.

٢٣ — تهذيب التهذيب، تأليف أبي الثنائي؛ صفي الدين محمود ابن أبي بكر بن حامد التنوخي الأرموي الدمشقي الشافعي، وقيل: محمود ابن محمد (٦٤٧ — ٧٢٣ هـ) وهو في خمسة مجلدات، وقد التزم فيه «الصحيح والتهذيب والمحكم» مع غاية التحرير والضبط المحكم^(١).

٢٤ — التهذيب بالترتيب وما في الصحيح والمحكم بالتقريب. مجهول المؤلف، وقد جمع فيه مؤلفه بين «تهذيب اللغة» للأزهري و«الصحيح» للجوهري و«المحكم» لابن سيده، وقد أتى المؤلف بكل مواد التهذيب، ومعظم ما في الصحيح والمحكم، ومنه نسخة بمكتبة «داماد زاده ملا مراد» بالآستانة، ورقمها بها ١٧٣١ وهي في ستة مجلدات^(٢).

٢٥ — تاج الأسماء في اللغة. مجهول المؤلف، وجمع فيه مصنفه «الصحيح» و«الأسماء» للزمخشري، و«السامى» للميداني، والتزم فيه المؤلف طريقة الصحيح^(٣).

(١) كشف الظنون ٢ : ١٦١٧ ومقدمة التاج ١ : ٤ .

(٢) مقال المؤلف عنوانه : « نسخ تهذيب اللغة في العالم » .

(٣) كشف الظنون ٢ : ١٥٩٩ .

٢٦ — مرقاة اللغة . مجهول المؤلف . وقد أخذ من الصحاح أربعة عشر ألف كلمة ؛ ومن القاموس ستة عشر ألف كلمة . وذكر صاحب البلغة^(١) أن اسم الكتاب « مرقاة النفوس » وصاحب كشف الظنون^(٢) « مرقاة اللغة » فاخترناه هنا .

التكملات والمستدركات

٢٧ — المنتهى . لأبي المعالي محمد بن تميم البرمكي اللغوى ، وهو منقول من الصحاح ، وزاد فيه أشياء قليلة ، وأغرب في ترتيبه — كما قيل في وصف طريقته — ورتبه على الحروف الأوائل^(٣) ، وصنفه في سنة ٣٩٧ هـ ، « والمنتهى » أول كتاب حول الصحاح ، ومنهج البرمكي في ترتيب مواده مبتكر ، وهو أول من رتب هذا الترتيب — بعد أبي عمرو الشيباني — وقد سبق البرمكي الزمخشري في نظامه الذى اتبعه في « أساس البلاغة » ووهم الناس فظنوا أن الزمخشري مبتكر طريقة ترتيب المعجم على أوائل الحروف مثل ترتيب المعاجم الحديثة ، وكان عمل البرمكي في الصحاح أنه جعله على الترتيب المعروف في معجمائنا هذه الأيام^(٤) . وقد رأيت قطعة منه في المكتبة الخاصة بالشيخ إبراهيم الخربوطلى ؛ أمين مكتبة شيخ الإسلام بالمدينة المنورة — غفر الله له ورحمه — ومنه قطعة في ست ورقات بمكتبة كوبريللى رقم ٦٥١١/٢^(٥) .

(١) البلغة ١٦٧ .

(٢) كشف الظنون ٢ : ١٦٥٧ .

(٣) فهرس المخطوطات المصورة ١ : ٣٧٥ .

(٤) انظر صفحة ١٣٣ — ١٣٦ من كتابنا هذا .

(٥) فهرس المخطوطات المصورة ١ : ٢٧٥ .

٢٨ — التكملة والذيل والصلة . تأليف الإمام رضى الدين ؛
أبى الفضائل : الحسن بن محمد بن الحسن الصغانى (٥٧٧ — ٥٦٠ هـ) .
وهذا الكتاب معروف بالتكملة ، جمع فيه ما أهمله الجوهري ، وبلغت
مراجعته ألف كتاب فى غريب القرآن والحديث واللغة والنحو والصرف
وأخبار العرب وأيامهم وأشعارهم وحيوانهم وأسلحتهم وغير ذلك ، والتكملة
خير ما ألف حول الصحاح وتكملاته وحواشيه وإصلاح خله وتصحيح
وهمه ، ويضم ستين ألف مادة ، وفرغ من تأليفه أمام بيت الله الحرام
صبيحة يوم الجمعة وقت فتح باب بيت الله الحرام ؛ العاشر من صفر سنة
خمس وثلاثين وستمائة للهجرة .

وأراد الصغانى من تأليف كتابه أن يكمل الصحاح ، ويورد ما أغفله
الجوهري ، وقد وفق الصغانى لما قصد إليه وأراد ، فكتابه تكملة للصحاح
حقاً ، واستدرك على الجوهري ستين ألف مادة من النوادر والفصح وصحيح
اللغة ، ووجدت فى التكملة مئات الكلمات المستعملة فى اللغة العامية — وظن
أنها عامية ؛ ويتحاشى الكتاب استعمالها — فصيحة مما تكلم به العرب ، وقد
أشرت إلى كثير منها فيما نشرت حول اللغة العامية وقواعدها ، ونشرت
بعضها فى كتابى المسمى « بحوث فى اللغة » وهو تحت الطبع .

ولم يقف عمل الصغانى على التكملة واستدراك ما فات الجوهري أو أهمل
من مواد اللغة ، بل صحح له كثيراً من الأوهام والغلط والتصحيف والتحريف
فى الكلمات والأعلام وأسماء المواضع ، وأكمل الشواهد الشعرية الناقصة ،
وصحح نسبة كثير منها ورواياتها مما أخطأ فيه الجوهري ، وصحح ما ظنه حديثاً
وهو ليس بحديث ، وما ظنه ليس بحديث وهو حديث شريف .

ونسخة المؤلف بإحدى مكتبات تركيا ، وهي بخط الصغاني — رحمه الله — ومصورتها بالإدارة الثقافية بالجامعة العربية ، ومنه نسخة بمكتبة شيخ الإسلام بالمدينة المنورة ، لا يعرف نسخها ؛ وجاء في أواخرها : أنها « نسخت من نسخة المصنف وقوبلت عليه في التاريخ المذكور » أى سنة ٦٣٥ هـ ولكن كُتِبَ خطأ من قلم الناسخ في آخر الكتاب عندما نقل كلمة الصغاني التي ذكر فيها تاريخ فراغه من تأليف التكملة وهو سنة ٦٣٥ هـ ولكن الناسخ أخطأ قلمه فكتب أن تاريخ الفراغ كان سنة سبعمائة بدل ستمائة ، والمعروف أن الصغاني فرغ من التأليف سنة ٦٣٥ هـ .

وهذه المخطوطة في مجلد ضخيم ؛ ورقمها بمكتبة شيخ الإسلام ٤٢ لغة ، وفي خزانة كتبي مصورة هذه النسخة ، وهي في اثني عشر مجلداً ، كما تضم خزانتي مصورة لنسخة دار الكتب المصرية المكتوبة سنة ٦٤٢ هـ في سنة مجلدات ، وفي آخر ورقة منها ثبت بمراجعته ، وعليها بخط السيد محمد مرتضى الزبيدي ما يفيد أنه قابل هذا الكتاب وعارضه على كتابه « تاج العروس » من أوله إلى آخره في مجالس آخرها ثاني ربيع الأول سنة ١١٩١ هـ ، ومنه نسخة بالمكتبة المحمودية في أربعة مجلدات ، وهي جيدة موثوق بها .

وقد أردت نشر التكملة مع الصحاح ، وكنت طبعتم بضع « كراسات » ولكنني وجدت وقتي غير متسع لهذا العمل الضخم ، فأرجأت نشر التكملة ، وهذا ما جعل في الصحاح ناحية لم أبذل فيها كل جهدي ؛ تلك هي الإشارة إلى كل ما في الصحاح من وهم ، لأنني كنت أريد نشر هذين المعجمين نشرًا علميًا جديدًا ، وذلك بأن أورد المادة من الصحاح ، ثم أتبعها بتكملتها من التكملة ، ومع هذا يجد القارئ أنني لم أهمل الإشارة إلى أوهام الصحاح

كل الإهمال ، بل عنيت ، وأرجو الله أن يوفقني لنشر التكملة ، وقد أعددت
العدة لنشر تهذيب الأزهري وتكملة الصغاني بعد أن أنتهى من طبع الصحاح ،
والله الموفق لما صمدت له .

٢٩ — الذيل والصلة لكتاب التكملة وحاشيتها ، للصغاني أيضاً ؛
وذكر في مقدمته قائلاً : « هذه حاشية ذيل الصحاح في اللغة من تأليف
المسمى بالتكملة وصلته ، أفردتها تسهيلاً على الطالب ؛ وتيسيراً على الراغب ،
فمن حواها والتكملة حاز جميع ما فات الجوهرى ، ومن جمع بينها وبين الصحاح
أو اقتنى كتابي المسمى بمجمع البحرين حاز اللغة بحذافيرها » ومنه نسخة بمكتبة
مراد ملا تحت رقم ١٧٦٦ وأوراقه ٣١١ وقد كتبت في حياة المؤلف وعلى
هوامشها تصحيحات بخطه ، وكذلك العنوان بقلمه^(١) .

٣٠ — ما أهمله الجوهرى من لغة ؛ للصغاني أيضاً ، وهو كتاب صغير
أكمل به التكملة ، ذكر فيه ما فات ذكره فيها ، وترتيب كل معجمات
الصغاني على طريقة الصحاح .

٣١ — القراح بتكامل الصحاح . من تأليف أبي الفضل محمد بن
عمر بن خالد القرشى المعروف بجمالى القرشى ، وكان حياً سنة ٦٨١ هـ ، وهو
تكملة للصحاح^(٢) ، ولكنه ليس كتكملة الصغاني ، وترتيب مواده مثل
ترتيب الصحاح ، واستدرك القرشى على الجوهرى مواد ، ونقده في مواضع .

(١) نقلنا ما كتب عن الذيل من فهرس المخطوطات المصورة ١ : ٢٥٥ .

(٢) معجم سر كيس ٧٠٧ ومخطوطة « الصراح من الصحاح » بمكتبة شيخ الإسلام بالمدينة
النورة .

٣٢ — كتاب الإمام اللغوى عبد الله بن السيد المهدي بن محمد بن مسعود بن الحوالى الحميرى الملقب بالبحر ، وهو من علماء اليمن ، توفى سنة ١٠٦١ هـ وقد استدرك فيه على الصحاح وسماه صاحب أسماء المؤلفين^(١) « شرح القاموس » . وهو ليس بشرح ، بل استدرك على القاموس والصحاح ، وهو فى مجلد واحد^(٢) .

٣٣ — القاموس المحيط والقابوس الوسيط فيما ذهب من كلام العرب شمايط ، لمجد الدين أبى طاهر محمد بن يعقوب بن محمد الشيرازى الفيروزبادى (٧٢٩ — ٨١٦ هـ) ويتصل نسبه بأبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وكان المجد ممن فاقوا أقرانهم على رأس القرن الثامن فاتهى إليه فى عصره العلم بالعربية ، وقد حفظ القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين ، وكان سريع الحفظ وقال عن نفسه : إنه كان لا ينام حتى يحفظ مائتى سطر ، ورحل إلى العراق ثم الشام ، وسافر إلى بلاد الروم والهند واليمن ، وذهب إلى مكة مراراً وجاور بها ، وأقام بالمدينة المنورة وبالطائف ، وله بهذه المدن مآثر حسنة ، وتلقى فيها العلم على أعظم العلماء فى زمانه .

وكان المجد موضع التجارة والتبجيل من الناس فما دخل بلداً إلا أكرمه أهله ، بل بالغ الملوك والحكام فى تعظيمه مثل شاه منصور بن شاه شجاع فى تبريز ، والأشرف صاحب مصر ، وأبى يزيد صاحب الروم ، وابن إدريس فى بغداد ، بل كان الحكام العتاة الظالمة يعظمونه ويبالغون فى تعظيمه ، فقد كان تيمورلنك المعروف بعنوة وعسفه وطغيانه شديد الإعظام والإكرام للفيروزبادى ؛ حتى قيل : إنه أعطاه عند اجتماعه به مائة ألف درهم .

(١) أسماء المؤلفين ١ : ٤٤٧ .

(٢) مقدمة تاج العروس ١ : ٣ .

وله مؤلفات كثيرة في مختلف العلوم والفنون المعروفة عند العرب ، منها « الأحاديث الضعيفة » و « محاسن الطائف » و « أسماء الغادة » و « أسماء النكاح » و « زيارة الحجون » و « افتراض الجهاد » و « أشرف الحنفية » و « طبقات الشافعية » و « المثلث في اللغة » و « البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة » و « أسماء الليث » و « تحبير الموشين فيما يقال بالسين والشين » ؛ وقد تتبع في التحبير أوهام الجمل في أكثر من ألف موضع ، و « تفسير الفاتحة » و « أسماء الخندريس » و « فضائل سورة الإخلاص » و « الروض المسلوف فيما له اسمان إلى الألف » و « شرح قصيدة بانت سعاد » و « اللامع العجائب الجامع بين المحكم والعباب » و « المتفق وضعاً والمختلف صنفاً » و « شرح صحيح البخارى » و « تاريخ أصبهان » و « شرح البردة » و « تهذيب الغرام إلى البلد الحرام » .

وأشهر مؤلفاته « القاموس » بل يُعدُّ من أشهر المعجمات العربية ، وقد جمع فيه خلاصة « المحكم » لابن سيده ، و « العباب » للصغاني ، واستدرك فيه على الجوهري موادَّ كثيرة ، ووهمه كثيراً ، وعلم على المستدرك بالأحمر مفاخرة منه وإظهاراً لفضله وقدرته وعلمه وبياناً لعجز الجوهري وانتقاصاً له .

وقد تحامل الفيروزبادى على صاحب الصحاح ، ووهم المجد نفسه في كثير مما وهم فيه الجوهري ، ومع انتقاص المجد الصحاح فإنه سار على نهجه ونظامه وترتيبه .

وكان « القاموس » من أعظم المعجمات التي بعثت النشاط في محيط التأليف المعجمي واللغوي . وقد تُلِّقَ القاموس بالترحاب والإكبار ، وقامت حوله دراسات ، وألف العلماء كتباً كثيرة تناولوا فيها القاموس من مختلف الزوايا ، فبعضهم شرحه ، وبعضهم نقده ووهَّبه ، وبعضهم دافعوا عن القاموس ، وبعضهم اختصره ، وحسب القاموس شهرة أنه أصبح عند المتأخرين مرادفاً للمعجم ، حتى أن أحداً يسمع سائلاً يقول : قاموس الصحاح ؛ وقاموس لسان العرب ، وقاموس التهذيب ، وقاموس العين ، مما يدل على طغيان اسمه على المعجمات ، بل سمي باسم القاموس كثير من المعجمات ، مثل : القاموس العصري ، وقاموس الجيب .

ومن الكتب التي ألفت حول القاموس :

(١) « تاج العروس من جواهر القاموس » وهو شرح القاموس ، لمحمد مرتضى الحسيني الزبيدي ، وهو أعظم معجم عربي مطبوع ، وفيه عشرون ومائة ألف مادة ، وقد طبعته مصر ، وجزى الله الناشر عن لغة القرآن أحسن الجزاء .

وما أدرى أفي الوسع طبع التاج طبعاً أنيقاً يليق بمقامه الرفيع ، وترتيب مواده ترتيباً حسناً بحيث يكون رأس المادة في أول السطر ، وكذلك مشتقاتها ؛ ولعل الله يوفق ناشرها لإعادة طبع التاج فيدين العربية ديناً لا يقضى .

(٢) « إضاءة الراموس وإفاضة الناموس على أضائة القاموس » ، لمحمد ابن طيب الفاسي المتوفى سنة ١١٧٠ هـ وهو شرح للقاموس .

(٣) « شرح القاموس » لابن معصوم السيد علي خان ابن السيد الأمير نظام الدين أحمد بن محمد معصوم الحسيني الدشتكي الشيرازي الشيعي (١٠٥٢ — ١٢٣٥ هـ) .

(٤) « الأقيانوس في شرح وترجمة القاموس » لأحمد عاصم بن جناني العينتابي الرومي، أبو الكمال؛ المعروف بجناني زاده، من الموالى (١١٦٩ — ١٢٣٥ هـ).

(٥) « إضاءة الأدموس ورياضة الشمس من اصطلاح القاموس » لأبي العباس أحمد بن عبد العزيز المغربي؛ الشهير بالهلالي أو الفيلاي، السجلماي (١٠٧٠ — ١١٧٥ هـ)^(١)

(٦) حاشية أبي العباس أحمد بن عبد العزيز الفيلاي، وقد شرح القاموس شرحاً وافياً حسناً.

(٧) « حلية العروس نظم إضاءة الأدموس » وهو نظم كتاب الهلالي، وقد نظمه الكردودي قاضي طخمة، توفي ١٢٦٨ هـ.

(٨) « القول المأنوس في صفات القاموس » لمحمد سعد الله المفتي برامفور، المتوفى سنة ١٢٨٧ هـ.

(٩) « القول المأنوس بتحرير ما في القاموس » لمحمد بن يحيى القرافي المتوفى سنة (١٠٠٨ هـ).

(١٠) « القول المأنوس بشرح مغلق القاموس » للقرافي أيضاً.

(١١) « القول المأنوس في حاشية القاموس » لعبد الباسط بن خليل ابن شاهين الملطي القاهري الشهير بابن الوزير الحنفي (٨٤٤ — ٩٢٠ هـ).

(١٢) « القول المأنوس » لمحمد بن عبد الرؤوف بن علي بن زين العابدين المناوي الفقيه الشافعي (٩٢٤ — ١٠٣١ هـ).

(١) رسالة في اصطلاح القاموس، تأليف الشيخ عبد العزيز بن عبد السلام الوزجاني، من علماء القرن الثاني عشر، ألفها سنة ١١٧٨ هـ اقتطفها من « إضاءة الأدموس » للهلالي، منه نسخة بدار الكتب المصرية، تحت رقم ٨٥ مجاميع تيمور.

(١٣) « شرح خطبة القاموس » للمناوى أيضاً .

(١٤) « فتح القدوس فى شرح خطبة القاموس » لأحمد بن عبد العزيز الهلالى السجلماسى .

(١٥) كتاب محب أبى الوليد عبد الباسط بن محمد الشهير بابن الشحنة الحلبي الحنفى المتوفى سنة ٩٠٣ هـ .

(١٦) كتاب أبى الروح عيسى بن عبد الرحيم الكجراتى .

(١٧) « شرح القاموس » لميرزا على الشيرازى .

(١٨) كتاب أحمد بن مسعود الحسينى الهركامى الهندى .

(١٩) كتاب زين العابدين بن محسن الحديدى الأنصارى من أهل القرن الثالث عشر .

(٢٠) « الزهر الياوع على قول صاحب القاموس : لا مانع » فى مقدمة القاموس . ل محمد بن يوسف الدمياطى الحنفى ، من القرن الحادى عشر .

(٢١) « منتهى الأرب » رتبه مؤلفه — وهو غير معروف — على المصباح المنير ، ذكره محمد صديق خان فى البلغة .

(٢٢) كتاب محمد بن عبد الرؤوف المناوى ، استدرک فيه على القاموس .

(٢٣) كتاب عبد الله بن المهدي الحوالى اليمنى الملقب بالبحر ، المتوفى سنة ١٠٦١ هـ استدرک فيه على القاموس وعلى الصحاح .

(٢٤) « رجل الطاووس » لمحمد بن عبد الرسول بن قلندر الحسيني
البرزنجي (١٠٤٠ — ١١٠٣ هـ) وتوفي بالمدينة المنورة .

(٢٥) « التكملة والصلة والذيل على القاموس » لمرتضى الزبيدي ،
وقيل : التكميل والصلة والذيل .

(٢٦) « ابتهاج النفوس بذكر ما فات القاموس » لمحمد النبال الحلبي .

(٢٧) « رسالة العنقاء المغرب الواقع في القاموس » ، للشيخ محمد
ابن عبد الرحمن الدنوشري الشافعي المتوفى بمصر سنة ١٠٢٥ هـ أولها « الحمد لله
رب المشرق والمغرب » .

(٢٨) « الإفصاح في زوائد القاموس على الصحاح » للسيوطي ،
ولم يتمه .

(٢٩) « بهجة النفوس في المحاكاة بين الصحاح والقاموس » .

(٣٠) « الدر اللقيط في أغلاط القاموس المحيط » لمحمد بن مصطفى
الداوودي ؛ المعروف بداود زاده المتوفى سنة ١١٠٧ هـ جمع فيه الأغلاط
التي عزاها القاموس إلى الصحاح وردّ عليها .

(٣١) « مرج البحرين » لأويس القاضي ابن محمد ؛ المعروف بويس ،
المتوفى سنة ١٠٣٧ هـ أجاب فيه على اعتراضات المجد على الصحاح .

(٣٢) « الوشاح وتثقيف الرماح في رد توهم المجد . الصحاح »
لأبي زيد عبد الرحمن بن عبد العزيز التادلي .

(٣٣) « فلك القاموس » لعبد القادر بن أحمد اليمنى من تلاميذ ابن الطيب الفاسى ، علل فى مقدمته إعجاب الناس بالقاموس ، وفضل الصحاح عليه ، وتتبع فيه ما وُهم فيه الفيروزبادى ورد عليه وعلى غيره ، معتمداً على شيخه ابن الطيب الفاسى .

(٣٤) « ضوء القابوس فى زوائد الصحاح على القاموس » وقد ذكره محمد صديق خان ، ولم ينسبه .

(٣٥) « طراز اللغة » للسيد على خان ، نقد فيه القاموس ورد على صاحبه ما وُهم فيه الصحاح .

(٣٦) « الجاسوس على القاموس » لأحمد فارس الشدياق ، نقد فيه الفيروزبادى .

(٣٧) « تصحيح القاموس » لأحمد تيمور باشا .

(٣٨) « ترويح النفوس على حواشى القاموس » للشيخ عبد الهادى نجا الأييارى المصرى المتوفى سنة ١٣٠٦ هـ .

(٣٩) كتاب الشيخ محمد النجارى المصرى المتوفى سنة ١٣٣٢ هـ أخذ لسان العرب لابن منظور والقاموس ورتبهما ترتيباً جديداً على نسق جديد غير مسبوق ، وهو أنه رتب موادها على الحروف الهجائية ، مهماً الاشتقاق والتجريد ، فكلمة « كتب » يضعها فى حرف الكاف ؛ وكلمة « مكتب » فى حرف الميم . فهو يضع الكلمة فى بابها باعتبار أول حرف يُنطق به ، غير ناظر إلى حقيقته ؛ أهو مجرد أم مزيد .

(٤٠) معجم باللغة العربية واللاتينية للمستشرق الألماني فرايتاغ Freytag جمع فيه ما اختار من القاموس والصحاح وغيرها ، ويقع معجمه في أربعة مجلدات .

(٤١) « حاشية على القاموس » لسعد الله بن عيسى ، المعروف بسعدى حلبى ، القاضى بالقسطنطينية ، المتوفى سنة ٩٤٥ هـ وهى تقييدات كتبها فى هوامش نسخته من القاموس .

(٤٢) وجمع عبد الرحمن بن على الأماسى المتوفى سنة ٩٨٣ هـ تقييدات سعدى حلبى وألف منها كتاباً .

(٤٣) « حاشية على القاموس » لنور الدين على بن غانم المقدسى المتوفى سنة ١٠٠٤ هـ دونها ولده من طرة القاموس .

(٤٤) « كسر الناموس » لعبد الله بن شرف الحسنى ؛ ملك اليمن ، المتوفى سنة ٩٧٣ هـ .

(٤٥) « الناموس على القاموس » وهو حاشية لمحمد أمين بن فضل الله الحلبى .

(٤٦) « حاشية ابن الأمير » ذكرها محمد سعد الله .

(٤٧) « مختصر القاموس وزيادته » لأحمد بن شاهين القبرصى الدمشقى ،

المعروف بالشاهين (٩٩٥ — ١٠٥٣ هـ) .

(٤٨) « تلخيص القاموس » أو « كتاب البرهان » لإبراهيم بن محمد

الحلبى المتوفى سنة ٩٥٦ هـ .

(٤٩) « مختصر القاموس » لعلى بن أحمد الهيتى ، وكان حيا سنة ١٠٢٥ هـ

حل فيه رموز القاموس ، وحذف الشواهد والأدلة ؛ وتوهمات المجد الصحاح ؛

وكثيراً من الصيغ .

(٥٠) « الناموس » لعلى بن سلطان محمد القارى الهروى ، نور الدين ؛

الفقيه الحنفي ، نزيل مكة المكرمة ، وقد توفي بها سنة ١٠١٤ هـ لخص فيه ما ورد من القاموس ، واستدرك فيه عليه .

(٥١) « البابوس على القاموس » للشيخ أحمد بن مصلح الدين موسى ، المعروف بابن مركز الرومي ، من رجال الصوفية ، وتوفي سنة ٩٦٣ هـ والبابوس ترجمة لكتاب الدر اللقيط في أغلاط القاموس المحيط .

(٥٢) « أحكام باب الإعراب من لغة الأعراب » ، لجبرائيل فرحات الماردني (١٠٨١ — ١١٤٥ م) .

(٥٣) كتاب أبي عبد الله محمد بن أحمد الدلائلي الشهير بالمسناوي ، المتوفي سنة ١١٣٦ هـ وهو نقد للقاموس ودفاع عن الصحاح .

(٥٤) « مدّ القاموس » لادوارد لين A. Lane (١٨٠١ — ١٨٧٦ م) ترجم فيه « تاج العروس » للزبيدي ، وحذف فيه ما تكرر من ألفاظ في مواد التاج ، وهو أشهر معجمات المستشرقين^(١) .

وهناك دراسات علمية ناضجة ، وكتبٌ ألفت حول القاموس تركناها اكتفاء بهذا القدر من الكتب التي أثبتناها هنا .

(١) وقع في يدي وأنا أعد الصحاح للطبعة الثانية سنة (١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م) كتاب « ترجمة القاموس » بالتركية ، تأليف حسن حلمي أفندي ، ويقع في أربعة أجزاء ، طبع المطبعة البحرية بالآستانة سنة ١٣٠٥ هـ .

وقرأت في معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٣ / ٢٥٥ : طب القاموس ، وأمثال القاموس ، تأليف حسن بن علي بن عبد الحسين بن نجم السعدي الرياحي ، الدجيلي الأصل ، اللوموي المتمد ، النجفي المولد والمسكن والمدفن ، الشهير بالقفطان (وفي أعيان الشيعة : حسن بن علي بن نجم بن عبد الحسين) ولد سنة ١١٩٩ هـ (١٧٨٥ م) وتوفي سنة ١٢٧٩ هـ (١٨٦٢ م) .

وبدار الكتب المصرية تحت رقم ٦٩ مجاميع تيمور نسخة من كتاب « الرسالة العشرية في شرح قول القاموس : والعشر ، بالكسر : ورد الإبل اليوم العاشر والتاسع . صنفها مؤلفها بشير أغا - أغا دار السعادة ، مدة السلطان محمود الأول بن مصطفى ، أي في القرن الثاني عشر .

وجاء في سلك الدرر ٣ / ١٧٩ - ١٨٠ : أن عمر بن عبد الجليل البغدادي ألف رسالة في شرح قول صاحب القاموس : العشر بالكسر ، الخ .. (أنظر ٦٩ مجاميع تيمور) .

وأطلنا في هذا السبيل ، ووقفنا عند القاموس أكثر من غيره ، لأنه الكتاب الذى ألفه صاحبه ليخفف به صوت الصحاح ولينافسه به .

وتعود الآن إلى ذكر بقية التكملات والمستدركات فنقول :

٣٤ — «الراموز» للسيد محمد بن حسن الشريف بن حسام الدين المتوفى سنة ٨٦٦ هـ . وهو الصحاح نفسه إلا أن السيد جرده من الشواهد ، وأوجز الشرح ، وحذف الأمثال والأنساب ، وشرح صاحب الراموز عمله فى مقدمته حيث قال : « إن الصحاح كتاب فاخر ، وبحر موج زاهر ، لكن لما فيه من تطويل وإطناب — بإيراد كثير مما يُستغنى عنه من الأمثال والشواهد والأنساب ، واختصره بعض الفضلاء ولكنه أخل ، كما أن الأصل أسهب وأمل ، وزاد فيه فوائد سمحت بها قريحته الوقادة وطبيعته النقادة ، وإن كان بعضه مما يجب كما أشرت إليه فى أثناء الكتاب — أضفت إلى ما اختاره وقبله ، جميع ما أهمله من اللغة وأغفله ، لتتم الفائدة وتعميم العائدة ، ثم ألحقت به غرائب ألفيتها فى « المغرب » للمطرزى ، وعثرت عليها فى « الفائق » للزمخشري ، و « النهاية » لابن الأثير أبى السعادات الجزيرى . »

وعند ما حذف المؤلف الشواهد والأنساب والأمثال أضاف إليه مواد كثيرة ، وأضاف بعض « الخواص » الطيبة ، آخذاً على الجوهرى ما يعد من حسنات كتابه ، فليس فيه ما يستغنى عنه مما حذفه ، وليس اتهامه الصحاح بأنه أسهب وأمل صحيحاً ، فمن ميزات الصحاح إيجازه واختصاره ، وليس فيه تطويل وإطناب ، بل الصحاح دقيق العبارة موجزها .

وقد اتهم السيد — غفر الله له — الجوهري اتهاماً غير صحيح ، اتهمه في مقدمته بأن ما نقله مطعون ، وكتابه « الصحاح » بخلاف الصواب مشحون^(١) ، والحق أن ميزة كتاب الجوهري التزامه الصحيح ، وهذا ما حمّله على أن يغفل آلاف المواد مما استدركه العلماء عليه .

وكان السيد متنفجاً مغروراً صاحب هوى ، ولهذا تحامل على الجوهري وتجنّى على الصحاح . وعلى كل فالراموز معجم جليل فيه حوالى ثمانين ألف مادة ، وفيه نوادر وفوائد لغوية جليّة ، وسمته البارزة الإيجاز الدقيق ، ويكاد أسلوبه يشبه الأسلوب التلغرافى .

وكان الراموز من مراجع الزبيدى فى تاج العروس كما ذكر فى مقدمته ، ولكنه لم يعرف اسم المؤلف بل قال : « والراموز لبعض عصري المصنف » .

ومنه نسخة هى أقدم نسخه إطلاقاً ، لأنها مسودة المؤلف الأولى ، وفرغ منها فى ربيع الآخر سنة ٨٥٧ هـ وقد منّ الله على بشرائها وزين خزانة كتبي بها ، وهى الآن تزين مكتبة الشيخ محمد سرور الصبان .

ومنه نسختان بمكتبة شيخ الإسلام بالمدينة المنورة ، وكل منهما فى مجلد ضخّم كبير ، إحداها تحت رقم ٥٩ لغة وأوراقها ٤٠٠ ونسخت سنة ٩٦١ هـ وبها تعليقات بالعربية والتركية ، وتصويبات من القاموس بقلم كمال باشا زاده ، والثانية رقم ٦٠ لغة وأوراقها ٥٠٠ ونسخت سنة ٩٦١ هـ ولا يعرف ناسخها .

(١) مقدمة الراموز .

وبدار الكتب المصرية نسخة مصورة من أصل بمكتبة « يكي جامع »
بالآستانة ، مكتوب في سنة ٩٨٨ هـ وهى فى ثلاثة مجلدات .

وهناك كتب كثيرة كان فى وسعنا أن نضعها فى هذا الباب ، لأنها
استدركت على الصحاح ؛ مثل كتب الحواشى ، وبعض كتب النقد ، وفى
وسع الباحث أن يضعها فى هذا السمت إذا أراد ، وفى وسعه أن يضع
كتب التكملات والمستدركات فى باب النقد ؛ لأنها نقدت الصحاح .

كتب النقد

الدراسات النقدية التى قامت حول الصحاح كثيرة ، وألفت فيها كتب ؛
بعضها ألفه علماء دفعهم الهوى ، وبعضها علماء أرادوا النقد النزيه ورغبوا
فى الحق ، وقد تناول الصحاح عديد من نقدة اللغة والشعر والأدب
والأنساب ، ونظر كل مؤلف من زوايته ، واستوعبت الدراسة النقدية كل
جوانب الصحاح ، ومن نقدها : أبو سهل الهروى ، وعلى بن حمزة البصرى ،
والصغانى ، وابن القطاع ، وابن برى ، والبسطى ، والقصبانى ، والشاطبى ،
والتبريزى ، وكانوا منصفين ؛ والفيروزباده ، وجمال القرشى ، وكانا
متحاملين ؛ وغيرهم ممن مرّ ذكرهم ، ولا داعى لأن نعيد ذكرهم بعد أن أفردنا
لمؤلفات هؤلاء وتعليقاتهم أبواباً خاصة ، وأشرنا إليها فيما قدمنا .

أما الكتب التى تصلح لأن نصفها بأنها كتب نقد فكثيرة ؛ أهمها :

٣٥ — « قيد الأوابد » من الفوائد ، لأبى الفضل ؛ أحمد بن محمد

ابن أحمد الميدانى النيسابورى المتوفى سنة ٥١٨ هـ ونسب الميدانى إلى

« ميدان زاده » محلة فى خراسان ، وهو صاحب « مجمع الأمثال » المشهور ،
وذهب بروكلمان إلى أنه نقد فيه الجوهري .

٣٦ — « الإصلاح لما وقع من الخلل فى الصحاح » ، للوزير العلامة
جمال الدين أبى الحسن على بن يوسف بن إبراهيم الشيبانى القفطى (٥٦٨ —
٦٤٦ هـ) والقفطى نسبة إلى قفط من الصعيد الأعلى بمصر ، سكن حلب ،
وتولى الوزارة ، ولقب بالوزير الأكرم ، وكان جليلا كريما مغرى بجمع
الكتب ، وله مؤلفات ؛ منها : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، وأخبار مصر ،
وإنباه الرواة على أنباه النحاة ، وحقق هذا الكتاب صديقنا الأستاذ
محمد أبو الفضل إبراهيم .

وقد أشار إلى « الإصلاح لما وقع من الخلل فى الصحاح » ياقوت
وابن العماد والسيوطى وصاحب كشف الظنون .

٣٧ — « نقود على الصحاح » ، لأبى العباس أحمد بن محمد بن أحمد
الأندلسى المالكى المعروف بابن الحاج الإشبيلى المتوفى سنة ٦٥١ هـ وقيل :
توفى سنة ٦٤٧ هـ^(١) . وهو من البارعين فى علوم اللغة والعربية والعروض ،
وله مؤلفات غير نقوده ؛ منها : إملاء على كتاب سيبويه ، وكتاب الإمامة ،
وحكم السماع ، ومختصر خصائص ابن جنى ، والروائع^(٢) ، وقد عدّ صاحب
البلغة فى أصول اللغة كتاب « نقود على الصحاح » من كتب الحواشى ،
والصحيح ما ذكرناه .

(١) مجلة المجمع اللغوى المصرى ، العدد ٣ ص ٣٥٣ .

(٢) البغية ١٥٦ أسماء المؤلفين ١ : ٩٥ .

٣٨ - « نفوذ السهم فيما وقع للجوهري من الوهم » لصالح الدين ؛
أبي الصفاء : خليل بن أبيك بن عبد الله الصفدي ثم الدمشقي (٦٩٦ -
٧٦٤ هـ) وللصفدي مؤلفات كثيرة ؛ ولم يأت في كتابه هذا بجديد مذكور ،
بل تضيّف ابن برى وأخذ نقوده بعد تجريدها من الشرح وتكملة الشواهد ،
« وأحل محل ما حذفه بعض أدبيات واستدلال ببعض أبيات » .

٣٩ - « غوامض الصحاح » لابن أبيك الصفدي ، وهو نقد للصحاح ،
وهو غير « نفوذ السهم » فهو في « الغوامض » جليّ بعضها ، ثم نقد
بعض ما وقع للجوهري من الوهم .

٤٠ - « مجمع السؤالات من صحاح الجوهري » تأليف الفيروزبادي

٤١ - « نور الصباح في أغلاط الصحاح » لأبي الفضل محمد بن عمر
ابن خالد القرشي المعروف بجمال القرشي ، وهو نقد للصحاح ؛ ولكن
القرشي لم يكن نزيهاً في تقديمه ، بل كان يتحامل على الجوهري ، وفي
بعض نقده كان منصفاً ، وأخذ على الجوهري بعض ما وهم فيه ، وصوّب
له بعض ما صحّف وحرّف وغير في كلمات اللغة وأسماء الأعلام ، وهو
يشبه التكملة في بعض الوجوه ، إلا أن « نور الصباح » موجز ، وقد سلك
سبيل الجوهري في ترتيب المواد .

وللقرشي أربعة كتب ؛ ما ذكرناه هنا أحدها ، وقد مر له في باب
التكمالات كتاب آخر هو « القراح بتكمل الصحاح » وله « مختصر الصحاح »
وترجمة له سماه « الصراح » وقد تحامل في الصراح على الجوهري ، فانبرى

له الشيخ محمد سعد الله المفتي وفنّد آراء القرشي ، ورد عليه في عنف تحت اسم « بور الصباح في أغلاط الصراح ^(١) » .

٤٢ — نور الدين : علي بن سلطان محمد القارّى الهروى ؛ الفقيه الحنفى ، نزيل مكة والمتوفى بها سنة ١٠١٤ هـ ألف كتاب « الناموس » وهو ما استدركه على القاموس ، وفيه نقد للجوهري ، وقد ردّ عليه ابن الطيب الفاسى ، ومحمد بن أحمد المساوى ، وابن حجر المكي ، والشهاب الخفاجى ^(٢) .

٤٣ — محمد بن عبد المنعم بن محمد القاهري الجوجرى (٨٢١ — ٨٨٩ هـ) ألف كتاباً أخذ فيه على الجوهري ونقده ، فرد عليه السيوطى ردّاً عنيماً تجنى فيه عليه .

٤٤ — عبد البر بن محمد بن محمد بن الشحنة ؛ سرى الدين ؛ أبو البركات الحلبي ثم القاهري الحنفى (٨٥١ — ٩٢١ هـ) ألف كتاباً في نقد الجوهري ، فألف السيوطى كتاباً في الرد عليه .

الدفاع عن الصحاح

ما كتب من الدفاع من الأسفار الخاصة عن الصحاح كثير ، وهناك من العلماء من جردوا أقلامهم في بطون أسفارهم دفاعاً عن الجوهري ، وأكثر الباحثين في المعجمات واللغة انتصروا له وردوا عنه عدوان خصومه وحساده ، وأشادوا به ، واعتذروا لغلطاته وأخطائه ، ودفع التعصب بعض

(١) البلغة ١٧٧ .

(٢) مقدمة التاج ٣ .

أنصار الجوهري إلى تسويغ أوهامه ، كما صنع ابن الطيب الفاسي الذي خرق من أجل تعصبه الإجماع ، وتحامل على المجد تحاملاً شديداً آخذ عليه تلميذه الزبيدي^(١) .

أما الكتب التي ألفت في الدفاع عن الصحاح فكثيرة ، وأكثرها ألف بعد عصر القاموس رداً عليه وعلى أنصاره . وأهم من انتصروا للجوهري ودافعوا عنه و زادوا عن حماه ؛ وألقوا الكتب الخاصة ؛ أو بثوا في ثنايا مؤلفاتهم الردود ، هؤلاء الأعلام :

٤٥ — جلال الدين عبد الرحمن السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ ألف — وهو بمكة — كتاب « اللُّقْط الجوهري في رد خباط الجوجري^(٢) » دافعاً عن الصحاح ، إلا أن بعض المستشرقين والباحثين العرب خلطوا بين هذا الكتاب وكتاب آخر يقرب عنوانه من عنوان هذا الكتاب ، والكتاب الآخر اسمه « اللفظ الجوهري في رد خبط الجوجري » أو « غلط الجوجري » والجوجري هو محمد بن عبد المنعم بن محمد الجوجري القاهري (٨٢١ — ٨٨٩ هـ) وظن دى غويه وآدم متر^(٣) « اللفظ الجوهري » هو الكتاب الذي ألفه السيوطي دافعاً عن الجوهري ، وتبعهما بعض إخواننا الباحثين من أساتذة جامعة القاهرة ، مع أن الكتاب الثانى يبحث مسألة « رؤية النساء » وألف فيها رسالة أخرى سماها « إسبال الكساء على النساء » ثم اختصرها وجعل اسمها « دفع الأسا في تلخيص إسبال الكسا » .

(١) تاج العروس .

(٢) منه نسخة بمكتبة شيخ الإسلام بالمدينة المنورة تحت رقم ١٦١ لغة .

(٣) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ٣٣٠ .

٤٦ — السيوطي أيضاً ، ألف كتاباً سماه « الكر على ابن عبد البر »
رد فيه نقوده على الجوهرى^(١) .

٤٧ — عبد الباسط بن خليل بن شاهين الملطى القاهري الشهير
بابن الوزير الحنفى (٨٤٤ — ٩٢٠ هـ) ألف كتاب « القول المأثور
في حاشية القاموس^(٢) » .

٤٨ — سعد الله بن عيسى بن أمير خان القسطنطينى الرومى الحنفى ،
الشهير بسعدى جلبى ، القاضى بالقسطنطينية والملقى بها ؛ توفى سنة ٩٤٥ هـ
له حاشية على القاموس^(٣) .

٤٩ — عبد الله بن الإمام يحيى شرف الدين بن شمس الدين بن المهدي
لدين الله أحمد بن يحيى المرتضى الحنفى ملك اليمن المتوفى سنة ٩٧٣ هـ
وألف كتاباً سماه « كسر الناموس فى شرح القاموس » رد فى مواضع
كثيرة نقود المجد للصحيح^(٤) .

٥٠ — على بن محمد بن خليل بن محمد ، المعروف بابن غانم المقدسى
(٩٢٠ — ١٠٠٤ هـ) درس القاموس ؛ وله حاشية عليه^(٥) ، رد فيها
على المجد بعض توهيماته الصحيح .

٥١ — بدر الدين : محمد بن يحيى بن عمر بن يونس القرافى المصرى

(١) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ص ٣٣٠ .

(٢) أسماء المؤلفين ١ : ٤٩٤ .

(٣) أسماء المؤلفين ١ : ٣٨٦ .

(٤) مقدمة تاج العروس ص ٣ أسماء المؤلفين ١ : ٤٧٢ .

(٥) أسماء المؤلفين ١ : ٤٧٤ .

المالكي المتوفى سنة ١٠٠٨ هـ ألف كتاب « بهجة النفوس في المحاكاة بين الصحاح والقاموس » وقد ألفه للانتصار للصحاح ، وجمع مادته من خطوط عبد الباسط الملطي ، الشهير بابن الوزير الحنفي ؛ وسعدى حلبى ؛ وأحمد ابن عبد العزيز الهلالي وغيرهم^(١) .

٥٢ — بدر الدين القرافي أيضاً ، ألف « القول المأنوس بتحرير ما في القاموس » وهو نقد القاموس ، ودفاع عن الصحاح ؛ ورد توهيم المجد الصحاح ، وكان المؤلف يختار مواضع من القاموس يعلق عليها ، وفيه نقد يسير للجوهري ، وإشارة إلى زيادة القاموس على الصحاح ، وأهم ما نقد به الفيروزبادي تحامله على الجوهري .

٥٣ — محمد بن يحيى القرافي ، ألف شرح القاموس عام ٩٧٠ هـ وفيه مواضع كثيرة رد فيها على المجد في توهيمه الصحاح ؛ وللقرافي غير كتاب واحد حول القاموس .

٥٤ — أبو زيد عبد الرحمن بن عبد العزيز المغربي الشاذلي (التادلي) المدني العمري المالكي ؛ نزيل مكة ، وأحد المدرسين بالمسجد الحرام ، ألف « الوشاح وتثقيف الرماح في رد توهيم المجد الصحاح » وقد رد فيه المؤلف على نقدرات مجد الدين الفيروزبادي صاحب القاموس ، وأبان فيه أن المجد كان واهما فيما أخذه على الجوهري .

بل لم يقتصر نقده أو رده على المجد وحده ، بل تناول غير المجد

(١) مجلة المجمع اللغوي المصري العدد ٣ صفحة ٣٥٥ وطبقات المالكية ٢٨٨ .

بالرد ، فقد رد على السيوطى والتبريزى ؛ وقال^(١) : « ما أُخِذَ على الجوهري من التصحيف مما ذكره السيوطى ولم ينقده المجد . أنشد على الدبابة بموحدتين :

عائور شر أئما عائور دبابة الخيل على الجسور
قال التبريزى : الصواب دندنة بنونين ، وهى أن تسمع من الرجل ولا تفهم ما يقول .

ومنه الحديث : « لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ » وكان أبو محمد الأسود ينشد هذا البيت استشهادا على ذلك . قلت : قد وافق الجوهريّ المجدُّ والزبيديّ . فقال : الدبابة : كل صوت كوقع الحافر على الأرض الصلبة . وقال الثانى الدبابة : تقارب المشى فى سرعة . والمستشهد بالبيت على ما قال الجوهريّ أبو مهدية ، وهو من ثقات الأعراب وعلمائهم ، وأخذ عنه أبو زيد الأنصارى وأبو عبيدة والأصمعى ؛ وهؤلاء الثلاثة هم أئمة الناس فى اللغة وعلوم العرب . وأما الدندنة بنونين فقد فسرّها الجوهريّ بعين ما فسرّه التبريزى حرفاً بحرف ؛ واستشهد بالحديث أيضاً . والعلم عند الله » .

٥٥ — محمد بن مصطفى الداودى المعروف بداود زاده ، ألف « الدر اللقيط فى أغلاط القاموس المحيط » وانتهى من تأليفه فى أوائل المحرم سنة ١٠١٧ هـ ، وهو كتيب جمع فيه الغلطات التى عزاها المجد إلى الصحاح ورد عليها ، وانتصر للجوهري وكتابه^(٢) .

(١) الوشاح ، مخطوطة مكتبة شيخ الإسلام بالمدينة المنورة وأوراقه ١١١ وطبع فى بولاق سنة ١٢٨١ هـ .

(٢) منه نسخة بمكتبة شيخ الإسلام بالمدينة المنورة تحت رقم ٥٠ لغة وأوراقه ١٦ .

٥٦ — أحمد بن مصلح الدين موسى ، المعروف بابن مرَّكز الرومي ، من الصوفية ، توفي سنة ٩٦٣ هـ ، ترجم فيه « الدر اللقيط في أغلاط القاموس المحيط » تأليف داود زاده ؛ إلى اللغة التركية .

٥٧ — أبو الفتح عبد الله بن عبد الرحمن بن علي بن محمد الدنوشري المصري الشافعي الصوفي المتوفى سنة ١٩٢٥ هـ ، ألف رسالة « العنقاء المغرب الواقع في القاموس » دافع فيها عن الجوهرى^(١) .

٥٨ — محمد بن عبد الرؤوف بن علي المناوي الشافعي (٩٢٤ — ١٠٣١ هـ) ألف « القول المأنوس » وصل فيه إلى حرف الدال ؛ وقيل : السين ولم يكمله ، وقد حشى به القاموس ، ورد عليه بعض توهيماته الصحاح .

٥٩ — القاضي أويس بن محمد الآلاشهرى الحنفى ، الشهير بويس (ويس الرومى) ولد سنة ٩٦٩ هـ وتوفى بأسكوب سنة ١٠٣٧ هـ . ألف كتابه « مرج البحرين » أجاب فيه على اعتراضات المجد ورد عليه ، ودافع عن الجوهرى ، ولم يكمله^(٢) .

٦٠ — محمد بن السيد عبد الرسول بن قلندر الحسينى البرزنجى الشبهرزورى المدنى الشافعى ولد سنة ١٠٤٠ هـ وتوفى بالمدينة المنورة سنة ١١٠٣ هـ . ألف كتاب « رجل الطاووس في شرح القاموس » وفيه دفاع عن الصحاح^(٣) .

٦١ — محمد أمين بن فضل الله الحموى الدمشقى الحنفى المتوفى سنة ١١١١ هـ ألف « الناموس على القاموس » وفيه رد على توهيم المجد الصحاح .

(١) أسماء المؤلفين .

(٢) كشف الظنون ٢ : ١٣٠٨ ، ١٦٥٣ . وأسماء المؤلفين ١ : ٢٢٨

(٣) أسماء المؤلفين ٢ : ٢٠٢

٦٢ — السيد علي خان ؛ صدر الدين الحسيني الحسني ؛ ابن الأمير نظام الدين أحمد بن محمد معصوم ، المعروف بابن معصوم الحسيني الدشتكي الشيرازي الشيعي ، ولد سنة ١٠٥٢ هـ وتوفي بشيراز سنة ١١١٧ هـ^(١) ألف كتاب « طراز اللغة » واسمه الكامل « الطراز الأول فيما عليه من لغة العرب المعول » نقد فيه القاموس ، وأخذ الفيروزبادي على إهمال ضبط ما يجب ضبطه ، وتركه الدقة في ترتيب بعض المواد ووضعها في غير مواضعها ، وخطئه في تفسير الكلمات ، وتصحيحه ، وسوء قوله وتعبيره ، ولامه على تجنيه وتحامله على الجوهرى ، وتوهمه إياه ، ومن نماذج نقده ما نقل من حرف الراء ، حتى يرى القارىء أسلوبه وطريقته ونظامه وترتيبه :

ب أ ر البئر كالعهن ؛ معروفة ، وتخفف بإبدال الهمزة ياء ، وهى مؤنثة ، أبار — على أفعال — وآبار ؛ بتقديم الهمزة على الباء وقلبها ألفاً ، وأبؤر كأفلس ، وبئار كذئاب ، وحافرها ؛ البئار كعباس . وقول الفيروزبادي : الأبار ؛ غلط . وإنما الأبار صانع الإبر لا حافر البئر .

ب ث ر البئر كفلس ، ويحرك ؛ أورام صغار رقيقة ، أو هى ما تفتح معها سطح الجلد سواء تقدمها ورم أولاً ؛ واحدتها بهاء ، والجمع بشور كنمور . وقال الفيروزبادي : هو خراج صغار ، إذا كان الخراج اسم جنس كالنخل قال الله تعالى : ﴿ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾ على اللفظ ، و ﴿ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ على المعنى . وهذا مما لا يخفى على صغار الطلبة ، فإن زعم أن الخراج مفرد كما هو ظاهر كلامه فقد خالف المنصوص عليه من أئمة اللغة .

(١) أسماء المؤلفين ١ : ٨١١ .

قال المطرزي في المغرب : الخراج بالضم ، البثر . الواحدة : خراجة ، وبثرة وكذلك قال غيره . وخالف نفسه أيضا في تفسيره في باب الجيم حيث قال : الخراج كغراب : القروح . وفي قوله هنا : البثر خراج صغير . وإلا فكيف ساغ أن يفسر المفرد بالجمع ؛ والجمع بالمفرد ؟ وهل هو إلا كقولك : العذق ؛ بالفتح : النخل . والنخل : العذق ، وهو الواحدة من النخل . وكقولك : الرجل ؛ القوم . والقوم : الرجل ، وهو ظاهر الفساد .

ب خ ر البخار ، بالضم : ما تصاعد كال دخان من أجزاء هوائية تمازجها أجزاء صغار مائية ، تحللها الحرارة من مادة رطبة كالماء والأرض الرطبة ، جمعه أبخرة وبخارات . وقول الفيروزبادي : وكل دخان من حار بخار ؛ غلط قبيح ، فإن الدخان أجزاء نارية تخالطها أجزاء أرضية ، تحللها الحرارة من مادة يابسة كالأرض اليابسة ، فبين البخار والدخان تقابل التضاد ، فكيف يكون كل دخان بخارا^(١) ؟ .

٦٣ — ولابن معصوم أيضا شرح القاموس رد فيه كثيراً من توهمه الصحاح .

٦٤ — أبو عبد الله محمد بن أحمد الدلائلي الشهير بالمسناوي الفقيه المالكي المفتي المدرس بفاس المتوفى سنة ١١٣٦ هـ ألف كتابا نقد فيه الفيروزبادي ورد بعض توهمه المجد^(٢) .

٦٥ — أبو عبد الله : محمد بن الطيب بن محمد بن محمد الشرقي الفاسي المالكي

(١) مجلة الحج ، عدد ٧ سنة ١٣٧٤ هـ مقال الأستاذ عبد الله عبد الجبار .

(٢) أسماء المؤلفين ٣١٧ .

نزِيل المدينة المنورة (١١١٠ — ١١٧٠ هـ) وهو محدث لغوى ، له تصانيف كثيرة ، ولد بفاس ومات بالمدينة المنورة ، ألف كتاباً سماه « إضاءة الراموس وإفاضة الناموس ، وأضاءة القاموس » شرح فيه غوامض القاموس واصطلاحاته ، ورد على نقوده للصحيح ، وبنى كتابه على كتابي أبي الوليد محب الدين : عبد الباسط بن محمد ، الشهير بابن الشحنة الحلبي الحنفى المتوفى سنة ٩٠٣ هـ ، والبدر القرافى ؛ ورجع إلى غيرهما مثل أبي مهدي عيسى بن عبد الرحمن المراكشى ؛ الفقيه المالكي ؛ المفتى بمراكش ، المتوفى سنة ١٠٦٢^(١) هـ .

٦٦ — أحمد بن عبد العزيز السجلماسى المغربى ، الشهير بالهلالى ، كان يدرّس بسجلماسة ، وسافر إلى مكة مراراً ، وتوفى سنة ١١٧٥ هـ ، ألف « إضاءة الأدموس ورياضة الشموس فى اصطلاح القاموس » وقد دافع فى بعض مواضع من كتابه عن الجوهرى ، وله شرح خطبة القاموس سماه « فتح القدوس فى شرح خطبة القاموس » .

٦٧ — السيد عبد القادر بن أحمد بن عبد القادر الحسنى الكوكبانى اليمنى المتوفى سنة ١٢٠٧ هـ ، وهو من تلاميذ ابن الطيب الفاسى ، ومؤلفاته تزيد على الأربعين ، ومن أحسنها كتابه « فلك القاموس » ذكر فى مقدمته سبب إعجاب الناس بالقاموس وأسباب تأليفه وأسباب تأليف الصحاح ، وفضل الصحاح على القاموس ، وتتبع نقداً الفيروزباده ورد عليها ، وأبان وهم المجد فيما حسبه وهما من الجوهرى^(٢) ، وقد وصف عمله

(١) أسماء المؤلفين ١ : ٨١١ .

(٢) أسماء المؤلفين ١ : ٥٩٩ . ذيل كشف الظنون ٢ : ٢٠١ .

بقوله : « في زماننا قد نقصت رتبة الصحاح ، واكتفى الناس بالقاموس
لثلاثة أمور :

الأول : لجهلهم أن الصحاح أصح الكتب في اللغة ، حتى توهموا
أنه كثير الغلط لما سمعوا أن فيه تصحيحاً يسيراً ، أو لم يعلموا أن ذلك
لا يخلو منه إلا كتاب الله عز وجل ؛ وأنه يمكن أن يعرفه كل مشتغل باللغة .

والثاني : لجهلهم بعيوب القاموس حتى صار عندهم جميع ما فيه قطعياً .

والثالث : لجهلهم بمحاسن الصحاح .

وما ادعى المجد أن الجوهري وَهْمٌ فيه فهو دعوى مجردة ، وأوهام
الصحاح يسيرة كما نص عليه الأئمة ، ولذلك اعتمد عليه أئمة اللغة بخلاف
القاموس ، وإن أكب عليه أهل عصرنا ، على أننا تتبعنا كثيراً مما ادعى
المجد وغيره أن الجوهري وهم فيه ؛ فوجدناه صحيحاً . وقد أبان ذلك
شيخنا ابن الطيب في شرح القاموس^(١) .

٦٨ — محمد سعد الله المفتي برامفور ، ألف كتاب « القول المأثور
في صفات القاموس » وكسره على خمسة وثلاثين فصلاً ؛ سمي كل فصل
صفة ، وقد نقد فيه القاموس نقداً عنيفاً مراراً ، ودافع عن الجوهري دفاعاً
حاراً فيه فقه وعلم ومنطق ، وعقد لكل فصل عنواناً يدل على ما احتواه ،
مثال ذلك أنه يذكر في الصفة الخامسة عشرة « نسيان المجد بعض المعداد
في عدد العدد المعداد » وهو في ثلاثة مواضع ، وفي الصفة السادسة عشرة

(١) البلغة ١٥٣ .

« أوهام الفيروزبادى فى حصر الأوزان » والسابعة عشرة « تغليط المجد
الصحيح لفظاً فى مواضع وإتيانه به فى موضع آخر » وذلك فى ثلاثة مواضع
من القاموس ، والثامنة عشرة « أوهام المجد فى العروض » والتاسعة عشرة
« أوهام القاموس فى التناقض » والعشرين « أوهام المجد فى الوزن والترتيب »
والحادية والعشرين « أوهام الفيروزبادى فى كتابة اللغات بالحمزة ، إشارة
إلى عدم ذكرها فى الصحيح ، مع أنها مذكورة فيه » وهى أربعون لغة .
والثانية والعشرين « أوهام القاموس فى كتابة اللغات بالسواد » إشارة إلى أنها
من الصحيح مع أنها ليست فيه ، وهى فى تسعة مواضع ، والثالثة والعشرين
« أوهام المجد المتفرقة » والرابعة والعشرين « تخطيط المجد الجوهري وهو
عنها برى » والخامسة والعشرين « اعتراضه على الجوهري » مع أنه يفعل
ما فعله ، والسادسة والعشرين « نسيان الفيروزبادى بعض اللغات المذكورة
فى الصحيح مع التزام احتوائها » والسابع والعشرين « نسيانه المعانى
المذكورة فى الصحيح » مع عدم إحرازها . والثامنة والعشرين « تركه
الألفاظ المشهورة فى موادها » والتاسعة والعشرين « اللغات الزائدة على
لغات القاموس » والثلاثين « التكرار والإعادة من غير إفادة » والحادية
والثلاثين « ترجمة المجد بعض اللغات بألفاظ لا يذكر معناها فى مادتها »
والثانية والثلاثين « الاقتصار إلى حد الاختلال فيشتاق الناظر فيه إلى تفصيل
الإجمال » والثالثة والثلاثين « ما عيب على المجد^(١) » .

٦٩ — محمد سعد الله المفتى المرادأبادى ، نزيل رامفور بالهند ، ألف
« نور الصباح فى أغلاط الصراح » وهو رد على « الصراح » لأبى الفضل

القرشى ، والصراح ترجمة الصحاح ، وفيه نقد غير عادل ، وتحامل على الجوهرى وتجنّ ، و « نور الصباح » مؤلف باللغة الفارسية ، ومطبوع بالهند سنة ١٢٩٣ هـ^(١)

٧٠ — أبو الكمال أحمد عاصم بن جناني العينتابي الرومى ، المعروف بجنانى زاده ؛ من الموالى (١١٦٩ — ١٢٣٥ هـ) ألف كتاب « الأقيانوس فى شرح وترجمة القاموس » وهو ترجمة للقاموس وشرح ، وفيه دفاع عن الجوهرى فى مواضع معدودات .

٧١ — عبد الهادى نجا الإييارى المصرى المتوفى سنة ١٣٠٦ هـ وكان من أكبر علماء مصر ، ولد فى إييار ، وجاور بالأزهر وبرع فى العربية حتى صار من أئمتها ، وكان فى العلوم الإسلامية مبرّزا ، وكان إمام « المعية » الخديوية ومفتيها ، وكان شاعرا وأديبا ، وله مؤلفات ؛ منها : « الدورق » فى اللغة ، وألف كتابا سماه : « ترويح النفوس على حواشى القاموس » رد فيه على الفيروزبادى كثيرا من توهمه الصحاح^(٢) .

وهناك كثير دافعوا عن الصحاح ومؤلفه ، ولم يؤلف كل مدافع كتابا مستقلا ، بل ألف كثير منهم كتباً مستقلة ، وعقد كثير من العلماء الفصول فى بطون الأسفار ، وبعضهم أشار — كما دعت المناسبة — إلى ما يعد انتصارا للصحاح ، وانتقاصا لنقاده أو ردا عليهم ، وثار حول الصحاح جدل عنيف مشبوب الضرام ، استحال — أحيانا — إلى حرب كلامية مستعرة ، وانقسم الناس إلى فريقين ، فريق يعطى الصحاح حقه فيرفعه إلى أعلى

(١) البلغة .

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ، الجزء الرابع .

الذرى ، وفريق يتحامل عليه ، ومع هذا لا يستطيع أن يبخسه حقه ويخفض من قدره ، فصاحب القاموس - مع تحامله الشديد - لم يسعه إلا أن يصف أثر الصحاح وإكبار الناس إياه واعتمادهم عليه فى مقدمة كتابه ، إلا أن فريق النقاد معدود محدود ، والمتحاملون منهم قليل .

وأغفلنا ذكر كل من عقدوا الفصول دفاعاً ، أو بطنوا مؤلفاتهم بالذود عن الصحاح ، اكتفاء بمن ذكرنا منهم وبالكتب المؤلفة التى أشرنا إليها .

ومن ألوان النشاط التى كانت حول الصحاح مما يُعدُّ من قبيل الدفاع انبراء العلماء بعضهم لبعض فيما يشبه الجدل ، ولكنه جدل علمى وعملى ، فالسيوطى ألف كتاباً سماه « الإفصاح بزوائد القاموس على الصحاح » فتصدى بعض المعجبين بالجوهرى وألفوا كتباً ؛ منها : « ضوء القابوس فى زوائد الصحاح على القاموس » و « ابتهاج النفوس بذكر ما فات القاموس » وهذه الكتب رد عملى على السيوطى ، فإذا كان للقاموس مزىة الزيادة فى بعض المواد فإن الصحاح لا يفتقر إلى هذه المزية ؛ لأن فيه زوائد على القاموس .

والصراع الناشب بين معسكر الصحاح ومعسكر القاموس ذو ألوان وضروب ، فإذا ألف أحد كتاباً فى مزىة أحد الكتابين العظيمين انبرى له من المعسكر الثانى من يتلمس المزايا نفسها ويؤلفها فى كتاب .

ومن حظ الصحاح أن مكبرى القاموس وقادري مؤلفه هم ممن دافعوا عنه ، بل إن بعض شرّاح القاموس - كابن الطيب - تحامل على الجحد وذاد عن الجوهرى ، حتى أنه فى سبيل الدفاع عن الصحاح كان يخرق الإجماع ولا يباليه .

وسنختم هذه الفصول بطائفة من الكتب ذات الموضوعات المختلفة ؛
التي ألقت حول الصحاح لتكمل صور النشاط الضخم الكبير الذي أوجده
في محيط التأليف اللغوى عامة والتأليف المعجمى خاصة .

ونترك هذا إلى موضعه للمستقبل مختصرات الصحاح ، فإذا وفيناها
القول بررنا بما وعدنا .

المختصرات

من أعظم مظاهر النشاط : مظهر جليل رائع ، كان الصحاح باعثه في
محيط العلماء والكتاب والأدباء واللغويين ، ذلك محاولة تيسير الانتفاع
بالصحاح وتمهيد سبيل إليه لا يبهز أنفاس سالكه ؛ بوساطة مختصرات ،
يكون فيها غناء الباحث المتعجل ، والشادى المستسهل .

واحتشد العلماء حول الصحاح ، وأخذوا يختصرونه رغبة في تقريبه إلى
الناس ونشره تيسيراً للعلم والمعرفة بلغة القرآن ؛ وما في العربية معجم
احتفى به كالصحاح ، وما بها معجم التفّ حوله جيش من العلماء يختصرونه
ككتاب الجوهرى ، بل هو المعجم الوحيد الذى اختصر كثيراً ، وما يزال
يختصر ، مما يدل على عظم شأنه وسمو منزلته ، ومن أشهر المختصرات التى
انشقت عن الأم الكبرى ؛ هذه الكتب :

٧٢ — « ينابيع اللغة » لتاج الدين محمود بن أبى المعالى بن الحسن الخوارى
الذى كان حياً سنة ٥٨٠ هـ حرد فيه الصحاح من الشواهد ؛ واختصره ،
ثم ضم إليه من « تهذيب اللغة » للأزهري و « الشامل » لأبى منصور

الجبان و « المقاييس » لابن فارس قدراً صالحاً من الفوائد والفرائد ، وهو كتاب صالح كبير الحجم ؛ يقرب حجمه من حجم الصحاح^(١) ، وهو غير كتابه « ضالة الأديب في الجمع بين الصحاح والتهذيب » الذي أشرنا إليه في باب الكتب التي جمعت بين الصحاح وغيره من المعجمات العربية ، ولم نضع « ينابيع اللغة » فيه لأنه مختصر للصحاح ، وبعد أن اختصره ضم إليه من التهذيب والشامل والمقاييس قدراً صالحاً ، ولو وضعناه لما كان علينا تشريب .

و « ينابيع اللغة » أقدم مختصر للصحاح ، والحوارى أول من تصدى له بالاختصار ، هذا ما وصل إلى علمنا ، وكنا ذكرنا في المقدمة^(٢) التي كتبناها لتهذيب الصحاح تأليف الزنجاني الذي نشرناه قبل بضع سنين ما نقله : « لعل ترويح الأرواح للزنجاني أقدم مختصر لكتاب الصحاح » فالزنجاني والحوارى كانا متعاصرين إلا أن الزنجاني ولد سنة ٥٧٣ هـ والحوارى كان حياً سنة ٥٨٠ هـ وقرأ الحواري الصحاح على أبي الفضل أحمد بن محمد بن أحمد الميداني النيسابوري^(٣) ، والميداني توفي سنة ٥١٨ هـ^(٤) وعلى هذا يكون الحواري قرأ الصحاح على الميداني قبل ميلاد الزنجاني بخمس وخمسين سنة .

ولا نشك أنه أسبق من الزنجاني ، وكان الحواري مشاركاً في العلوم

(١) معجم الأدباء طبعة مرجليوث ٤١٥ : ٢ ، ١٠٨ : ٢ ، ١٧١ : ٧ ، ١٥١ : ١٥٢ والبلغة ٣٩٠ وأسماء المؤلفين ٢ : ٢٤٢ ومقدمة ادوارد اين لمجمعه .

(٢) صفحة ٥٢ .

(٣) معجم الأدباء طبعة مرجليوث ٤١٥ : ٢ ، ١٠٨ : ٢ .

(٤) أسماء المؤلفين ١ : ٨٢ والبلغة ١١٥ .

والآداب ، والزنجاني حينئذ طفل صغير، ويكفي أن يكون الخواري أديباً عالماً شاعراً ناثراً قبل ميلاد الزنجاني بأكثر من نصف قرن .

٧٣ — « ترويح الأرواح في تهذيب الصحاح » للإمام المحدث الفقيه أبي المناقب ، أبي البقاء ، محمود بن أحمد بن محمود بن بختيار الزنجاني الشافعي (٥٧٣ — ٦٥٦ هـ) وهو من زنجان — بلد كبير من نواحي الجبال قريب من نهر قزوين — وأفتى الزنجاني ودرّس بالمدرسة النظامية والمستنصرية ، وولى قضاء القضاة ببغداد مدة ، واستشهد في كائنة ببغداد بسيف التتار سنة ٦٥٦ هـ ، ويصفه الذهبي بأنه كان من بحور العلم^(١) .

وقد ذكر الزنجاني أن مختصره — هذا — وقع من الصحاح موقع الخمس ، دون أن يحذف منه سوى الخمس .

٧٤ — ثم اختصر الزنجاني « ترويح الأرواح » وذكر سبب ذلك في مقدمة المختصر الثاني ما نقله : إني لما فرغت من كتاب « ترويح الأرواح في تهذيب الصحاح » تأليف الأستاذ إسماعيل بن حماد الجوهري — رحمه الله — ووقع حجمه موقع الخمس من كتابه ، من غير إهمال شيء من لغته ، وكان قد هداني إلى تهذيبه — أعني تجريد لغته من النحو والصرف الخارجين عن فنه ، وحذف ما فيه من حشو وتكرار ، وإسقاط ما لا حاجة إليه من الأمثال والشواهد الكثيرة — رومُ التخفيف والإيجاز ليسهل حفظه ، ويقرب ضبطه ، ثم نظرتُ نظراً ثانياً فرأيتُ هم بني الزمان ساقطة ؛ ورغباتهم نائمة ،

(١) طبقات الشافعية للسبكي ٥ : ١٥٤ وطبقات الشافعية لتقي الدين بن شهاب الشافعي ، الورقة ٥٣ ب من المخطوطة رقم ١٥٦٨ بدار الكتب المصرية ، والمنهل الصافي ٣ : ٣٤٠ مخطوطة دار الكتب رقم ١١١٣ تاريخ . والنجوم الزاهرة ٧ : ٦٨ وطبقات المفسرين للداودي الورقة ٣١٣ من مخطوطة دار الكتب رقم ١٦٨ تاريخ .

وحرصهم قليلا ، وحفظهم قليلا ، فأوجزته إيجازاً ثانياً ؛ حتى وقع حجمه موقع العُشر من كتاب الجوهري ؛ ولا يعوزُه من لغته أكثر من العُشر .

ولهذا المختصر ميزات ؛ منها : قيمته الذاتية متجلية فيها القيمة التاريخية ، إذ يُعدُّ أقدم مختصر معروف حتى الآن ؛ لأن مختصر الخوارى غير موجود ، وهو يمتاز بسهولة العبارة ؛ ودقة الإيجاز ، ووضوح الأسلوب ، مع حرصه على الأصل ومساوقته له ، وقلَّ أن يعدل عن عبارة الصحاح إلا أن تلجئه إليه ضرورة .

وقد نشرنا هذا المعجم في ثلاثة مجلدات سنة ١٣٧٢ هـ (١٩٥٢ م) نشرها علميا ، وأعانتى في التحقيق أخى العلامة الأستاذ عبد السلام محمد هارون ، وأضافنا إليه تحقيقات نادرة ، وتنبيهات نافعة تتصل باللغة والنحو والصرف والحديث وغير ذلك ، كما وضعنا له فهرس كثيرة ، منها فهرس لغوى لكل مواد الكتاب رتبناه على الطريقة الحديثة ، وعنى بنشره الأديب الفاضل الشيخ محمد سرور الصبان من أهل مكة المكرمة^(١) .

ولم نجد في المصادر التي كانت بين أيدينا اسماً لمختصر الزنجاني الثانى فاقتبسنا له اسماً نظرنا في اشتقاقه إلى مختصره الأول وسميناه « تهذيب الصحاح » إلا أن « بروكلمان » ذكر أن اسم هذا المختصر « تنقيح الصحاح » ولعل ذلك صحيح .

وقد كان « تهذيب الصحاح » موضع القدر والإعجاب والاهتمام من المشتغلين باللغة والعلم والأدب من عرب وغير عرب ومستشرقين ، وأثار في

(١) أشق هذا الرجل الكبير — جزاه الله خيرا — على طبع تهذيب الصحاح أكثر من عشرة آلاف جنيه مصرى ، وهو مطبوع طباعة أنيقة رائعة .

الصحف العربية كالأهرام والبلاد السعودية والمنهل جدلاً عنيفاً ، واحتفل به إلى جانب العلماء والأدباء ورجال الفكر ملوكٌ وقادة وزعماء .

٧٥ — « مختصر الصحاح » لأبي عبد الله شمس الدين : محمد بن الحسن ابن سباع المعروف بابن الصائغ الدمشقي — وهو غير ابن الصائغ المشهور المسمى محمد بن عبد الرحمن بن علي بن أبي الحسن الزمردى — وكان شيخاً جليلاً فاضلاً ، له معرفة ثاقبة بالنحو واللغة ، بارعاً في النظم والنثر ، وكان له حانوت بالصاغة يقرأ فيه . ولد سنة ٦٤٥ هـ وتوفي سنة ٧٢٢ هـ .

٧٦ — « مختار الصحاح » لزين الدين محمد بن شمس الدين محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي من أهل القرن الثامن وله من المؤلفات : « هداية الاعتقاد في شرح بدء الأمل » وكتاب « التوحيد » نقل عنه الدميري في حياة الحيوان آخر ترجمة الجن ، وكتاب « غريب القرآن » وذكر فيه أن طلبة العلم وحملة القرآن سألوه أن يجمع لهم تفسير غريب القرآن ؛ فأجابهم ، ورتبه ترتيب صحاح الجوهري ، وضم إليه شيئاً من الإعراب والمعاني ، وله شرح على مقامات الحريري نقل عنه المسيو ده ساسي في شرحها ، واسمه « كنوز البراعة في شرح مقامات الحريري » .

وللرازي كتاب « أسئلة القرآن وأجوبتها » وهي مثنان وألف ، وخلصها شيخ الإسلام زكريا بن محمد بن زكريا الأنصاري الشافعي (٨٢٣ — ٩٢٦ هـ) وزاد عليها ، وكتاب الرازي — هذا — مطبوع .

وله تاريخ لطيف من أول الخلافة الإسلامية إلى القرن الثامن ، ومنه نسخة في المكتبة الأهلية بباريس .

ومن تصانيفه : « روضة الفصاحة » و « حدائق الحقائق » في الوعظ و « دقائق الحقائق » في التصوف ، و « معاني المعاني » وهو يحتوي على

عشرة فصول ، وبه مختارات شعرية اصطفاه من مائة ألف بيت .

وخير مؤلفات الرازي « مختار الصحاح » وبه عرف واشتهر ، ومع أنه أباح لنفسه أن يتصرف — بعد الحذف وتجريد الصحاح من الشواهد وإيجازه — فإن الأمانة العلمية دفعته إلى أن يشير إلى هذا التصرف في مقدمته ، ويعزز هذه الإشارة في صلب الكتاب .

و « مختار الصحاح » أشهر مختصراته وأسيرها ، ومنه مخطوطات كثيرة بدور الكتب العامة والخاصة ، وطبع عديداً من المرات ، وأول مرة طبع فيها كان سنة ١٢٨٢ هـ بمطبعة بولاق ، وطبع أكثر من ثمانى طبعات .

٧٧ — فكرت وزارة المعارف المصرية في طبع « مختار الصحاح » ، فأفسدت جوهره ، وغيّرت نظامه ، واستبدلت به ما يجدر أن يكون كتاباً آخر ، وزعمت أنه مختار الصحاح ، ومن الغريب أن تزعم أنه هو نفسه « مختار الصحاح » وما أدرى كيف يكون ذلك بعد أن غيّرت ترتيبه ليكون موافقاً لترتيب « أساس البلاغة » للزمخشري ، و « المصباح المنير » للفيومي ، والمعجمات الحديثة ، وحذفت الوزارة « ما لا ينبغي أن يطرق مسامع النشء » وكان أولى بالوزارة أن تغير اسم الكتاب وتخلع عليه اسماً جديداً ، إذ ليس من الأمانة أن يحدث الناشر تغييراً جوهرياً في كتاب ويتصرف في ترتيبه ونظامه ومواده ، ويحذف ما يريد ، ثم يستبقى اسمه واسم مؤلفه الذي اعتدى على حقه وسلبه .

ووكلت وزارة المعارف المصرية أمر القيام بقلب كيان مختار الرازي إلى الأستاذ محمود خاطر ، وأشرف على التحقيق العلامة الشيخ حمزة فتح الله ، وكان ذلك سنة ١٣٢٣ — ١٣٢٥ هـ والحق أن نشرة وزارة المعارف المصرية تمتاز من حيث التحقيق والضبط .

ووضعنا لهذه النشرة رقماً وعددناها من المختصرات لأنها تعتبر أحدها ،
وإن اختلفت مع الصحاح في الترتيب والوضع .

٧٨ — « مختصر الصحاح » لأبي الفضل محمد بن عمر بن خالد القرشي
المعروف بجمال القرشي ، ألفه سنة ٦٨١ هـ ، وله حول الصحاح ثلاثة كتب
أخرى هي : « القراح بتكامل الصحاح » وذكرناه في باب التكملات ،
و « نور الصباح في أغلاط الصحاح » وأشارنا إليه في باب النقد ، و « الصراح »
وهو ترجمة الصحاح ، ذكرناه في باب الترجمات . ومختصر الصحاح للقرشي
مختصر دقيق كبير الحجم لم يحذف من الصحاح إلا قليلاً ؛ ومنه نسخة بمكتبة
أحمد الثالث بتركيا كتبت سنة ٩٠٧ هـ بخط فارسي جميل ، وأوراقه ٥٥٩
من الحجم الكبير^(١) .

٧٩ — « نجد الفلاح في مختصر الصحاح » لخليل بن أبيك الصفدي
(٦٩٦ — ٧٦٤ هـ) وله غير المختصر كتابان هما : « نفوذ السهم فيما
وقع للجوهري من الوهم » و « حلى النواهد على ما في الصحاح من الشواهد »
ومختصر الصحاح للصفدي محذوف منه الشواهد وكثير من المواد ، والمواد
التي حواها موجزة ، وذكر أن فيه ما يحتاج إليه القارئ العجل ، وأشار إليه
« كشف الظنون » ولم ينسبه ، وكذلك لم ينسبه من كتبوا عن مختصرات
الصحاح وعدوه بينها ، ولكن مؤلف كتاب « أسماء المؤلفين » ذكر
أنه للصفدي^(٢) .

٨٠ — « الجامع » من تأليف السيد محمد بن السيد حسن الشريف

(١) فهرس المخطوطات المصورة ١ : ٣٧١ .

(٢) أسماء المؤلفين ١ : ٢٥٢ .

ابن حسام الدين بن السيد على المتوفى سنة ٨٦٦ هـ وهو مختصر الصحاح ؛
جرده مؤلفه من الشواهد ، وتكاد تكون مواده مواد الصحاح في العدد
إلا أنه حذف الشواهد ، وأوجز في الشرح إيجازاً غير مخل ، وفرغ من
تأليفه ببلدة أدرنة سنة ٨٥٤ هـ ، ومنه مخطوطة بمكتبة شيخ الإسلام بالمدينة
المنورة تحت رقم ٤٦ لغة ، وعدد أوراقها ٣٩٢ في مجلد ، وفرغ ناسخها منها
سنة ٩٤٨ هـ . وقد اطلعت عليها عندما زرت المدينة المنورة سنة ١٣٦٧ هـ .

٨١ — « ملقط الصحاح والملحق بمختار الصحاح » لمؤلفه پير محمد
ابن يوسف القونوي الأنقروى الرومى (القرمانى الأركلى) الحنفى اللغوى ؛
المعروف بقره پيرى المتوفى سنة ٨٨٦ هـ أو سنة ٨٦٦^(١) هـ . وقد ذكره
صاحب كشف الظنون .

٨٢ — « مختار اللغة » لمحمود بن أويس ، وهو مختصر مجرد من
الشواهد ، دقيق العبارة موجزها ، وأكبر من مختار الرازى قليلا ، ومنه
نسخة بمكتبة شيخ الإسلام بالمدينة المنورة كتبت سنة ٨٨٧ هـ وأوراقه ٣٠٠ .

٨٣ — « مختصر الصحاح » . لمؤلف اسمه « الجوابى » ، وهو مختصر
جليل في مجلدين ، ومنه نسخة بخزانة مكتبة الأزهر تحت رقم ٤٦ كتبت
سنة ١٠٠١ — ١٠٠٢ هـ

٨٤ — « مختصر الصحاح » تأليف المولى محمد بن مصطفى التيروى
الرومى الحنفى المعروف بالعيشى^(٢) ، وكان مدرسا بمدرسة ابن ملك ببلدة تيرة^(٣)

(١) أسماء المؤلفين ٢ : ٢١٣ .

(٢) في المقدمة التى كتبها الشيخ العلامة أبو نصر الهورى — رحمه الله — للصحاح :
القيسى . والصحيح ما قلناه .

(٣) أسماء المؤلفين ٢ : ٢٦٧ .

وهي التي نسب إليها . قال صاحب كشف الظنون : « وهو أنفع وأفيد من مختار الصحاح ؛ كذا قيل ، ولكنه غير مشهور » .

٨٥ — « صفو الراح من مختار الصحاح » . لأبي الوجاهة عبد الرحمن ابن عيسى بن مرشد العمرى الحنفى الهمدانى ، مفتى الحرم المكى ، وأحد شعراء الحجاز العلماء ، ولد بمكة سنة ٩٧٥ هـ . وولى ديوان الإنشاء فى ولاية الشريف محسن بن الحسين ، ولما مات محسن وتولى الشريف أحمد ابن عبد المطلب قبض على عبد الرحمن وقتله سنة ١٠٣٧ هـ وله مؤلفات فى اللغة والنحو والصرف والبلاغة والتفسير والمناسك والأدب^(١) .

وهو مختصر لمختار الصحاح تأليف الرازى ، ويصلح أن يكون معجم جيب ، ولعل ناشرا يُوفّق لذلك فيحيى تراث مكة اللغوى بإحياء اسم هذا العالم القليل ظلما .

وإن مختصر الهمدانى مختصر جيد جدير بالطبع ، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣١ لغة .

٨٦ — « مختار مختار الصحاح » لداود بن محمد القارصى الرومى الحنفى ، نزيل القاهرة ، وله شروح على بعض كتب المنطق والعقائد والأصول وكان حيا سنة ١١٧٠ هـ وهو مثل « صفو الراح » مختصر لمختار الصحاح للرازى^(٢) .

٨٧ — « مختصر الصحاح » لأبى الكرم عبد الرحيم المدنى .

٨٨ — « مختصر الصحاح » لمحمد بن أحمد بن أحمد بن نجم الدين الحنفى .

(١) خلاصة الأثر ٢ : ٣٦٩ — ٣٧٦ مقدمة تهذيب الصحاح ص ٥٤ الأعلام ٢ : ٥٠٣ .

(٢) أسماء المؤلفين ١ : ٣٦٣ .

٨٩ — « مختصر الصحاح » لعلی العلی بادی .

وثلاثة المختصرات الأخيرة ذكرها بروكلمان في كتابه « تاريخ الآداب العربية » .

الترجمات

ليس ما ذكرنا كلَّ مظاهر النشاط في التأليف المعجمي أو التأليف اللغوي الذي بعثه الصحاح في محيط الثقافة العربية ، بل تجاوزه إلى أبعد من ذلك مما يدل على عِظَم قدر الصحاح وما ناله من قدر كبير واحتفاء كريم عند أبناء الأمم غير العربية ، حتى ترجم إلى الفارسية والتركية ، ومن هذه الترجمات :

٩٠ — « الصراح من الصحاح » لأبي الفضل محمد بن عمر بن خالد القرشي المشتهر بجمال القرشي ، ألفه سنة ٦٨١ هـ ، وقد ذكرنا له مؤلفين حول الصحاح — غير الصراح — أحدهما في باب التكملات والمستدركات والثاني في باب النقد .

والصراح ترجمة للصحاح إلى اللغة الفارسية ، إلا أن المترجم أبقى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والشعر والأمثال على لغة الصحاح ، ولم ينقلها إلى الفارسية .

وتصرف القرشي في ترجمة الصحاح . فأضاف إليها نقداً تحامل فيها على الجوهرى ، فانبهرى له الشيخ محمد سعد الله المفتي المرادأبادى نزيل رامفور بالهند ، ورد على القرشي وسمى كتابه « نور الصباح في أغلاط الصراح » وقد مر ذكره في باب الكتب المؤلفة في الدفاع عن الصحاح .

ومن الصراح نسخة بمكتبة شيخ الإسلام بالمدينة المنورة كتبت سنة ١٠٩٠ هـ وأوراقه ٤٠٠ في مجلد ورقمها بها ٨٠ لغة ، وطبع مرتين بدار الإمارة بـكلكتا . وكانت الطبعة الثانية سنة ١٢٤٥ هـ .

٩١ — « الترجمان » . تأليف پير محمد بن يوسف القونوى الأنقروى الرومى الحنفى (القرمانى الأركلى) المعروف بقره پيرى المتوفى سنة ٨٨٦ هـ أو سنة ٨٦٦ هـ وقد سبق أن أشرنا فى باب المختصرات إلى مختصر الصحاح الذى ألفه پير محمد .

والترجمان ترجمة إلى اللغة التركية ، وقد ذكر فى مقدمته أنه لما فرغ من « ملئقط الصحاح والملحق بمختار الصحاح » رأى ميل الطلاب إلى ترجمة الصحاح فآلفها وسماها « الترجمان » .

٩٢ — ترجمة المولى محمد بن مصطفى الكورانى الرومى الوانى المعروف بوان قولى المتوفى سنة ١٠٠٠ هـ . وكان قد تولى قضاء المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم^(١) .

وهذه الترجمة إلى اللغة التركية ؛ وقدمها بفصلين ؛ أحدهما فى بيان الأفعال ومتعلقاتها ، والثانى : فى جميع الأسماء والصفات .

٩٣ — ترجمة الأخترى ، وأخترى ، لقب مصلح الدين مصطفى بن شمس الدين القره حصارى ، وسمى ترجمته للصحاح بلقبه ، وأخترى كبير ، وآخر صغير ، وفرغ من تأليف الكبير فى ربيع الأول سنة ٩٥٢ هـ وطبع بدار

الطباعة العامرة سنة ١٣٩٢ هـ ثم طبع بالاستانة سنة ١٣١٠ هـ ، ثم أعيدت طباعته بالتصوير (الأوفست) في تبريز بإيران .

٩٤ — « مرقاة اللغة » أخذ مؤلفه — وهو مجهول — أربعة عشر ألف كلمة من الصحاح وستة عشر ألف كلمة من القاموس ، ألفه بالعربية ثم ترجمه إلى التركية ، وقد أشرنا إليه في باب « كتب جمعت الصحاح وغيره » وذكر صاحب البلغة^(١) أن اسم الكتاب « مرقاة النفوس » وقال مؤلف « كشف الظنون^(٢) » : إن اسمه « مرقاة اللغة » وهو الذى اخترناه .

٩٥ — « منتخب اللغات » للملا عبد الرشيد الحسينى المدنى . أخذ من الصحاح ومختصره المسمى « الصراح » ومن القاموس مواداً وفسرها بالفارسية ؛ وهو مطبوع بالهند .

٩٦ — وألف جوليوس Golius (١٥٩٦ — ١٦٦٧ م) معجماً عربياً لاتينياً استعان فيه بالصحاح ، وطبعه فى ليدن سنة ١٦٥٣ م وبقي معجم جوليوس مرجع المستشرقين حتى ألف فرايتاغ معجمه .

٩٧ — واختار المستشرق الألمانى فرايتاغ^(٣) Freytag من الصحاح طائفة كبيرة من مواده وأضاف إليه ما اختاره من القاموس وغيره ، وألف من كل ذلك معجماً فى أربعة مجلدات ، وجعله بالعربية واللاتينية .

(١) البلغة ١٦٨ .

(٢) كشف الظنون ٢ : ١٦٥٧ .

(٣) هو من تلامذة المستشرق المعروف ده ساسى ، وتلقى اللغات الشرقية فى باريس ، وقام بتدريسها فى كلية بون ، وألف عن العرب ولغاتهم وتاريخهم ، وألف بالألمانية كتاباً عن اللغة العربية فى الجاهلية والإسلام ، طبع فى بون سنة ١٨٦١ م (تاريخ آداب اللغة العربية ٤ : ١١٦٧ .

مظاهر أخرى

وليس هذا كلّ مظاهر النشاط الذى بعثه الصحاح ، بل هناك مظاهر أخرى ، ولكنها ليست مثلما أشرنا إليه ، إلا أن البحث العلمى يقتضينا ألا نُغفلها ، لأنها تتبطن نوعاً من تأسى العلماء من غير العرب الإمام الجوهري فى اقتباس منهجه وطريقته ، بل استعاروا منه — فوق ذلك — الاسم ، ومنهم من اكتفى بالطريقة والمنهج ، ومن هؤلاء :

٩٨ — هندو شاه بن سنجر بن عبد الله الصاحبى الكيزانى النخجوانى — وكان حياً فى سنة ٧٣٠ هـ — ألف كتاباً سماه « صحاح العجم » وله بهذا الاسم كتابان : قديم وجديد ؛ وكلاهما مرتب ترتيب الصحاح ، ويقول هندو شاه : « وسميته به لكونه على أسلوب صحاح العربية » وهو باللغة الفارسية .

٩٩ — وللشيخ يحيى بن بنخشى بن إبراهيم الكونانى الرومى الأمرى القرشى المتوفى سنة ٨٤٠ هـ أو سنة ٩٠٠ هـ كتاب « صحاح عجمى » فى اللغة^(١) وهو مثل صحاح العجم .

١٠٠ — ولمولانا محمد بن پير على المعروف ببركلى كتاب اسمه : « صحاح عجمية » وهو رسالة باللغة الفارسية ، وهو قد استعار اسم الصحاح .

١٠١ — وألف المولى أحمد بن سليمان شمس الدين المعروف بابن كمال باشا شيخ الإسلام الرومى الحنفى المتوفى سنة ٩٤٠ هـ كتاباً سماه « محيط اللغة » فى الفارسية والعربية ، وتأسى طريقة الجوهري فى صحاحه .

١٠٢ — وتأسى طريقة الجوهري شيخ الإسلام ملا صالح أفندى من علماء القرن الحادى عشر ؛ وألف كتاباً سماه « قاموس الأروام فى نظام الكلام » جمع فيه الألفاظ التركية وفسرها بالعربية ، واتهجج الصحاح فى

(١) أسماء المؤلفين ٢ : ٥٣٠ .

النظام والترتيب ، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٤ لغة ،
وهي بخط جلال الدين الصديقي كتبها سنة ١٠٤٣ هـ .

وهناك أنواع أخر من الاهتمام والعناية بالصحاح ، فقد نظمه شاعر ،
وشرح شواهد أديب ، وخرّج أحاديثه عالم . وقارن بين مواده ومواد
القاموس علماء .

١٠٣ — نظمه أبو الحسين زين الدين : يحيى بن معطى بن عبد النور
الزواوى المغربى النحوى (٥٦٤ — ٦٢٨ هـ) وكان إماما فى النحو واللغة ؛
مبرزاً فى النظم ، وهو صاحب الألفية المعروفة بألفية ابن معطى ، نظم
ابن معطى الصحاح ولكنه لم يستطع أن يكمله .

١٠٤ — وخرّج الإمام السيوطى أحاديث الصحاح فى كتاب سماه :
« فلق الإصباح فى تخرّيج أحاديث الصحاح » .

١٠٥ — وتولى خليل بن أيبك الصفدى شرح شواهد الصحاح وسماه :
« حلى النواهد على ما فى الصحاح من الشواهد » .

١٠٦ — وألف السيوطى كتاب « الإفصاح بزوائد القاموس على
الصحاح » قارن بين الكتاين وأحصى المواد الزائدة فى القاموس .

١٠٧ — فانبرى له مؤلف غير معروف ورد على السيوطى وألف كتاباً
عنوانه « ضوء القابوس فى زوائد الصحاح على القاموس » ذكر فيه المواد
الزائدة فى الصحاح .

١٠٨ — وألف محمد بن يوسف المعروف بالنهالى الحلبي الشهير بنابى
زاده المتوفى سنة ١١٨٦ هـ كتاب « ابتهاج النفوس بذكر مافات القاموس »
وقد ذكر كثير من المؤلفين أنه مجهول المؤلف ، ونسبهُ بعضهم إلى
الفيروزبادى ، وهو خطأ ، ومنه نسخة بمكتبة شيخ الإسلام بالمدينة المنورة ؛

موضوعة في « ظرف » كتب عليها اسم الكتاب ، ونسب تأليفه إلى الفيروزبادي . ولكن في الكتاب ورقة تذكر أنه للنهالي ، والعلم عند الله .

١٠٩ — وكتب المستشرق الألماني بروكلمان^(١) بحثاً عنوانه « الجوهري وترتيب حروف الهجاء العربية » نشر في ZDMG م ٦٩ ص ٣٨٣ وما يليها .

هذا بعض ما قام حول الصحاح من دراسات تناولته من أكثر جوانبه ؛ تدل على ما قوبل به من حفاوة ما تزال تتجدد على مر الأيام ، وما كل هذا النشاط الذي شهدناه إلا آية على عِظَم الصحاح وعلى حسن قبول الناس له وعنايتهم به ، وحق لهم ذلك ؛ فالجوهري أول من فتح طريقاً جديداً في التأليف المعجمي ، وما زالت قواعد نظامه المبتكر الذي لم يُسبق إليه متبوعة حتى اليوم ، وستُتبع ما كان في العربية مؤلف معجم عربي ، وهذه القواعد مراعاة الحرف الثاني والثالث والرابع في ترتيب المواد والكلمات .

والصحاح أول معجم عربي صحيح يوثق به ثقة علمية ، ولا نغالي إذا قلنا : إنه أول معجم حق عُرف في العالم ، لأن المعاجم التي عاصرتة أو سبقته في الأمم العربية أو غير العربية لم تكن في مستواه العلمي واستيعابه كثيراً من مواد اللغة الصحيحة ، وترتيبه ونظامه ودقته وتحريه الصحة .

وأكثر المعجمات لم تكن إلا معجمات خاصة ، أما إذا كان هناك معجمات عامة فلا تصل إلى درجة « الصحاح » في الدقة والاستيعاب والشمول والترتيب والمنهج وروعة الأسلوب في تفسير الكلمات وثقوب النظر ونفاذ البصيرة في الاستقصاء والفهم ، وما من شك أن « تاج اللغة وصحاح العربية » طفر — أبعد ما تكون الطفرة — بالتأليف المعجمي ، وخطا أعظم خطوة عرفها تاريخ العربية في هذا السبيل .

(١) المتقى ١ : ٣١ .

مَقَامَاتُ الصَّحَابِ

تَأليف

أحمد عبد الغفور عطار

دار العلم للملايين

ص.ب. ١٠٨٥ - بيروت

حقوق الطبع محفوظة للمحقق

الطبعة الأولى

القاهرة

١٣٧٦ هـ - ١٩٥٦ م

الطبعة الثانية

بيروت

١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الفهرس

صفحة		صفحة	
٨٩	البرمكى	٩	اللفة العربية
٩٠	أبو على القالى	٩	اللفة : مجتمع وحياة
٩٢	المدارس المعجمية	١٠	العربية الأولى
٩٥	مدرسة الخليل	١٣	تنقيح العربية
٩٩	مدرسة أبى عبيد	١٣	قصور العربى عن فهم كل اللفة
١٠١	مدرسة الجوهري	١٥	من يحتج بهم يخطئون
١٠٤	مدرسة البرمكى	٢٣	العربية غنية ومرنة
١٠٨	الصحاح	٢٧	عناية العرب بلغتهم
١٠٨	الجوهري	٣٧	حفظ اللفة وتيسيرها
١٠٩	وفاة الجوهري	٣٨	المعاجم
١١٠	الصحاح	٣٨	متى عرفت كلمة المعجم
١١٢	آراء العلماء فى الصحاح	٣٩	أى الأمم سبقت الى المعجم
١١٧	الصحاح والمعاجم الأخرى	٤٢	أسباب تأليف المعجمات
١١٨	منهج الصحاح	٤٧	طليعة المعجم العربى
١٢٦	الأبواب والفصول		العرب سبقوا الى وضع
١٢٩	مزايا الصحاح	٤٩	المعجمات الكاملة
١٣٤	الهئات	٥٣	المعجم الكامل
١٤٨	نسخة المؤلف	٥٤	رائد المعجمات العربية
١٥٤	أثر الصحاح	٥٥	كتاب العين
١٥٧	التعليقات	٥٨	الخليل مبتكر لا مقلد
١٦٠	الحواشى	٦١	نسبة كتاب العين
١٦٣	كتب جمعت الصحاح وغيره	٧١	رواد المعجمات العربية
١٦٧	التكمالات والمستدركات	٧١	أبو عمرو الشيبانى
١٨٢	كتب النقد	٧٦	القاسم بن سلام
١٨٥	الدفاع عن الصحاح	٧٨	ابن دريد
١٩٨	المختصرات	٨٠	الفارابى
٢٠٧	الترجمان	٨٣	الأزهري
٢١٠	مظاهر أخرى	٨٦	ابن عباد
		٨٨	ابن فارس